L I A N A B A D R

روايات

ليانة بدر

أرض السلحفاة





أرض السلحفاة

ليانة بدر

الشخصيات المذكورة تخييلٌ روائيّ، وليست لها علاقة بالواقع.

عندما كنتُ صغيراً

وجميلاً

كانت الوردة داري

والينابيعُ بحاري

صارت الوردةُ جرحاً

والينابيع ظمأ

_ هل تغيّرتُ كثيراً؟

من قصيدة "غريب في مدينةٍ بعيدة" لمحمود درويش

الرحلة..

كنتُ أقفُ على الجسر القديم قبل زمنٍ لا هو بالطويل ولا بالقصير.

مَن يمكنه أصلاً تعريف حجم الزمن، طوله، أو قصره؟ خصوصاً حينما يقف على جسرٍ ويظل واقفاً عليه عاجزاً عن التحرك إلى الأمام أو الخلف، إلى اليسار أو اليمين، إلى فوق أو إلى تحت.

أنا مَن كنت أقف على هذا الجسر الخشبي الذي لا يتجاوز طوله خمسة أمتار، ويبدو الآن كأنه بطول الأبدية. جسرٌ يمكنك اجتيازه بخمسين خطوة، لكنك إن خطوت فستترك وراءك عالماً كاملاً، وتدخل إلى كهفٍ له سلاسله وقيوده يُسمّى "بلادي".

حولي كان هناك شرطيٌّ وحراس حدود، وكان معي 36 صندوقاً من الكرتون؛ ستةٌ وثلاثون صندوقاً تضم الرسومات والتحف الفنية التي أردتُ أن أصطحبها معي لتُذكّرني بأنحاءٍ شتى من العالم، سواء وصلتُها أم لا. أعمالٌ فنيةٌ مرسومةٌ بالصَّدَف البحريّ من فيتنام. دمى من الصين والهند ترتدي أقمشة الساري الحريرية والمطرزة بوشيٍ ذهبيّ. تماثيل أفريقية مزدانة بخرزٍ وعقودٍ من أحجار اليشب والكهرمان. لوحاتٌ لفنانٍ تونسيٍّ معروفٍ تحمَّلَ وهج الشرق ودقة الغرب، وتطاريز منمنة من إسبانيا كنتُ عثرتُ عليها في معرضٍ ما. وصورٌ عائليةٌ كثيرةٌ بالأسود والأبيض، مُضافةً إليها بطاقاتٌ ملونةٌ عن مرسى البحر الأبيض المتوسط الذي كنا فيه، كي يراها الأهل الذين لم يعرفوا المكان الذي استضافنا سنواتٍ بدفءٍ لا مثيل له.

استطعتُ إدخالها جميعاً، عدا قاعدة المصباح النحاسي المزركش بحروفٍ عربية، فقد تذرَّع حراس الجسر بغياب المسؤول عن تفتيشها ومراقبة ما يوجد في قاعدتها المعدنية، ولم تكن تلك سوى حجةٍ للاستيلاء على قطعةٍ من النقوش العربية الساحرة.

لا أحد يتدخل في أماكن أُخرى في العالم إن كنتَ تحمل بهاراتٍ أو كتباً. لا يلاحقك أحدٌ أو يكترثُ إن كنتَ ترتدي شبشباً أو قبقاباً. ولا أحد يخاف من قنينة عطرٍ صغيرةٍ ترنّ على الحزام الكهربائي بسبب زركشاتٍ معدنيةٍ تُطوقها. لكن.. هنا! موطن العذاب على الأرض، وموطن عذاب البشر منذ أبعد الأزمنة، ربما!

كانت في داخل الصناديق، أيضاً، شرائط الموسيقى. الأغاني، الصور، الرسومات، مخطوطات الشعر. حياة كاملة يضمها كل صندوق. ومعها الآلة الكاتبة، وآلة التصوير. ولو عرف المتحكمون بنا أن يمسحوا قلوبنا من آثارها لاخترعوا أيضاً آلة فحصٍ إلكترونيةٍ للقبض على قصص الحب، واحتدامات العواطف، وأنين الندم وأشواق الغربة.

أليس لهذا سيكون عليّ أن أكتب تاريخ الحب، أو تاريخ الكراهية التي تفور، أحياناً، لتخنق الإنسان فينا، عندما أصل؟

سائق الباص يصرخ: يَلّا يا أخواتي. يَلّا يا حجة. يَلّا يمّا. اقعد ورا يا ولد. خلي عمو يمشي.

تقول أُمٌّ تحتضن ثُلةً من الأطفال في الخلفية: مين تصريحه مع الجواز مش "مكبس" يا إخواني؟

(وهي تقصد أن يكون هناك دبوسٌ معدنيٌّ يجمع الهوية الشخصية مع التصريح).

يُردّد السائق: نَزْلوا العفش.

بغتةً تُرادوني الأصوات العالية المتضاربة وراء باب الباص الضخم، الذي يحتجزني وأُناساً كثيرين، بعد أن صحوتُ من التحويم وحدي في عالمي الخاص.

تطوف حولي رائحةٌ عطنةٌ لعرق الأجساد والأرجُل المحتبسة داخل أحذيةٍ تطفح باللزوجة التي يُخلّفها الحر. الوصول هو المهم. رحلةٌ خرافيةٌ من الضوضاء، ووهج الشمس الساطعة. صداعٌ وغثيانٌ وإحساسٌ بالطفو في الهواء.

ليلاً كنتُ في أريحا تحت شجرةٍ في بيت صديق والدي، يجتمع تحتها معارف العائلة وأصدقاؤها. هناك حيث الظل والطقس اللطيف وكاسات الشاي المغليّ على الحطب بالنعناع

الريحاويّ الذي ينمو على ضفاف الأقنية. كانت النجوم تومض وتتلامع فوق خيمة السماء. وهناك على طاولة الشرفة، التي تُنيرها أنوار الجمر الخافتة، كؤوسٌ من الليمونادة الباردة لمن يودُّ تذوُّقَ عصير الثمار الطازجة الآتية من الأشجار خلف الدار أيضاً.

تلك الليلة استقرت 36 كرتونةً في البستان على شرفة بيت عمي أبي سعيد.

تواريخ صغيرة

عندما رجعتُ إلى البلاد، لم أُرد الكثير. عدتُ بحثاً عن كسرةٍ من حياة، لأنّ فتاتها في المنفى الإجباريّ كان بخيلاً وضنيناً، وربما منعدماً. خلَّفتُ ورائي أصداء القذائف على اختلافها: الهاون، الهاوزر، القنابل الانشطارية والفراغية، وأسماء أكثر تعقيداً لم أستطع حفظها.

ودّعتُ ذكريات تلك القشعريرة الباطنية، التي تنتاب مَن يكون منشغلاً في حياته اليومية المعتادة، ويُفاجأ بسقوط قذيفةٍ تدمر وتقتل كل من حولها وتُحيلهم رمماً، فيما يعيش الأحياء الذين بقوا بمصادفةٍ عجيبةٍ هي شرط الحروب.

خلّفتُ ورائي صور المعارك التي فُرضت على المدنيين منا بغرض محوهم من الخليقة، وتلك الذكرى المفزعة لخصلات الشعر المتطايرة بين ردم الأبنية في مخيمات لبنان، وقد كانت لبشرٍ كانوا معارفَ وأصدقاء قبل أن يُفَتِّتَهم الطيران الحربي.

أغفلت المنافي وقبضت على الحلم بالعودة إلى ذاكرة هذه الأرض وصورها. هنا مساحةٌ من الأُمنيات، وهنا سوف أحلم بتصوير تواريخ صغيرة.

أُروِّضُ النفسَ على قبول السجن الصغير، على أمل أن يُصبح مكاناً إنسانياً ينبض بالحرية والكرامة ذات يوم، آملةً أن أُعاود فيه استجلاب ذاكرة الأحلام الكبيرة التي تُغيّر العالم.

أستعيدُ صوتَ أُمي الراحلة.. وهي تُذكّرني بمن كانت لا تكفُّ عن ذكرها وتذكُّرها قائلةً:

تلك الشاعرة أكملت دراستها رغماً عن مَن أرادوا لها الاحتباس في البيت. تعلمت وكتبت، وأنجزت ما لا تعرفه بقية الخاملات.

حين كنتُ في الثانية عشرةَ لم أكن قد قرأتُ لها بيتاً واحداً، لأنّ كتبها لم تكن في المكتبة التي نتردد عليها.

لكنني، قرأتُ بعدها..

كانت تلك هي تعاليمُ أُمي تتالى أمامي كشرائع حمورابي، أُمي صاحبة النشاط والحركة، التي لم تهدر ثانيةً واحدةً من وقتها إلا لعمل شيءٍ مُفيدٍ أو نَسْجِ تطريزٍ أو رسم لوحة. أخبرتني أنّ عليَّ أنْ أُتابعَ فعلَ كلِّ ما يُمكنُني فعله، حتى ولو داخل الجحيم، وأن لا أقبل الكسل لأنه وصمة البشرية.

ولهذا رجعتُ وأنا أحملُ ذخيرةً من الصُّوَرِ التي لم تنتهِ فترةُ نسيانها بعد أن أودعتُها كيس الذاكرة. أردتُ أن أُصوِّرَ ما أجده هنا، وأولاً تلك السيدة التي خلبت سيرتها لبي.

وكانت هناك.. تلك الشاعرة!

الرائية

كانت تحمل مظلتها الحريرية البيضاء وهي تتمشّى بتؤدةٍ خلال نزولها المُتمهّل إلى وسط البلد حيث السوق القديم، ومصبنة العائلة التي ما زالت تصنع الصابون النابلسيّ بالطريقة اليدوية وتستخدم زيت الزيتون الأصليّ. أذكر كيف مدّت لي يوماً بضع قطعٍ منها وأنا في بيتها الصغير، وهي تقول: خذي، هذه تصلني من مصنع العائلة باستمرار.

تجلس على باب المصبنة ساعاتٍ وساعاتٍ وهي تراقب الآتين والغادين مُنصتةً في أعماقها إلى صوت المدينة. تُلملِمُ احتياجاتها البيتية من باعة الفواكه والخضار والبقالات الكثيرة في البلدة القديمة، ثم تصعد في سيارة أُجرةٍ مُنصرفةٍ إلى بيتها.

يمر العابرون ويُرسلون تحياتهم الحارة إليها. هي المبدعة، وهي الشاعرة. كان هذا بعد أن قضت عشرين عاماً وراء أسوار الدار، وحُقَّ لها الآن أن تستمتع بالحياة وحركة البشر على دوار المدينة، وأن تُؤلّف منها صور الحب والأمل والأحزان التي لم تتوقف يوماً عن التراكم وسط تموُّجاتٍ لا تهدأ.

تُخايلني صورتها بكامل بهائها وجمالها المُستحقَّيْن تتلاوح أمامي وهي تمرُّ حاملةً تلك الأكياس الورقية ذات اللون البنيّ. أتذكَّرُ كيف كانت تؤشر لي باتجاه المدرسة العائشية وتخبرني بازدهاء: تلك مدرستي. ثم تُورد لي أسماء كثيرةً لم تنسها على مرِّ الزمن. تستحضرها وكأنها ترى شخوصها بأُمّ عينيها.

الزهرة! أشارت إلى الزهرة التي رميتُها قبل التصوير في بركة الماء المتخلفة من المطر تحت أدراج الأزقّة الصاعدة إلى البلدة القديمة.

قالت: لولا هذه.. لما حرم عليَّ أخي الخروج من الدار. ولولا الفتى الذي لاحقني وأنا ذاهبةٌ إلى المدرسة ورماها عليّ لما حدث ما حدث. وتبتسم بحزن، لكنها تُعاود الكلام بانشراحٍ وهي تذكر الأخ الشاعر. هو.. أخي المختلف عنهم وحده مَن ساعدني كي أكتب الشعر. بل هو من أحيا روحها التي تحطَّمت في العسف وراء الأسوار. وكان الأخ الآخر قد صرخ بها وضربها وأهانها، لأنها سبّبت العار للعائلة وفضحتهم بالسكوت والتواطؤ مع الفتى الذي ألقى الزهرة في فضاء الحارة.

سألتُها: هل رمى الزهرة عليك؟

قالت: لا، أبداً. الحقيقة أنها طارت في الهواء، ولم تمسَّني.

أخبرها الأخ الغاضب:

لن تخرجي من هنا إلا إلى القبر.

وظلَّت في البيت محبوسةً عشرين سنة، وبعدها خرجت ولفت العالم كله وتجولت في بلدانٍ مُتعددةٍ بعد أن تعلمت كيف تصنع الشعر، وكيف تُعيد به صياغة الأيام، ليس أيامها وحدها، ولكنّ أيام الآخرين أيضاً. أتذكَّرُها وهي تقدم لي قصيدةً جديدةً على ورقةٍ فأُصوّرُها وأُعيد الأصل لها. أتذكَّرُ صوتها ونحن نقوم بمحادثاتٍ هاتفيةٍ يوميةٍ في الأُمسيات، وأسئلتي لها وإجاباتها عن أوضاعها. أتذكّر. ويعود إلى خاطري ودها العميق، وأحاسيسها الصادقة، وصداقتها التي تُشبه ينبوعاً ثرّاً لا يغيض.

ثم أرجع إلى الأوراق أمامي. وأقول لنفسي إنّ الحنين لها لن يستطيع تسجيل فيلمٍ آخر عنها بعدما غادرت هذا العالم.

سأُطالع الأوراقَ المُرشَّحةَ للفيلم الجديد، وأختار بينها.

وقتها رأيتُ شريطاً تلفزيونياً يبثُّ خبراً عن بداية تصوير فيلمٍ مأخوذٍ من روايةٍ من الخيال العلمي تدور عام 2048، وكانت القصةُ تدور حول تاريخ العالم.

تراءى لي آنذاك المُمثل وهو يندفع في زبد مياه البحر وهي تتصاعد وتفور عبر أمواجٍ عظيمة، وطاقم التصوير يحمل الأجهزة وميكروفونات الصوت المُدَلّاة إلى الأمام، مثل شبكة صيدٍ

يتابع عبرها الممثل وهو يركض في الماء، مُحاولاً سحب زجاجةٍ مُغلقةٍ ظهرت فجأةً بين الأمواج المتلاحقة. وها هو يضمُّها بين يديه وهي تنزلق وتبتعد، إلى أن أمسك بها. لا بد من أنَّ هناك شيئاً بداخلها. ها هو يفتحها ويجد أوراقاً، لا بُدَّ أنها رسالة..

يلتقط الشاب بيده المبلولة تلك الرسالة الخارجة من زجاجة.

وأراه. أراه فعلاً حتى بعد أن أطفأتُ شاشة التلفزيون وهو يحادث نفسه، فيما كان يحتضن بيده جهازاً صغيراً يُفتش فيه عن شيءٍ وهو يُدمدم. ثم أرى المشهد كله على اتساعه وبعمقه الكامل، وأفهم تماماً ما يحكي عنه.

أُكملُ ما لم أرَهُ بعين الخيال. هل يمكنني أن أكتب قصةً مثلها؟ وهل تحتل القصة مساحة الكلام؟

وأنا أيضاً أتيتُ ومعي كاميرتي. هؤلاء الذين ظهروا في الخبر الفني على الشاشة كانوا يُصوّرون فيلماً يدور في أجواء الخيال العلميّ، وما يهمني شيء مختلف.

أُريد أن أرى ما ستكون عليه البلاد عام 2048. أُريد أن أكتشفَ تاريخ الحبِّ في توهُّجه، وتواريخ الكراهية في تضاربها وانبثاقها في هذه البقعة من العالم.

ولذلك سأكتُبُها كما تتراءى..

ها أنا ألمحُ شاباً.. يلتقط جهازه الضوئي الصغير، ويحاول قراءة ما حملته زجاجةٌ كانت تطفو على مياه البحر بعد أن استطاع التقاطها.

رسائل البحر

2048

(كل ما يرد هنا يأتي عبر عينَي الشاب الذي التقط القنينة..)

"ذلك الجهاز الضوئي الصغير..

هو الذي يصف الحروف التي استخرجتُها من الزجاجة التي طفت على سطح البحر قبل قليل.

ما زال يشتغل ولم يتوقف..

بدأ بعدها في خَطِّ كلماتٍ لم أعرف ما الرابط بينها.

"عسل. صيف. يعسوب. دفء. بني. ليلكي. قصب. دالية. كمشة من التراب. نسمة. ورق البردى. آيس كريم بالفانيلا. عنب. بهارات. شريط موسيقى. أزرق. ناي. قميص. فرس. ثلج...".

كنتُ قبل عثوري على قنينة الزجاج هذه بدأتُ التفتيش على معنى كلمة حب، التي صرتُ أجدها في العديد من الكتابات الغامضة التي أعثُر عليها صدفةً. وجدتُ هذه الكلمة في الرسوم والشرائط التي تمثل جزءاً من الحياة على وجه الأرض قبل عصر المياه القوية. كلٌّ هذه الأسماء الغريبة التي تتالت أمامي تُصيبني بالتوتر. كم هو غريبٌ أنني لا أعرف الكثير من الكلمات التي استخدمها الناس في الزمن العتيق، حين كانت الأشياء مختلفةً ومُغايرةً لما نعرفه اليوم بعد زمن الطوفان العظيم.

ثار فضولي حين وقعت بين يدي رسالةٌ في قنينةٍ زجاجيةٍ تطوف داخل تيارات المياه، وكانت مليئةً بكلماتٍ تصف الحب الذي أتمنَّى أن أعرف معناه. كانت تعود إلى رجلٍ أراد أن يُوصِلَ

لحبيبته مشاعره الفياضة، وكان ذلك قبل لحظة هجوم مياه المحيطات على اليابسة.

كان من مهمّات جهازي الياباني الصغير الذي لا يتجاوز حجمه إصبعين أن يجعلني أعرف معاني الأشياء المذكورة أو ارتباط بعضها ببعض. يُمكنُ لهذا الجهاز أن يقوم بالبحث في جميع الأنسيكلوبيديات المختصة بمجرد الكبس على زرٍّ واحد. ويُمكن له أن يعلمَ عن طريق التليباثي إن كنتُ قد اكتفيتُ، أم أنّ عليه التفتيش عن المزيد.

أُريد أن أعرف ما هو الحب؟ أُريد أن ألمسه وأن أتطلَّعَ إليه وأن أحمله معي دوماً لو كان فعلاً هناك. أثرت الكلمة فيّ وأضافت إلى جهازي معنىً جديداً ينبض بالغموض والشغف. صار الدفء يسيل على رؤوس أصابعي أثناء التفتيش، وهي التي عهدتها باردةً كالثلج. كانت الرسالةُ التي حملَتها الزجاجةُ الأُولى قد أُرفِقَتْ بملاحظةٍ تقول إنها تعود إلى ثلاثين رسالةً سجلتها اليد ذاتُها. وحتى الآن لم أجد إلا واحدةً منها. وعلى رغم أنّ الاحتمالات لانهائيةٌ في أن أجد بعضها أو لا أجد شيئاً على الإطلاق، فإنني كنتُ الوحيدَ بين مجموعتي الجبلية ممن سُمِحَ لهم بالتدرب على الغوص ومحاولة العيش تحت المياه. ربما لهذا وجدت القارورة الزجاجية التي حملها الموج بعد أن شطبت الخرائط القديمة وانقسمت البلدان السابقة وتغيرت الأجواء تماماً. فقد تحولت طبيعة الأرض، وتغيّرت نوعية سكانها وتركيبتهم منذ أيام "تسونامي العظيم" الذي أعقب ذوبان المحيطات والبحار المتجمدة، خصوصاً القطبين الشمالي والجنوبي.

بات الآن البشر جميعاً يتحدَّرون من نوعين لا غير: أهل الجبل وأهل البحر.

بعد أن غرق الكثير الكثير من سكان الأرض، لم تعد هناك أعراقٌ متنوعة، بل عرقٌ بشريٌّ واحدٌ يتمتع أصحابُه بأشكالٍ مختلفةٍ وألوانٍ مُتعددة، وصار اسمه جنس "حب البقاء". وسبق ذلك إعلان "الأمم المتحدة"، التي تحولت إلى كيانٍ معنويٍّ موجودٍ على الأجهزة الذكية فقط، بأنّ أهل الأرض يعودون جميعهم إلى منشأ جينيٍّ واحد، وأنّ عليهم أن يكفوا عن تفاهات العنصرية التي أوصلت كوكبنا إلى حافة الإبادة. كان اكتشاف عام 2017 عن إنسانٍ (Brigton) في منطقة شيدار (Cheddar) واكتشافاتٌ موثوقةٌ أُخرى في أماكن أخرى أثبتت أنّ لكثيرين من سكان العالم الشمالي وإنجلترا الأصليين وجوهاً سمراء داكنة وعيوناً زرقاء منذ العصر الميثولوني. وتكامل هذا الفتح العلميّ مع ولادة جيلٍ كاملٍ في قاراتٍ مُتعددةٍ ممن يتمتعون ببشرةٍ ناصعة البياض وعيونٍ فاتحة الألوان، مع أجيالٍ أُخرى مختلطة الألوان والأشكال انتشرت في كل مكان، فقضى ذلك على

الخيالات الجامدة، التي حددت الأعراق بألوان الناس وتدرُّجات الفاتح والغامق في البشرة وحدقات العيون.

حدث الخراب الأعظم قبل أكثر من ثلاثين عاماً حينما التقى حاكم أقوى دولة في شمال الأرض بآخَر في أقصى جنوبها، وكان لكليهما طبعٌ نزقٌ وحادُّ المزاج ومصالحُ تجارية متعارضة، وهكذا تقاتلا يومها على عبارة "من يملك منا زراً نووياً أكبر؟"، ووصل التحدي بينهما إلى درجة استخدام قنابل اختبارية هيدروجينية وفراغية اعتبراها بمثابة استعراض عضلات، لكنها زلزلت الأرض وأبادت قسماً كبيراً من السكان، والأفظع أنّها هيّجت المحيطات فاندفعت لتمحوَ المدن الساحلية البهيجة وتغمرها بأكملها.

لم يعد من منجى سوى الجبال. وهكذا صار أهل البحر يعيشون على قوارب فوق الماء، ويتدربون على المكوث تحت المياه ساعاتٍ طويلة، ملتزمين بتدريباتٍ قاسيةٍ لكي تنجُوَ الأجيال القادمة من مصيرٍ قاسٍ لَحِقَ بالأوائل. أما أهل الجبال، فيتدربون طيلة الوقت على أن يقفزوا بين الهضاب والقِمَم المتباعدة، مثل الرجل المطاطي الذي ظهر للمرة الأولى بين شعبٍ صغيرٍ كان مُهدَّداً بأخطارٍ كبيرةٍ يُدعى الفلسطينيين. كان هذا منذ أيام الجدران العالية التي أقامها المستعمرون في بلادهم لتفصل ما بين قريةٍ وقرية، ومدينةٍ وأُختها، وأُناسٍ وعوائلهم. وكان مما يدعو إلى العجب أنّ تلك المحنة أثّرت على تطوير قدرات بعض الفلسطينيين عبر طفرةٍ وراثيةٍ أنتجت جيلاً من عابري الأسوار العالية، بعد أن جعلهم قضاء الوقت الطويل على حواجز إلكترونية ذات أسوارٍ مُدجَّجةٍ بالمعادن والأشرطة المكهربة يُجيدون اختراع فنونٍ من القفز واجتياز الحقول المُكهرَبة لا يُتقِنُها غيرُهم. وقد يسّر لهم هذا السكنَ على الأشجار العالية، تماماً مثلما فعل سكانُ الغابات في القارات كافة.

أما في الدولة التي اضطهدتهم، وكان تخصُّصُها الأول بيع الأسلحة وإقامة الجدران العازلة لمن يطلب حول الأكواخ في أيّ بلدٍ ومكانٍ في العالم، فقد صار هدف وجود الكثيرين فيها الدفاع عن تفوُّقهم على أولئك الفقراء المحبوسين وراء الأسوار، وذلك بالكتابة على ما تبقَّى من الطرق الخَرِبة والجسور المُنهارة والبنايات الضخمة الآيلة للسقوط بسبب عنف الفيضان: "لم يعد لدينا شريكٌ في السلام"، و"الأرض والفضاء لنا وحدنا"، و"قراركم ملك لنا"، و"سنبقى شعب الله المختار رغماً عنكم".

كان هؤلاء الممسوسون يُشبهون آخرين من سكان الكرة الأرضية ممن صعب عليهم الاقتناع بأن اكتشافات الـ"دي. أن. إيه" (D.N.A) أثبتت أنّ الناس تمازجوا واختلطوا عبر أجيالٍ كثيرة، وأنه ليس من صفاءٍ عرقيٍّ يُتيح لأيٍّ كان الإحساس بالتفوُّق على غيره. فسكان الأرض جميعاً يمتلكون المنشأ الجيني ذاته، وهم يتشابهون جميعاً مهما تعددت دياناتهم ومذاهبهم، وليست الألوان والأجناس المتنوعة إلا طلاءً خارجياً للبشر، يُشبه أنْ يصيرَ لونُ التفاحة أشدَّ حمرةً أو أكثر دكنةً وشحوباً، أو كاختلاف لون السمك الذي يعيش على الرمال عن قرينه بين الصخور.

لكن هذه الزجاجة والرسالة الغريبة داخلها أطارتا لُبّي.

فأنا بحق الجحيم أريد أن أفهم ما هو الحب. وهذا الجهازُ الضوئيُّ الصغير لا يُقدّم لي إلا شرائط ومعلوماتٍ لا أستطيع أن أستخلص منها شيئاً مُحدداً. تحت كلمة "حب" تندرج ملايين الأغاني، ومليارات العبارات، ورقصاتٌ بعدد النجوم، وعباراتٌ غامضةٌ مثل ظواهر المجرات البعيدة التي لا يمكنني إدراك معانيها، أو حل رموزها دون استشارة علماء الفلك والفيزياء. فأنا لا أتخصص حالياً إلا في علم المحيطات حفاظاً على استمرار الحياة البشرية، ويشمل هذا قياس كثافة الأسيد الكربوني، ومدى انتقال الإشعاع عبر المياه وقياساتٍ أُخرى خاصةً بالمحيطات لا علاقة لها بكلمات الحب.

ولأنّ معنى كلمات الرسالة المعقد وسياق تتابعها لم يكونا واضحَيْن بالنسبة لي، بات عليّ أن أُحاول فهم الصور التي وردت أمامي. كنتُ أُحاول أن أجد معنى كلمة حب بما يتجاوز القاموس أو الموسوعة. كانت عملية البحث لانهائيةً فعلاً، حتى أنني عثرت على مخطوطٍ عربيٍّ لابن حزم الأندلسي اسمه "طوق الحمامة في الإلفة والأُلّاف"، وهو رسالةٌ في الحب قسَّمها صاحبها على ثلاثين باباً. ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة فقط اثنا عشر باباً. وقد دُهِشتُ واهتزت المرئيات أمامي حينما قرأت مفتتح كتابه بالقول:

"الحب –أعزك الله– أوله هزل، وآخرُه جد".

فماذا يعني هذا فعلاً لمن كان مثلي لا يعرف الفرق بين الجد والهزل، بل لا يعرف الفرق بينهما أصلاً؟!

كم يبدو الحب معقداً وغامضاً، مرتبطاً بالمآسي والأهوال والغضب وأنواعٍ عجيبةٍ من الفرح والسرور في الوقت ذاته. كم يبدو ملتبساً حين يضع مسؤولية الكائن بيد مَن يحبه. كم استمعتُ إلى أُغنياتٍ باللغات المفهومة كلها، وكم قرأت أشعاراً تحاول وصفه فلا تُجيد الإحاطة به، وكأنه كائنٌ خرافيٌّ مصنوعٌ من الفرح والحزن معاً، لكنّ أحداً لا يستطيع الإمساك بتركيبه الجيني.

وأكثر ما أثار دهشتي أنّ المراجع تربط الحب بأنواعٍ من: الكتابة، والطعام، والرقص الذي لا يُمكننا حصر أنواعه التي تعددت بِلانهائيةٍ تُعادل أيام التاريخ الإنساني، بل وأدهشني أسماء بعضها أو التشبيهات التي ترد في أغانيها مثلما تقول أُغنية الـ(Sway) هذه:

When Marimba rythms start to play

dance with me

Make a sway

Like a lazy ocean hugs the shore

Hold me close, sway me more

حقيقةً كان من الصعب عليّ استيعاب أن المحيط الذي اعتاد التهام الناس بسهولة منذ تلك السنوات يرقد في الأغنية كسولاً هانئاً وهو يحضن الشاطئ أمام المحبين. ويبدو أن سلوك المياه وفورانها وغضبها استمرت منذ تلك السنوات التي غرقت فيها قوارب المهاجرين من أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط إلى دول الشمال. ولا بد أن هذه الظاهرة ازدادت عنفاً مع دخول مرحلة تسونامي المجنونة.

كنتُ قد عثرتُ على منظارٍ يشبه المرقاب على الشاطئ، قريباً من المكان الذي عثرت به على الزجاجة، وأردتُ استخدامه لأفهم ما يجري، لأن الأجهزة الذكية التي لدينا تربط الأشياء ببعضها وتدخلنا في حالة تخاطر (تليباثي) مع مَن أرسلها كي نرى بعيونه.

بدأتُ أُعالج المادة التي وجدتُها مكتوبةً على هذا المرقاب بعد أن وجدتُ الرسالة تلك، وأخيراً استطعتُ أن أجد العلاقة بينهما، وأن أرى حرفَيْن محفورَيْن على جسد الأُنبوب النحاسيّ داخل شكلٍ

يمثل القلب رمزياً. وعندما بدأ جهازي العمل، بدأت الكلمات تتحد مع بعضها. وبدأتُ أفهم أنّ كل حرفٍ يُشير إلى اسمٍ واحدٍ من هذين المحبين المجهولين.

انتبذتُ ركناً قصياً بعيداً عن درب الناقلات التي تشبه عربات التلفريك قديماً، التي تحررت الآن كلياً من دعم الحبال المعدنية خلال طيرانها. كانت تلك هي المواصلات الفضائية التي تُستخدَم لنقل العلماء بعد أن انتهى عهد الطائرات القديمة. وبدأتُ متابعةَ مسألةٍ غريبةٍ تبدت لي على شاشة الجهاز. رأيتُ عناوين ومناظر وصُوَراً لحربٍ في الشرق الأوسط، حرب في البلقان، حروب في اليمن، حرب في سوريا، حروب في فلسطين، حروب في كل مكان. كان هذا كله على هذه الأرض التي غزتها المياه التي أدت إلى الطوفان الكبير. لحسن الحظ أن بعضنا استأنف العيش وتغلّب على الكثير من العقبات والمآسي التي خلّفتها حروب البشر ضد بعضهم، وحروبهم ضد الطبيعة التي شنّتها أجيالٌ مُتعاقبةٌ منهم.

لم تكن معي قطرات الرحيق التي انتزعتها من صمغ شجرات الصنوبر الصيني، وآخذها ليلاً كي تُجدد نشاطي، لذا نمتُ بعمقٍ تلك الليلة في كوخي المُعلَّق فوق الأشجار القليلة التي تبقّت بعد الانفجار النووي الأخير في منطقتنا. صحوتُ في الصباح التالي، وكانت الموسيقى الصادرة عن الجهاز الصغير الذي ثبتُّه بالأمس على كلمة "حب" تعم المكان. فالسات. رقص شرقي. فلامنكو إسباني. حفلة كاملة كانت تصدر عن الجهاز مُحمَّلةً بكل أنواع الموسيقى في العالم القديم. كانت تنزل بتراتُبٍ متصل.

كانت فكرةً سديدةً أن أربط ذاكرة الجهاز مع ذاكرة المرقاب القديم المرمي على الشاطئ، لأنّ الذرات تحمل ذاكرة الأحداث التي مرت بها، وهكذا بدأت التليباثي بينه وبين جهازي الخاص.

كان جهازي ينقل لي ما رأته عيون صاحب المرقاب في لحظاته الأخيرة. كان متمدداً على شاطئ بحيرةٍ وهو يتأمل الطيور البيضاء التي تُغطي السماء خلال طيرانها وهي مرشومةٌ فوق المحيط الأزرق. ألوانٌ بهيةٌ زاهيةٌ لم يخطر لي أنها موجودة قبلاً بسبب تعكُّر المحيطات والبحار..

الأزرق. اللازوردي. السماوي. الأبيض.

يا للمزيج الرائع!

كان الرجل مرتاحاً على العشب ينتظر زوجته المصورة التي تعمل لمجلة تدعى "الجغرافيا العالمية" في مشروعٍ يهدف إلى الحفاظ على الطبيعة وكائناتها النادرة. كان هو المحرر، وكانت هي التي تلتقط صور الحيوانات التي أخذت في الانقراض لكثرة الصيد وشدة التلوث وصعوبة حصول هذه الكائنات على غذاءٍ بعد أن بدأ الجليد في الذوبان. لقد رأيا بأُم أعينهما دباً يحتضر جوعاً، وفراؤه الجميل الأبيض مُغطّى ببُقعٍ من القذارة والفحم، لأن ذوبان الثلوج جعله عاجزاً عن اصطياد السمك وسط المياه المندفعة في دوّاماتٍ جنونيةٍ حوله. كلاهما كان عاشقاً للدولفينات والحيتان والفقمات وعجول البحر وطيور البنجوين الحساسة والثعالب القطبية البيضاء والكلاب، التي تتشابه والذئاب، ونوارس الماء الرمادية أو ذات اللون البني. وكلاهما كان يعاني من مشكلة دمار الطبيعة بسبب تغلب التلوث والقذارة على بقاعٍ كان الوصول إليها عصياً في السابق، إلا أنها امتلأت الآن بزوارق صغيرةٍ وكبيرةٍ تحمل جموعاً وحشوداً من البشر لغرض السياحة والتسلية. كان العالم الطبيعي قد تحوّل إلى منبعٍ لصناعاتٍ ضخمةٍ أُقيمت من أجل التسلية وصناعة الأثاث الفاخر، وإيجاد أمكنةٍ قصيةٍ يُروِّحُ بها المحظوظون عن أنفسهم الملولة، فيما الفقراء من سكان الأرض الأصليين، كالهنود الحمر وغيرهم، مُحتجزون وراء جدرانٍ وشبكات أسلاكٍ ضخمةٍ لكي لا ينزعج برؤيتهم هؤلاء السُّعداء.

كان الرجل يرقد تحت أشعة شمسٍ بلون العسل، وكان ينتظر زوجته حتى تنتهيَ من تصوير الطيور التي غطّت الهضبة المُعشَّبة التي تُطل على البحر الشمالي، فيما كان مغمض العينين على حلمٍ جميلٍ حينما بدا الانفجارُ المائيُّ الأول.

ركض ليُفتِّش عنها، وترك وراءه حقيبته المنتفخة التي حملت مرقابه النحاسي الصغير مع الزجاجة الأخيرة من رسائل الحب، التي كان أعد لإسقاطها في ذلك اليوم، على الشاطئ الذي حطَّا عليه. لسببٍ ما، كان قد أودع المياه تسعاً وعشرين زجاجة سابقاً، وكان هذا احتفاءً بالحب الذي جمعهما في هذه المنطقة الساحرة من العالم. ولم يخطر له، أبداً، أن يبدأ انفجارٌ كونيٌّ من نوعٍ مختلف.

تصاعدت الأمواج العملاقة، وابتلعت العالم كله، أو هذا ما بدا له. عندما حدث هذا كانت امرأته تستدير عائدةً له وشعرُها المجعدُ الطويل يطير خلف ظهرها، وهي ترفع له يديها تعجُّباً واستغراباً.

ثم حدث كل شيء.

أو إن ما حدث كان يؤدي إلى لاشيء.

وأنا! ما الذي سأفعله بعد أن انقبض جلدي وشعري وجسدي بسبب هذه القصة الحزينة؟

سأُواصل التفتيش لأُدرك معاني الكلمات التي لم أفهمها. سأفهم معنى ما لم أُفكر فيه يوماً، ولم يخطر لي أبداً قبلها. أُريد أن أعرف معانيها جميعاً:

"عسل. صيف. يعسوب. دفء. بني. ليلكي. قصب. دالية. كمشة من التراب. نسمة. ورق البردى. آيس كريم بالفانيلا. عنب. بهارات. شريط موسيقى. أزرق. ناي. قميص. فرس. ثلج...".

أُريد أن أفهم لغة الرجل الحالم، أُريد أن أصير مثله، وأن أعرف دواعي استخدام هذه الكلمات.

قد أزور بعض الشبان والشابات الذين يُواصلون دراسة علم الأشجار مع العلماء المتخصصين في النبات ليشرحوا لي بعضاً منها، وعلى الأقل لكي يفسروا لي لماذا صرتُ مهتماً بكل زهرةٍ تُبرعم في مكانٍ غير متوقع.

وربما سأذهب إلى علماء الشمس، أيضاً، بعد أن صرنا مهددين بخسارتها وانطفائها قريباً. وربما إلى علماء النفس والسلامة العقلية، لكي أتأكد إن وجدوا الطرق لشفاء هؤلاء البشر الذين يطمحون للاستئثار بكل ما على الأرض، ويكتبون مديحاً لأنفسهم على الجسور الخربة وفوق المباني المهدمة لأنهم يظنون أنهم أحسن وأهم من بقية البشر.

أُريد أن أسأل إن كان ثمة مَن سيشرح لي معنى كلمة حب؟!

ولا بد سأفهم يوماً ما كان الرجل يحلم به في تلك اللحظة على ظهر تلك الهضبة المعشبة، وآلاف الطيور تعبر السماء فوقه، والغيوم تمشي وئيداً مثل قطيعٍ من الأفراس التي ترعى في سماءٍ زرقاء تحت أشعة شمسٍ عسليةٍ، وهو ينتظر امرأته.

أزرق. أبيض. لازوردي. فيروزي.

هذه الألوان هي درسي الأول في الأحلام.

أو ربما الحب!

لا بد!"..

وهنا انتهى ذلك الحلم المفتوح عندما كان الشاب يحكي قصته، وقد رأيتُه كاملاً في سَوْرةٍ نادرةٍ من اليقظةِ لم أحلم بتحقُّقِها الواضحِ أبداً قبلها.

السر..

سألتُه: أتخاف مني؟

أُريد أن أعرفَ ما هو السرّ الذي تُخفيه عني؟

تطلعني على صُوَرٍ من حياتك ثم تخفيها كي لا أُعاود تأمُّلَك فيها. ما هو الشيء الذي تكتمه ولا تريدني أن أعرفه؟

في الحياة اليومية أراك بهياً، واضحاً، ثم تختفي وراء شباكك المعتم بغتة، وفي الوقت الذي يكون فيه آخر ما يمكنني فعله هو توقع هذا الاختفاء. قالت جدتي يوماً إنّ لكل إنسانٍ شباكاً على القمر، يمكن له أن يُطلَّ منه على الجانبين: المنير والمظلم. وأنت أين؟ وأيها يستهويك منها؟

ألهذا يُولَع الناس بالشبابيك التي تتحول إلى شِبَاكِ صيدٍ يُمكن عبر خرومها اصطيادُ الوشايات أو الأخبار المُغرضة؟ قل لي ماذا سمعت. أنا أُصارحك دائماً، فلا تُخفِ عني أيَّ شيء!

أُحاول أن أُخبرك قصةً، أو أن أروي لك حكايةً أو ذكرى، لكنك مُنصرفٌ إلى متابعة شؤونٍ لا أعرفها، أخبارٍ وشجونٍ غامضةٍ بالنسبة لي!

أنت تبدو مثل شخصيتين، كلٌّ واحدةٍ منهما لها مزاجٌ مختلف. الضاحك المبتسم مع الناس.

ومعي.. تكون ضائعاً، خائفاً، تُواري الارتباك، وتتوقع المجهول الذي لا تعرفه.

ما الذي يُمكن للمرء أن يخشاه من امرأةٍ أسيرةٍ تحتجزها الأسوار؟

ألم تسمع عن كوكبةِ أندروميدا "المرأة المسلسلة"؟ أنا هي هذه المرأة المسلسلة.

أصلاً لِمَ تُولَع النساء بالأساور، وهي التي تشبه في لفظها ومعناها الأسوار، إن لم تكن لهذا علاقةٌ بالإفصاح عن السلاسل الرمزية والمادية التي تُقيّدهن وتقتل جذوة قلوبهن؟!

أصلاً، كيف يمكن أن يتم قتلُ إنسانٍ من دون جرحٍ واضحٍ أو طلقة؟

بداية..

كنت دائماً أسيرةً لشيءٍ ما، لشرط الكينونة، أو المنفى، أو للحياة نفسها. لم أعرف طريقاً للانعتاق من وطأة الأشياء سوى بإعادة صياغتها عبر الصُّوَر.

صورٌ تتحول إلى كتابة، أو كتابةٌ تتحول إلى صور، وتجعل العالم شفافاً، وتحول الكآبة الرمادية إلى ألوانٍ مُزهرة، فتصبح للأشياء سيولةٌ مدهشةٌ حتى لو كانت وسط الحرائق ذاتها.

عدت إلى أوراقي التي راكمتُها قربي وبدأت أُفتّش فيها. تذكّرتُ الفيلم الوثائقي الآخر الذي يعمل عليه صديقٌ لنا، ويطلق فيه صانعُ الفيلم زجاجاتٍ يُضمّنها رسائل ويرميها في البحر، فيُعاود الناس التقاطها، ويجدون عنوانه داخلها، ويتصلون به بناء على رجائه، حينها يُبادر هو إلى السفر إليهم وإكمال تصوير فيلمه لكي يُدخل فيه ما يمكن من قصص حياتهم. كان يشترط أن تتضمن القصص تلك حكايات البداية. كيف ابتدأ العالم عالمهم هم. لم يهتم يوماً بالنقطة التي يختارونها، فمن غير الضروري انتقاء يوم الميلاد وحده. البداية التي تخصنا هي ما نهتم به.

هل أعمل على شيءٍ مُشابه لأصف البدايات؟

الميلاد
1994

كان عبير الشموع يتصاعد شبيهاً بالمر واللبان مختلطاً مع رائحة زيت القناديل الكثيفة، التي تمتزج جميعها بقوةٍ في الفضاء الساكن حولهما، على رغم أصوات تمتمة آلاف المُصلين داخل سلسلة الكنائس التي تتصل بكنيسة المهد الأساس في بيت لحم.

كانا يحاولان الدخول إلى المهد ليلة الميلاد عندما صاح الضابط الإسرائيلي الواقف أمام الممر بأن الكنيسة ممتلئةٌ عن آخرها، وأنه لا مكان فيها. أرجعهما عن الباب الرئيس.

"ولايةٌ أم وصايةٌ على المكان"؟!

تساءلا.

كان ذلك في السنة التي سترفض فيها دولة الاحتلال الانسحاب من أماكن كثيرةٍ في الأراضي المحتلة بعد الاتفاق الشهير "أُوسلو". قبلها بأشهُرٍ كانت قواتهم حملت عتادها العسكري وخِيَمها وثرثرات أجهزتها "الوكي توكي" المعلقة على أبراجٍ فولاذيةٍ تحيط بمعسكراتها في أماكن أُخرى، وذهبت أو تظاهرت بجمع عتادها ثم عادت.

بدا كأنهم رحلوا من أماكن كثيرة، لكنهم في حقيقة الأمر ما زالوا هنا.

من بعيدٍ ناداهما رجلٌ من أهل الكنيسة، وبعث بإشارةٍ صامتةٍ كي يتبعاه. مشى بهما إلى بابٍ خلفيٍّ صغير، وأشار لهما إلى درجٍ حجريٍّ ضيّقٍ يُفضي إلى السطح.

مستدلَّيْن برجل الدين الذي رافقهما، كان الرجل والمرأة يقفان على أسطح القباب التي تشكل سقف الكنيسة ويقوم الناس تحتها بالصلاة، بل وكانا يقفزان فوقها من واحدةٍ إلى أُخرى. كان الجنود قد منعوا توافد المزيد من الناس إلى داخل الكنيسة الرئيسة، وكان عليهما أن يكونا في الداخل تماماً بعد غيابٍ قسريٍّ عقوداً في المنافي عن هذا المكان. هناك بالضبط بين التراتيل والترانيم الجميلة المتصاعدة من أفواه الجوقة ورجال الدين، الذين يحيون الاحتفال بثيابهم الذهبية المطرزة بخيوطٍ ملوّنةٍ دقيقةٍ وصلبانهم الخشبية الصغيرة التي تتدلى على صدورهم. كانت تقفز حينها على حافة منحنى القبة المالس الضخم، وهي تخاف أن تتزحلق فتقع من فوق السطوح. حسناً، كان من الواضح أن هذه هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى هناك.

خطر لها وهي على هذا العلو في ليلة الميلاد أنّ شذا البخور وشجن الأغاني وفتافيت النداءات والدعوات والاستغفارات المطلقة من أعماق القلوب كانت تتجمع حولها وتُدخلها في بطن غيمةٍ هائلةٍ تُظلّل الكون. غيمةٌ واسعةٌ بحجم كرةٍ أرضيةٍ ذات لونٍ بنفسجيٍّ ورديٍّ تسبح فيها، وتطير فوق البحار والمحيطات وفوق غابات الأمازون وجبال الأنديز، حيث تترقرق ينابيع الماء الصغيرة في أعالي الهضاب. هناك حيث كانت حيوانات اللاما تتراكض مع أصحابها بأرديتهم الصوفية المُحاكة بأيديهم. خطر لها أنّ الموسيقى المتصاعدة من الأصوات البشرية الحنونة ستواصل التحليق، وتأخذها معها إلى جزر المحيط الهادي، تطفح بشلالاتٍ من الضوء والنور، وربما إلى جنوب الكرة الأرضية حيث غاباتُ البامبو وحقول الرز وسفنٌ يدويةُ الصنع ذات مجاذيف طويلة تطوف داخل أنهُرٍ متسلسلة. طاف ببالها أنها قد تسمع أصوات طيور الغابات المطيرة وترددات أغاني السكان الأصليين في بقاعٍ وهضابٍ صحراويةٍ بعيدةٍ غير مكتشَفةٍ من العالم. كان رفيقها ورجل الدين يُحذرانها من الخطو دون تبصُّر، ويشيران لها بأخذ الحيطة والعناية في النظر، وتحسُّس مواضع قدميها فوق القبب والسقوف المتتالية التي عبرتها.

ومن جديدٍ نفذا من ثقبٍ علويٍّ إلى عالم البشر في الأسفل، ونزلا عبر أدراجٍ ينوف عمرها عن مئات الأعوام، ليكونا بين الناس وفي صميم الأغاني، ويشاركا في الاحتفال بولادة سيدنا المسيح.

"وعلى الدنيا السلام، وفي الناس المسرة".

كانت حينها تُفكر بأنه عيد الميلاد الأول الذي نبت لها فيه جناحان كالملائكة.

أجنحة

1995

حين أُعلن عن مسيرةٍ كبيرةٍ لمناهضة الاستيطان في منتصف شهر شباط، لم تكن قد عرفت هي العائدة إلى الوطن بعد كل هذه السنين أيّ تفاصيل جديدةٍ عن خارطة المدينة الجديدة التي تسكنها الآن. ظنَّت أن المسيرة سوف تكون في وسط المدينة الجبلية، الذي يمتد بين ميدان المغتربين القريب من مطعم "البردوني" المتخصص في أكلة المسخن التقليدية وشواء الكباب واللحوم المنقوعة بالبهارات والتوابل، ودوار المنارة الصغير الذي لم تكن أُسوده الحجرية الصغيرة قد استُبدلت حينها بأُسودٍ رخاميةٍ أكبر حجماً.

ظلت ترتدي حذاءها متوسط طول الكعب، ولم يخطر لها استبداله بحذاءٍ رياضيٍّ لم تعرف ضرورته إلا حين ذهبت إلى المسيرة، لتجد أنّ عليها تسلُّق جبلٍ كاملٍ هو الأكثر ارتفاعاً في الضفة الغربية كلها اسمه "جبل الطويل". صحيحٌ أنّ الجبل كان مُواجهاً لبيتها، إلا أنها لم تعرف كم كان يُمكن لتسلقه أن يكون شاقاً، وهو المزدحم من جميع الجهات بردمٍ من أحجارٍ ضخمةٍ جرفتها آليات الاحتلال لإقامة طريقٍ إلى المستعمرة في الأعلى. كان التسلق سيتم من بين هذه الصخور التي تسد الطريق وما بين أجمات الشوك التي تسد بقايا الدروب الضيقة، وذلك للوصول إلى بيوتٍ جديدةٍ بدأوا إضافتها إلى مستعمرة "بيساجوت"، التي بُنيت أصلاً على أرضٍ مسروقةٍ من إسكانٍ يخص موظفين فلسطينيين اشتروها بحُرِّ مالهم من عملهم في الكويت قبل عام 1967.

كانت الأبنية المشادة حديثاً على هذه الأرض أشبه بفيلاتٍ فاخرةٍ لطبقةٍ جديدةٍ من مستوطنيهم. وصل الحشد الذي يحمل أعلاماً، وفيه العشرات من طلبة الجامعة القريبة، بعد صعودٍ شاقٍّ إلى القمة الأكثر علواً في الضفة الغربية، إلى الأرض المنهوبة في الأعلى، وقد جُرفت وتمّ تمهيدها استعداداً لرصفها، ولم يكن هناك على الأرض ما يمكن استخدامه للرمي. لم يتبقَّ إلا

البحص الصغير الذي فرشته الجرافات. لم تكن هناك أيُّ حجارةٍ أو صخورٍ صغيرةٍ سوى تلك الحصى المنثورة من بقايا كسرات الحجارة الغائبة، التي لجأ الطلاب الآن إلى رميها من دون جدوى. بدأ ضُباطهم في إطلاق أصواتهم الخشنة عبر الميكروفونات، معلنين أنّ هذه المنطقة عسكرية، وأنهم سيبدأون إطلاق النار في غضون خمس دقائق. فكرَت بينها وبين نفسها أنَّ تَسَرُّعَ الطلاب قد أدى بهم إلى هذا. فبدلاً من رمي الحصى الذي صار وسيلةً تقليدية، كان على الجميع النوم على الأرض والاعتصام هناك دفاعاً عن أرضٍ تتم سرقتُها وإنهاكُها يومياً، ما كان عليهم أن يغادروا قبل أن يرفد الجيش نفسه بقواتٍ أكبر وأكثر تقدر على إخلائهم.

قالوا: معكم خمسُ دقائق فقط.

صرخوا في الميكروفون: نعلن هذا المكان منطقةً عسكرية.

أطلق الجنود عيارات إنذارٍ ناريةً في الهواء، وانجرف الناس راكضين إلى الأسفل مثل سَيْلٍ فوضويّ.

ربما كانت وحدها التي لم تُصدّق تهديدهم. ظلت تمشي على مهلها، إلى أن رآها واحدٌ من الرفاق. عاد إليها وسحبها دافعاً إياها إلى الركض معه بعيداً عنهم نزولاً. لم تكن تصدق أنّ وضعها مُهدَّدٌ من هؤلاء الغزاة فيما لو نزلت وحدها على مهلها وهي تدندن بينها وبين نفسها أُغنيةً ما. مَن هم الجنود؟ إنهم لا شيءأمام ما شاهدته من حروبٍ سابقة. لا تخافُ، وكان بإمكانها أن تغادر وحدها وتستغنيَ عن هذا الركض، الذي كانت تستصعب بينها وبين نفسها اضطرارها إليه أمامهم. مَن هم أصحاب الأسلحة هؤلاء أصلاً؟

في نهاية الجرف الذي وصلا إليه طيراناً، ترك الرفيق يدها دفعةً واحدةً من دون تحذيرٍ أو إنذار، فوقعت بفعل اندفاع جسمها المُسرع في حفرةٍ سفليةٍ كبيرة، كانت جرافات المستوطنة "الكاتربيلار" تركتها على السفح بين الصخور. أُصيبت برضوضٍ في ساقَيْها وذراعَيْها وكاحلها الأيسر، وعانت أوجاعاً وتمزُّقاتٍ في الأوتار والعضلات لم تُشفَ منها حتى إلى ما بعد ستة أشهر.

كان ذلك اليوم الأول الذي تقوم فيه بفعلٍ عمليٍّ مُضادٍّ للاستيطان في حياتها. لطالما ظنت أنّ أيامها السالفة قد تطايرت في المنافي هباءً، مثل نبات إبليس بشعراته البيضاء الخفيفة، قبل عودتها إلى بلدها.

نعم، فالملائكة لا تُنبت أجنحة.

- *أوردت تقارير من سجن هشارون 2001 أن سلطات الاحتلال وضعت الأسيرة أحلام (...) المحكوم عليها بالسجن أكثر من 1700 عام في العزل الانفرادي، وذلك بعد رفض الاحتلال مطالبها بالتواصل مع أهلها وبزيارة خطيبها (ن) المسجون أيضاً منذ 18 عاماً والمحكوم عليه بالسجن مدى الحياة.*

صُوَر..

تتكاثر الصور أمامي هذه الأيام. صارت الشاشات الإلكترونية مُحمَّلةً بصورٍ عديدةٍ من هذا النوع لأُناسٍ يُعانقون بعضهم، ويتبارون في تقديم المديح لبعضهم، فيما الكراهية العمياء تصمهم بخاتمٍ أسود يجعل من نفاقهم المتكرر مجرد حفلةٍ بائسة. ربما يجدر بنا أن نفتح وكالاتٍ جديدةً لهذه الصور المليئة بالادعاء والتظاهر بسبب خبرتنا الكاملة في معرفة أصحابها على حقيقتهم.

لا تريد أن تتصور مثلهم، بل إنها تريد أن تُصوِّر ما يجري. لا تحب أن تفتح جيوب الذاكرة وينهال ما فيها من ركامٍ يشبه بيتاً أوشَكَ على التهدم، فلم يعد يحتمل ضربةً أو ضربتين من المعاول. هو تاريخٌ طويلٌ من الأسى. أليس تاريخ الكراهية مربوطاً بالحب على الدوام لأنه نقيضه؟

كانوا يضحكون جميعاً في الصورة، كلٌّ على طريقته.

المسؤول الكبير الذي لا يُصدّق نفسَه لفرط السعادة التي تُصيبه كلما أُتيحت له دعوةٌ للسفر إلى بلدٍ أجنبيّ. وها هو يقف هذه المرة في عاصمة الحضارة الغربية مُحتفياً بوجوده البهيّ في أراضٍ أُخرى تحتاج إلى نعمة تواجده، أفلا تستحق المؤسسة التي يُمثلها، وقد وُضعت جميعها بخدمته، ابتسامةً مشرقة؟

وقربه يقف رجل المؤسسات غير الحكومية التي دخلها شاباً متواضعاً، وترقَّى فيها بعد أن أنشأ مؤسسته الخاصة التي يُموِّلها بلدٌ عتيدٌ إلى أن صار الأهم والأعلى رتبةً فيها، وتحوَّل إلى ما يشبه مالك مؤسسةٍ ورئيسها. ألا يحق له أن يضحك قليلاً هنا، بعيداً عن بلادنا المليئة بالضوضاء والتذمرات؟ هنا حيث "الإسبرسو واللاتيه" المنكهة والمقاهي الرصيفية الشهيرة وعازفو الموسيقى المتجولون في ممرات المترو!

وهنالك السيدة التي فشلت مشاريعها العملية جميعاً حتى نفضت عنها آخر آثار الأمل، إلى أن أُتيحت لها دعوةٌ الى هذه الرحلة. وهناك.. هناك.. هناك..

ومعهم أيضاً تلك الموظفة التي لم تستطع أن تصل إلى سدة المجد الذي طمحت إليه بقدراتها المتواضعة، إلى أن وجدت من يسندها من داخل المؤسسة، فوقفت معهم في الصورة داخل الكادر لكي تستعرض نباهتها المدعاة في ابتسامةٍ واسعة.

كلهم.. كلهن.. كانوا هنا؛ في افتتاح مناسبةٍ من إنجازٍ ما حصل صدفةً، ولَسوف يتوقف بالتأكيد بعد بدئه وقبل تطويره ومواصلة تنفيذه.

كلهم.. تماماً.

ابتسامة واسعة!

كما لو كانوا يستعرضون أنفسهم على شاشةٍ عريضة.

عدا صاحب/ صاحبة الصورة.

سينما البلاد
1995

هل يمكن لآلة تصويرٍ أن تُظهر كيف يمكن لها أن تستردّ الألفة مع بلدها، الذي بدا لها كأنه أرض رواية شبيهةٍ بـ"ألِيس في بلاد العجائب" بعدما رجعت إليه بعد ستٍّ وعشرين سنةً في الغربة الإجبارية. لقد صبَت إلى العودة إليه كمن يرجع إلى ينبوع الفردوس الأول، إلا أنه كان فارغاً من أقرانها. بدا كأنّ هبةَ ريحٍ صرصرٍ اقتلعتهم من هناك جميعاً. هاجر الشبان والشابات في ظل انعدام الوظائف وتهديدات الحكم العسكري بإيداعهم في السجون بسبب معارضتهم وعدم إذعانهم للاحتلال. وبقي حشدٌ من الأُمهات والآباء الذين قاوموا الفناء بشعورهم البيضاء وكدسات أدويتهم وقوائم أطبائهم.

كان والداها خارج الحياة الآن، وكانت تسترد ألق حياتها العائلية الماضية التي كانت الشاشات الفضية تعرضها للأولاد والبنات خلال طفولتها.

كان ما يربطها بالعالم القديم الآن فيلمان بتذكرةٍ واحدةٍ يوم الجمعة. ويتجمع حشدٌ من الأطفال والفتية يومها لكي يُشاهدوا العالم في صور، وعلى أحضانهم قراطيس صغيرة من بذر البطيخ والبوشار "البوب كورن". بعد عودتها إلى فلسطين، حضر أحد أصدقاء الطفولة من السعودية. فتَّش عليها، وسافر بين مدينتين إلى أن وجدها، وعندما رآها كان الحديث الوحيد هو قصص الطفولة التي دارت في قاعة السينما في القدس. خبَّرَها كيف قامت أُمُّه بمصالحة والديها في تلك الليلة التي أتى فيها ليُجالسها في القاعة، لأن والدها اضطر إلى ترك الفيلم والذهاب إلى بيت تلك العائلة الصديقة، تلبيةً لرغبة أُمه التي تزعّمت حفلة الصلح تلك.

سبق أن أخذَت على عاتقها استرداد حياتها التي ضاعت قبلها في بلدان المنفى. وها هي تعود بعد ست وعشرين سنةً إلى بلادٍ جُرِّدَت من كل ما فيها، فصارت تشبه الهيكل العظمي المعروض في مشرحة، بعد أن نهبت أراضيها، وتم تسييج بحرها، وانصرف أهلها عن زراعتها وفلاحتها لكي يشتغلوا في العمل عند مستعمريهم بحثاً عن لقمة العيش. بلاد تمَّ منع أهلها من إقامة التجمعات التي تتجاوز الأعراس أو المآتم. لم يكن مسموحاً وصول الكتب العربية الوصول إليهم، ولهذا أُغلقت المكتبات وصالات السينما. ولم تعد هناك تقاليد لحضور العروض المسرحية والسينمائية أو الأُمسيات الثقافية، بسبب القوانين العسكرية التي تمنع التجمعات.

هل كان يمكن بعث الحياة الخافتة لما عشناه من جديدٍ على هذه الأرض؟ سألَت زميلها في العمل، وكان في الماضي إدارياً في أحد مكاتب المقاومة في تلك البلاد الخضراء. زميلها ذاك العائد من المنفى سخر منها في سريرته، وقام بعدها برفع خطابٍ إلى المسؤول كي يصبح مديراً لها، زاعماً أنه أكثر خبرةً منها. كأنّ عهد التصريح بالأحلام قد انتهى، وأتى هؤلاء كي يتبوَّأوا المراكز بزعم أنهم الأكثر أهميةً بين الجميع. كانت قد أخبرته عن شدة توقها لأن تُعاوِدَ شاشاتُ العرض بثَّ إشعاعاتها الفضية.

فكَّرَت بأنه يمكن لها تجديد الحياة وبعثها في صالات السينما بعدما تم إغلاق الصالات كلها. حددت لنفسها مهمةً بأن تُحيي القاعات واحدةً واحدة. لتقم بذلك، إذاً، وتُعاود القبض بيديها على كلّ ما ضاع من حياتها ومن تاريخ المكان. ستكون تلك قصتها الخاصة، التي تقاوم ما تبثُّه كائناتٌ تعشق السيطرة على الغير من تهديداتٍ مُبطنةٍ تحت شعار الخوف.

عرفت هذا يوم تم الإعلان عن المهرجان الفني الأول في نابلس في خريف ذلك العام المشهود، حينما ذهب جمعٌ من الشخصيات الثقافية لحضوره، بالرغم من الإعلانات المضادة التي نشرتها الجريدة المحلية لمن يعتبرون أن المهرجانات تنتسب إلى حقول الشيطان. اجتمعت شخصيات المدينة كي تمشي وصولاً إلى المكان المحدد مع القادمين إليه من أماكنٍ أُخرى. وكانت هناك الشاعرة أيضاً. تمشي في مقدمة الحشد، صغيرة الجرم بعينيها السوداوين المكحولتين، وهي ترتدي جاكيتاً يجعلها تبدو كحمامة بيضاء. هناك حيث تحلَّق حولهم أصحاب اللافتات التي تتهم المهرجان بالفسق والفجور.

سألتني ماسة فيما بعد: حتى لو كانت رقصة "الدبكة"؟

أجبتُها: أصلاً لم يكن هناك غيرها وغير فرقة الأناشيد الجامعية؟ وإلا فماذا!

حتى الدبكة التقليدية، التي اعتاد الناس الاحتفال بها في القرى وفي جميع الأمكنة، وضعوها تحت مقصلة الإدانة واللوم.

يومها ظل الحشد المحتقن يصرخ بشعارات تهديدية غاضبة خارج ساحة الاحتفال، آملين استدراج الدوريات، التي لم تكن انسحبت من المدينة حينها، للقبض على الجميع، بمن فيهم هم أنفسهم الواقفون في الخارج والآخرون المحتفلون في الداخل. اندفعت إليهم دورية جيش وصلها نبأ التجمع الذي ظنته ضدها، ورمتهم بقنابل غازات سامة مسيلة للدموع، تُسبب الاختناق وبعضها يسبب شللاً في الأعصاب. حمل المتظاهرون القنابل ورموها باتجاه حديقة المهرجان، فانصبت جميعها على الحضور، الذين كانوا قد وقفوا تحيةً للفرقة الجامعية التي تُغني نشيد "بلادي" لإبراهيم طوقان. كان الجميع واقفين يغنون ودموعهم تهطل على خدودهم. هي لم تذكر في حياتها أنها غنت لفلسطين بهذه السعادة ودموعها الغزيرة تغطي وجهها، بفعل تأثير الغاز المسيل للدموع، والسوائل ترشح من أنفها، وحنكُها متشنج من أثر غاز شلل الأعصاب. كم أحست بالسعادة تغمرها لأنها كانت هناك تغني للبلاد مهما كره الكارهون.

هؤلاء الذين صاروا ينادون بفضيلة إغلاق العيون عن الفنون، واعتبار التعامل مع أيّ وسيلةٍ ثقافيةٍ خطيئةً لازمة، صاروا يتجمعون ويذهبون إلى المهرجانات الوليدة لإدانتها، حاملين لافتاتٍ تُندد بالفسق والفجور اللذين لا يوجدان إلا في تهيؤاتهم. كانوا لا يُريدون للناس استرداد ذاكراتهم وصُوَرِ أمثالهم وقصصهم وأغانيهم الشعبية ودبكاتهم الحميمة. صاروا يُطلقون مناشير تبث الرعب في قلوب الناس، ليحرموهم من قراءة كتب التراث الشعبي. وكانوا ينشرون نداءاتٍ تحثُّ الناس على التزام البيوت وعدم التحرك أو التفكير أو القراءة أو الرقص. فكلما قلَّت الحركة، ظلّ الوضع سائراً في هدوء، كي لا يتنفسَ أحدٌ إلا بأمرٍ أو تبرير. هكذا أراد البعض منهم، ولم يُرِد الكثيرون هذا.

وهي كان عليها العمل لاسترداد قاعات عروضٍ عشَّش عليها الغبار، بأجهزتها البالية وآلات عرضها الهرمة التي أكل الدهر عليها وشرب، وقد تحولت بدورها إلى قطعٍ ضخمةٍ من المعادن لا تصلح إلا لمخازن المتاحف المحطمة وحدها. لفت على المدن والبلدات وبحثت عنها واملت في ان تصلحها يوماً واحدة واحدة، مكاناً مكاناً.

فيما بعد، علّقت سماء، التي ظلت تعيش في الخارج، وهما تجلسان في مقهى حديث فتح أبوابه في رام الله: ألم تذهبي بعيداً في الحلم حينها؟!

وفي ذلك الحين كانت وحدها، ولم تكن ماسة استقرت بعدُ في مدينتها. وكانت سماء بعيدة، وجنان مفقودة العنوان. ولم يكن هناك من تحكي له. لا أحد ممن تعرفه كان منصتاً. الجميع كان منشغلاً بتهيئة شوؤن السكن وأمور العيش المستجدة للإقامة في فلسطين.

كانت قصص البلاد وحكاياتها ستكون هنا بأجمعها، معروضةً على شاشات قاعات السينما بالتأكيد، لو لم تكن قد أُغلقت وأُصيبت بالشلل سابقاً. ليس هناك ما يمكن للناس تذكُّرُه من تاريخٍ امتدّ عقوداً، وظلّ يدوّم فوق ملصقاتٍ بليت تدريجياً على حيطان الشوارع المعبأة بصوَرٍ قديمةٍ لنجوم الشاشات العربية أو أفلام الخوارق والمعجزات الأجنبية، التي استُبدلت مؤخراً بصور الشبان الشهداء في المخيمات والمدن الذين كرسوا أنفسهم للتضحيات والفداء. وحتى هؤلاء الفتية الذين يشع النور من أعينهم، فإنهم لم يتركوا بعدهم سوى خطوطٍ غير منتظمةٍ من صُورهم على حوائط البيوت التنكية في المخيمات، قبل أن تنال منها زخات الشتاء والعواصف الصغيرة التي تحملها الأعاصير هنا وهناك.

تنتظر نهاية الأُسبوع، وتعدّ الأيام واحداً واحداً بانتظار العامل الروسي الذي سيحضر في سيارةٍ من الجليل الأعلى في العطلة الأُسبوعية، وتتكفل مؤسستها بناءً على إلحاحٍ منها بدفع إيجار النقل ذهاباً وإياباً لكي يُصلح ويركّب آلة العرض "الديجيتال– البروجكتور الحديث".

تقف معه في العطلة، سواء في البرد والقر أو في الحر والرطوبة في آخر أيام الخريف، ساعاتٍ طويلةً في سبيل إعادة هذه القاعة اليتيمة الغارقة في بؤسٍ مهيمنٍ إلى سابق مجدها.

بالرغم من التفتيش الحثيث من ممثلٍ مُخضرمٍ ومخرجٍ من أبناء الوطن في الـ48، حاولا المساعدة، لم يقبل الفنيون المؤهلون "عندهم"، وقد انعدموا "الدينا"، القدوم إلى منطقتنا الحافلة بالتهديد وعدم الأمان لتركيب جهاز العرض السينمائي الجديد. لم يوافق فنيٌّ أو مختصٌّ واحدٌ منهم على القدوم إلى هنا، عدا ذلك الفنيّ المُهاجر الروسي، الذي اشترط القدوم من مستوطنةٍ بعيدةٍ في الشمال مرةً في نهاية الأُسبوع لمدة شهرين مقابل مبلغٍ مُجزٍ لتركيب جهاز عرض (35 مم) في قاعةٍ قديمةٍ يتم تجديد كابلاتها وشرائطها، لكي تحظى المدينةُ المحرومةُ من قاعات العرض بصالة سينما.

لم تكن في القاعة تمديداتٌ كهربائيةٌ أو أزرارٌ أو خطوطٌ صالحةٌ للعمل بعد ثلاثين عاماً من أمر منع الحكم العسكري للسينما، وكان عليه إنشاؤها من العدم، ثم وصلُها جميعاً بالجهاز وبقية الأجهزة الصوتية والمكبرة لكي تنجح المهمة.

كانت في المدينة ثلاثُ قاعاتٍ للسينما، على الأقل، أُغلقت عقوداً بأوامر منهم، فصارت خاليةً تُهرهر بلاطاتها، وتتساقط ألوان "طراشتها"، وتتفكك صواميل أقفالها، وتجف ليونة أشرطتها الكهربائية. باختصار، ثلاث قاعاتٍ ميتة.

بعد شهور، وربما سنين قليلة، من عملية التصليح والترميم هذه التي لم تُقيَّض لها الحياة طويلاً، سيدخل الجنود خلال عملية اجتياح رام الله إلى مكانٍ قريبٍ لا يبعد أكثر من كيلومترٍ عن هذه القاعة، ويعيثون فيها فساداً، وينثرون أفلامها، ويُتلفون منها ما قدروا عليه ويتركونها مرميةً على الأرض، ثم يكتبون على الحوائط بالبول والفضلات:

"هذا وحده يليق بكم أيها الأوغاد الإرهابيون".

"أيها السفلة، هذه الأرض موهوبةٌ لنا من الخالق الأعلى، وهو حقٌّ حصريٌّ لنا بعثته السماء".

■■

تاريخ الهجران

الآن، كان عليها أن تبدأ في هذه القاعة التي كانت تُسمى قبلها سينما "الجميل".

فها هنا، على زاوية الشارع الآتي من سوق الخضار المُسمَّى "شارع حسبة رام الله"، الذي يتقاطع مع أعلى نقطةٍ في الهضبة التي تؤدي إلى مخيم الأمعري للاجئين الذي أُقيم على عجلٍ منذ أكثر من خمسين سنةً حتى صار جزءاً من البلدة، قريباً من الميدان الصغير، كانت القاعة الجميلة قد بُنيت بسقفٍ قرميديٍّ سابغ، وهناك تربعت في مكانها الجميل لتحمل اسم سينما "الجميل". ظلت السينما واقفةً في مكانها هناك، وسط هذه البلدة التي كبرت وصارت مدينة، على الرغم من إيقافها عن العمل بسبب قوانين الجيش الغازي الذي يحرم التجمعات. مدينة استراح أهلها إلى وهمهم السالف طويلاً بأنهم يعيشون في عاصمة متروبوليت، إلى حدِّ أنهم أطلقوا اسم ميدان "الساعة" على ميدانٍ لا يضم سوى ساعةٍ صغيرةٍ جداً، معتبرين أنهم يملكون الساعة الأضخم في الكون.

غفت على أحد الكراسي قليلاً، فيما كان العامل شائب الشعر يشتغل بعيداً فوق المسرح. رأت فيما رأته أنها هي المكان، وأنها تحولت إلى قاعةٍ فسيحةٍ يدخلها ضوءٌ شحيحٌ من فرجات السقف القرميدي التي تشع بين الحين والآخر بإضاءاتٍ قصيرةٍ ومُكثفةٍ من أشعة الشمس في الخارج. أحسَّت عندها بالهجران والوحدة، لأنّ أقداماً لم تطأها سنواتٍ طويلة. كانت قد اعتادت هذا النأي من أهل المدينة الذين برعوا في السفر والهجرة والعودة بعد عشرات الأعوام، وكأنّ فراقاً ما لم يحدث بينهم وبين عائلاتهم، أو الأمكنة التي غادروها عشرات السنين.

كانت تتساءل بمرارة: لماذا لم يفكر واحدٌ منهم في أن يحملها معه حينما هاجر كي يجعل بنيانها في مكانٍ آخر؟ ربما في مدينةٍ كبيرةٍ وضخمةٍ، في القاهرة، مثلاً، أو هوليوود حاضنة معظم الأفلام والشرائط.

هل ظنوا أنّ عمرها سيكون طويلاً، وأنها سوف تلتصق في مكانها، فلا تهاجر مثلهم، لأنّ هذه الأفلام البيضاء والسوداء، التي تأتيها من أنحاء الأرض كافةً، تُعرَض من دون أن تهتز في جسمها طوبةٌ ما؟ وهل الأمكنة سواء، وهي تبدو من الخارج جماداً في جماد؟

وأنا مثل بقية الأمكنة لم أُدرك كُنهَ روحي، ولم أستطع إيجاد معنى لها، لشدة ما انشغلتُ في صباي بأولئك الناس الغادين الذاهبين، الآتين والمغادرين. كلهم، والغريب أنهم جميعاً لا يتبارون في الوصول إليَّ إلا بعد غياب الشمس!

ظلت مغمضة العينين تفكر في هذا المكان. لشد ما تحرقت هذه القاعة إلى شعاعٍ صغيرٍ من ذلك النجم الحارق الذي يسمونه الشمس، فقط كي تدفأ أركانها المظللة الباردة. لا بدّ أن الكدر والسواد في الداخل يعودان إلى غيابها عن النور المنعش الحنون. وقد تطلّب الأمر زمناً طويلاً كي تكتشف أنّ سر جمال هذه القاعة ومنبع جاذبيتها إنما يكمنان في تلك الظلمة الساحرة، التي تلف شغاف الأرواح البشرية حينما ترى الصور على الشاشة الفضية. هؤلاء الذين يأتون، ويستسلمون إلى شعاع النور القويّ المُسلّط من الآلة الكهربائية الصغيرة، أثناء جلوسهم على مقاعد مرتبةٍ في صفوفٍ شبه دائرية، كانوا يتحوّلون بعد دخولهم العشوائي بلحظاتٍ إلى مجرد عيونٍ تنظر وتتطلع بإعجابٍ واستغراقٍ إلى ملامح أُناسٍ غرباء آخرين لا يعرفونهم، لكنهم يحبون ويبكون ويبتسمون، ولا يكفّون عن التشكي والمرور بالأزمات والمشاكل مثلهم.

كنتُ أنا القاعة القديمة أزداد عمراً، وأزداد عجباً ثم لا أكفُّ عن التعجب، لأنهم لا يتوقفون عن الدخول إليَّ في الأوقات ذاتها كل يوم. هل خطر لهم أنني قد أعرف السأم أيضاً؟

كان هناك رجلٌ يعمل على آلة عرضٍ ضخمةٍ مُزوَّدةٍ بالفحم. وكان يفرش كي ينام قربي على الأرضية، لأن قريته بعيدة، ولم يتوافر معه يوماً ما يكفي للمواصلات اليومية. يحنو على كل يومٍ ويُنظّف الرماد الذي يتجمع في قلب آلة العرض، وهي قلبي الحقيقي. أما هؤلاء الغرباء الداخلون يومياً، فقد كانوا يلتصقون بمقاعدهم مذهولين ومنتشين وضائعين في أوقاتٍ أُخرى، حتى أنني لم أكن أفهم تماماً ما الذي يطيح بعقولهم وأذهانهم كي تتحول إلى قطرات مياهٍ جاريةٍ على الوجوه، ثم تتبخر مع دموع بعضهم، أو تظل ملتصقةً بمحارم قماشيةٍ صغيرةٍ كانت السيدات يتسابقن إلى إخراجها من حقائبهن.

من أوراق المكان
17-2-1997

"أجلس في القاعة الممتدة التي بقيت معظم كراسيها فارغة. الدنيا برد، لا وقود للتدفئة المركزية، والجهاز الموجود لا يعمل أصلاً لأنه قديم وبحاجةٍ إلى إصلاحاتٍ كثيرة. ثلاثة أيام كاملة ونحن نعمل من الصباح إلى المساء لإيصال الدعوات إلى الناس للحضور، ولا يأتي إلا بعض المدعوين من الوزارات، أو يهرب البعض منهم عندما لا يجدون الرسميين الذين توقعوا وجودهم. بين الحين والآخر يُطل إلى الداخل عابرو السبيل من الشبان والشابات ممن تجمَّعوا على باب السينما مندهشين من الحركة غير الاعتيادية في الداخل. يُطلون ويرون أنّ الشاشة البيضاء المفروشة على خلفيةٍ سوداء تعمل وتمتلئ بحياة البشر الذين تحكي قصصهم، والألوان تتدفق، على رغم حروف الترجمة العربية الكبيرة بعض الشيء التي تُغطي الشاشة الصغيرة. لا أحد من الشباب الهائمين أو الهابطين من الشارع يتقصد البقاء، على رغم مجانية العروض.

ليس هنالك الكثير من الحضور الجماهيري، لكنّ الحياة نابضةٌ وساحرةٌ على الشاشة المسنودة بقضبانٍ معدنية، وقد كانت في الأصل شرشفاً قماشياً تمَّ استعماله بسبب النقص المالي الذي لا يُوفر شاشةً جاهزةً ودقيقة المواصفات. يرتج شيءٌ ما في الصورة ويتحرك، فيُطيح بالحروف إلى الأعلى والأسفل. لا بأس، هذه هي الآلة القديمة التي استطعنا الحصول عليها حتى الآن، إلى أن يتم تشغيل الجديدة. كانت أفكاري تسرح، وأنا أُحاول أن أتذكَّر سينماي الأُولى سينما "الجميل" التي كانت هنا بالضبط قبل أن يتغير الاسم ويتحول إلى اسمٍ آخر ثم آخر. مثلي تماماً، فقد تغير اسمي مرات ومرات خارج البلاد وداخلها".

تنسى الأيام التي قضتها متنقلةً في أنحاء شتى في العالم، وتتذكر كيف كانت أيام المدرسة وهي تقرأ سارتر وسيمون دي بوفوار خفيةً، وكيف كانت تدس الكتب خلسةً في أمكنةٍ لا يصل إليها

الأهل، كي لا ينتبهوا إلى أنها تقرأ ما صنفوه على أنه ممنوعٌ ويفوق إدراك المراهقات والمراهقين. كانت تقرأ أيضاً عن الحب، وتضع رأسها في السر على طاولة كَيِّ الملابس وهي تمرر المكواة الحامية فوق خصلات شعرها الكثيف، كي تقلد بلامبالاةٍ تامةٍ بقية طالبات المدرسة في فرد الشعر. يا للحماقة، فبينما كانت تشم رائحة الشواء المتصاعدة من خصل الشعر بعدها، لم تكن تكترث بإمكانية جفافه وصعوبة إصلاحه، كانت تطمئنُّ إلى نصائح بنات صفّها بضرورة الانصياع إلى "الموضة" والظهور بمظهرٍ أكبر سناً.

في ثاني أيام العروض كانت تشعر بالخجل أمام الانقطاع المتواصل للفيلم بسبب رداءة آلة العرض. لا سينما في هذه البلاد، ولا أحد يريد أن يعرف هذا.

أرواح المكان السبع
13-6-1997

إنه اليوم الختامي لأيام السينما العربية الفرنسية. لو سألني أحدٌ قبل خمس سنوات عن شعوري إن كان بإمكاني أن أعمل على أيامٍ سينمائيةٍ تُزحزح الجمود الذي صنعه الاحتلال، لما خطر لي أنّ هذا سيصير واقعاً.

كان يوم الافتتاح هو الخامس من حزيران، وبالصدفة ومن دون تخطيط، كانت السينما هي الأرواح السبع التي تُديم الأمس بالألوان على شاشةٍ كبيرة. بدأتُ أنسى الجلوس على مقاعدها القديمة التي كان يُحيّرني امتدادها في خطٍّ قوسيٍّ إلى الوراء. صرتُ أُفكِّر فيها كما هي الآن، بمدخلها الذي أعدنا طلاءه بالرمادي والأسود والأحمر. بتُّ أرى عرق التعب على وجوه العاملين في التصليح والدهان المُتواضع. وصرتُ أرهن فرحتي باستمرار عرض الفيلم من دون تقطيعٍ أو تشويش. تظهر السينما هنا أخيراً مثل صندوق العجب الذي يمد البساط السحريَّ على قمم النجوم التسع، وتقبس نار المعرفة من كتف بروميثيوس الجبار. ثم ماذا؟ إنه الازدحام والتدفُّق اللذان تشهدهما القاعة من دون توقع. نحو ألف شخصٍ كانوا في حفلة الافتتاح، ثم الورود، وعدم وجود مقاعد للجلوس.

يوم الاختتام، كانت القاعة مزدحمةً بمن حضروا لمشاهدة فيلم "الهائمون" للناصر خمير. إنها محاولةٌ شجاعةٌ، أيضاً، أن يحاول المخرج/المؤلف التجريبَ الذي لا ينكفئ، ويطرح الأسئلة من دون خوف. بالأمس كانت القاعة وحيدة، ومع هذا الأُسبوع تغيرت بعد أن كانت صمتاً مدقعاً وانتظاراً ملتبساً مشغولاً بالقلق. اليوم تثبت الأقدام الكثيرة والكلمات المتراشقة بِوُدٍّ بين الحضور أنّ شيئاً صغيراً، لنقل بذرةً أو أملاً، يتجاوز الكلام الشفهي وحده وأطنان الشعارات المرمية في الطرقات.

شكل الحنين

1994

ما هو شكل الحنين؟ وكيف يظهر في آلة الكاميرا صغيرة الحجم؟ وهل يستطيع أحدٌ أن يُلتقطه في صورةٍ كي يترك له المجال ليمشي على شاشةٍ بيضاء تحمل دبيب الزمن داخلها، وترتعش مثل جلدٍ رقيقٍ يمرُّ عبره تيارٌ رقيقٌ من رجفة البرد الشتوي الشديد؟! أم أنه فقاعات خفية تتطاير مثل غاز الأوكسجين؟

تطلب من الفتى ابنها أن يُصوِّرَها على درج البيت الكبير في البلدة القديمة في القدس. يحمل كاميرته الفورية الاستخدام، ويأخذ لها صورةً وهي تتكئ على درجات المدخل، ويعطيها لها. تشعر بأنّ ظهرها الصغير بعمر أربع سنواتٍ وما زال يحمل ملمس أحجاره الصلبة حتى الآن. قبل سنين وسنين حردت، ولم تقبل الدخول إلى المنزل بعد أن عنَّفتها عمتها لسببٍ عائليٍّ لم تفهمه بمداركها الصغيرة، وقالت إنها غير مؤدبة، ثم وصفت أُمها بأشنع النعوت.

اشتمت حينها من داخل البيت رائحة الخيار الأخضر الحادة تتطاير ذائبةً مع فتات البقدونس ونثرات البندورة المقصوصة في سلطة الطحينية "القدسية". كانت حردانة ولا تقبل الدخول كي تأكل، ولم تكن تريد الإصغاء إلى ابنة عمتها الوسطى التي كانت تصطفيها وتسمح لها بأن تلحقها في غدوها ورواحها إلى باب خان الزيت بحثاً عن حاجياتٍ صغيرة. رجتها "نادية " أن تدخل، لكنها أصرت على القعود على هذا الدرج أمام الجيران كلهم إلى أن شتمتها ابنة عمتها أيضاً! ووصفتها بكبر الرأس وجموده. هدر من فمها الصغير سيلٌ من اللعنات أطار لبَّ ابنة عمتها التي صادقت على وصف عمتها لها بالوقاحة. فقالت الصغيرة: هذا لأنني أسمعكم تشتمون أُمي، وأنا أرمي الشتائم عليكم الآن.

تحمل دفترها الصغير الذي تُسجل به ملاحظاتها، والفتى يصورها بالكاميرا الصغيرة بينما تجلس على الدرجات الحجرية التي نال منها مرور الزمن الطويل، فجعلها رقيقةً ملساء مثل جلد آدمي. تجلس وبيدها حبات الجوافة الصغيرة التي قطفتها عن الشجرة في بيت أريحا قبل قدومها. أيُّ ترف لم تحلم به في حياتها السابقة قبل أن تُتاح لها زيارة هذا المكان؟!

تستردُّ صورة عن مساءاتٍ ماضيةٍ كانت تركض فيها في باحة هذه الدار، هنا، مع أطفالٍ كثيرين وهي ترتدي قميص النوم القطنيّ الأزرق الطويل المُطرّز بخيوطٍ بيضاء عند الصدر، وشعرُها مبللٌ بأثر الحمام الصيفي السريع الذي تُصرُّ أُمُّها على رشقها بمياهه كلَّ ليلةٍ قبل النوم. كم بدت البلاطات الحجرية التي تعود إلى عهد الصليبيين كبيرةً جداً في تلك الليالي التي يسود فيها غبش المساء ودكنته، فيما كانت تعدو فوقها مع بقية أولاد الحوش وبناته بأقدامهم الصغيرة الحافية.

شاهدت قطعة قرميدٍ مرميةً على الأرض، ومرَّرت كفها عليها. هل يمكن لأيّ كاميرا أن تُظهر ما تشعر به أعماقها من فرحٍ كثيفٍ واضطرابٍ مُوازٍ يشوبه عدم التصديق بأنها عادت كي ترى هذه الدرجات وتلمسها وتتحسس خشونتها وتحس دفئها وبرودتها؟ أتت كي تستنشق رائحة الزمن حين يحوم حولها مثل دبورٍ عاد إلى عشه الأول صدفة. تلك الأدراج التي ظنت يوماً أنها لن تراها أبداً! تقول لنفسها إنّ كل هذه القطع هي ما ترسم تاريخ حياتها. من أي عصر هي؟ من المقدوني أم الصليبي أم الأميري الأيوبي؟ تاريخ حياتها وحياة المنازل التي عاشت بها هي من هذه الحقب.

هنا على هذه الدرجات كانت تشرشر قطرات القربة الكبيرة التي يحملها السقا، الذي يروي أزيار العمة الفخارية كل يوم، لغياب أنابيب الري الحديثة عن منزلٍ يفوق عمره ألف عام.

على طريق "عقبة المفتي" كان ذلك المنزل، وقبله دخل إلى حقلِ نظرِها بابٌ معدنيٌّ على الطريق، كُتب فوقه إنه منزل الشهيد (خ. ي) الذي استشهد بتاريخ 10-4-1999، كما نُقش على ذلك الباب.

صور في غرفة التشريح!

الآن.. حين أمُرُّ من هناك.

أمام هذه النقطة وخلفها وفوقها وتحتها هنالك جنود. لا أرى المشهد إلا بالأبيض والأسود.

منذ نهاية عام 2000، في كل مرة تتحرك فيها السيارة، وتبدأ اندفاعاتها، تكبح، هناك حاجز.

كيف يمكن أن نُصور هناك، ما دام الجسر مثل جحيم دانتي الذي تستعر فيه نيران العذاب.

ربما لهذا كان عليَّ أن أصطحب ظلي معي كي أستطيع أن أرى الصور جميعها بيضاء، أم سوداء، أم ملونة، في المرة المقبلة.

كان عليها أن تحمل ظلها معها في المرة المقبلة كي تستطيع أن ترى الصور بالأبيض والأسود، التي كانت يدا المجندة تُقلّبانها وهي تتأملها باهتمامٍ عميقٍ شابه بعض الاشمئزاز.

على جسر "اللنبي" نادوها من أجل تفتيش الشُّنَط. اقتادتها المُجَنَّدة المسؤولة إلى غرفةٍ مُنزويةٍ تتمطى بداخلها أجهزةٌ إلكترونيةٌ ذات أحزمةٍ عريضةٍ، تدور دون توقُّفٍ وهي تبتلع الحقائب وتبصقها إلى الجهة الأُخرى من الغرفة. كانت حقائب المسافرين المركونة بعضها فوق بعض، وتصطف على رفوفٍ كثيرةٍ حتى تصل إلى السقف أحياناً، تزدحم حول الآلة العملاقة. لمحت داعية السلام البوذي المقيم في فلسطين بردائه العُصفريّ اللون وحذائه الرياضيّ الرماديّ، الذي كان يُدرب الأطفال على فنون صناعة أشكال النجوم والطيور من الورق المُلوَّن. حتى هو كان هناك بكل حياده وهو ينتظر دوره مع بقية الناس.

في غرفة الكشف، أصابها ندمٌ تكثَّف على شكل حكَّةٍ تغزو الجلد، وتجعل خلاياه متوفزةً كأنها حبيبات قشعريرة نافرةٌ إلى الأعلى. ندمت لأنه لم يكن باستطاعتها حمل مُسجِّلة الصوت

وتشغيلها كي تسجل الرائحة المميزة لصوت التفتيش. كانت تعرف، تماماً، أنه لن يُسمَح لها بحمل مثل تلك المسجلة الصغيرة، لكنّ رغبتها العارمة في إيجادها خلقت فيّها مشاعرَ كانت تتآكل وتضطرم مثل موجاتٍ مائيّةٍ تطوف في الجوف، وتجعلها تحس كمن ذهب إلى حوض سباحةٍ برزت فيه فجأةً سمكةُ قرشٍ كبيرة. كانت أيدي الجنود والمجندات ذات الكفوف البلاستيكية البيضاء تتصرف كأنّها لجراحين في غرفة العمليات. تُمزّق رباطاتٍ ورقيةً صفراءَ فوسفوريةً دمغها الجنود على أطراف الشنط ومقابضها وسحاباتها، وتُعاود تمزيق أغلفة الأشياء من جديدٍ قبل فتح الأغراض، وتبقر بطون الشنط والجزادين فوق منصاتٍ فولاذيةٍ أُفقية مالسةٍ تشبه مسالخ اللحامين، توضع الأشياء فوقها كي يتمكن شرطي الأمن المكلف من أداء دوره كاملاً.

وقفت أمام شنطتها، فأشار إليها الجنديّ بالعودة إلى المقاعد المعدنية المخرَّمة المثبَّتة على جانب الغرفة للانتظار.

لعنته في سرها. ممنوعٌ الكلام معه. فقط يمكن للأوامر أن تصلها من جانبه، وهي التي فُرض عليها الصمت وحدها. قد يكون يوجه إليها لعناته بينه وبين نفسه في اللحظة ذاتها. يريد أن يكون في بيته مع أُمه وأهله أو صديقته. لا يريد مَن هم أمثالها، لكنه يريد أن يغزو أرضها. وهذا ثمن الاحتلال الذي يُشجعه الجميع على تأديته على كل حال.

ذهبت وجلست محاذرةً الاصطدام بأوامره ونواهيه، فقد يكلفها هذا وقتاً إضافياً لكي ينتقم منها. رأته لا يُعير بالاً لأغراضها، فقد كان مُنشغلاً على المنصة المجاورة مع جنديٍّ آخر بمعاينةِ وتفكيكِ جهاز تلفزيونٍ من طرازٍ قديمٍ بدا كأنه من السبعينيات.

كانت هنالك مجندةٌ أُخرى تفحص شنطةً رثةً يقف أمامها شابٌّ قرويٌّ خجول. لمحَت في يد المجندة صورةً عائليةً بالأبيض والأسود لأفراد أُسرةٍ فلسطينيةٍ أيام الأربعينيات أو الخمسينيات. كادت تشهق إعجاباً ودهشة، وكادت تبادر إلى سؤال الشاب عن مَن يكون داخل الإطار. سمعت الصمت وهو يُدَوِّمُ داخلها مثل إعصارٍ يريد الانطلاق بعد أن أزهقه الأسر. لو تمّ هذا في أيِّ مكانٍ آخر لكان ممكناً، أما في هذه الغرفة فممنوعٌ التحدث مع أيٍّ كان، ولو مع أيِّ مخلوق، إلا حين يُوجه الجنود أسئلة.

تابعت المجندة الفرجةَ على الصور المضمومة بين يديها أملاً في إيجاد دليلٍ على أنّ الشاب إرهابي. بدا كأنّ أُلبوم الصور يضُمُّ صوراً أُخرى من مرحلة السبعينيات، تَكِرُّ بالأسود والأبيض مُرَبَّعةً وبحجمٍ صغير، وبعضُها مُلوَّنٌ على طريقة "كوداك" السالفة. بجانبهما، كان هنالك صندوقٌ كرتونيٌّ للحلوى، يضمُّ صوراً أُخرى قديمةً متناثرةً لم تكن واضحةً من بعيد. المجندة بقوامها الضخم وسمنة قفاها الزائدة كانت تُواصل تصفُّحها بفضولِ مَن سيكتشف سراً عسكرياً قومياً.

تركت النظر المختلس وقامت فجأةً من المقعد بعد أن أحسّت بمرور الوقت. ذهبت كي تُخاطب الجنديّ الذي فرغ لتوه من العبث مع زميله بجهاز التلفزيون. كان قد عاد للوقوف أمام أغراضها. قالت مستعجلةً إياه وهي تؤشر إلى حلقها:

التهاب في حلقي.

Bronchitis. أنا مريضة.

نظر إليها باستهزاءٍ وكأنها تُمثّل دوراً. أحست بعجز طفلةٍ تريد أن تُقنع الأُستاذ بتصديقِ وضعها الصحيّ عبثاً. لماذا تكلمت معه؟ هم يُعاملوننا كالتماثيل، وعلينا أن نفعل الشيء ذاته. تجمد الألم في حلقها، وهو يبتسم بقسوة المراهقين في وجهها.

أشار إليّها بالعودة إلى المقعد حيث كانتُ تجلس.

ألحت عليه:

أنا مستعجلة.

I am sick. Let me go quickly. Are you speaking English or Arabic?

ضحك هازئاً كي يُذكّرها بموازين القوى الأصلية، وكي تفهم بأنّ انتظارها لا يُساوي شيئاً أمام ابتسامته الساخرة، قال بلغةٍ إنجليزيةٍ مُتعثرة إنه لن يفتش أيَّ شيءٍ إن لم ترجع إلى مكانها.

رجعت إلى المقعد، وراقبتُه من بعيدٍ وهو يشق الرباطات الصفراء التي ألصقوها على أمتعتها، ويشرع في دسّ يديه داخلها بقفازه البلاستيك.

إنها تشتاق إلى الأغاني.. كان خيالها يسرح الآن في منطقة جسر اللنبي، التي كان أهلها يعبرون الجسر الخشبي منها مروراً إلى عمان أو عودةً إلى القدس أو أريحا. تلك المنطقة صارت ممنوعةً عليهم الآن. كثيراً ما كانت العائلة تذهب إلى هناك للتنزه بين أشجار الكينا الكثيرة، وهي كانت تُصرُّ على أن تحمل الراديو "الترانزستور" بيدها، كي تظل على صلةٍ مع الأغاني وأنواع الموسيقى. ما زالت تذكر فستانها الأبيض الذي لبسته في عيد الفطر عندما كانت في العاشرة، وأتوا إلى هنا للاحتفال بالمشي والتنزه، ثم ذهبوا بعدها إلى دير حجلة الذي كان مُزدحماً بجموع المتنزهين في الأعياد، مسلمين ومسيحيين. الآن استُبدل بالجسر المسالم القديم، الذي كان يمر فوق نهر الأردن سريع الجريان، واحدٌ شاهقٌ أسموه جسر السلام، بالرغم من أنّ النهر اختفى وجف، ونضبت مياهه قبل وصولها إلى أصدقائه وأهله سكان الأغوار الأزليين.

الآن بُدِّلَت الأغاني بهدير هذه الآلات العملاقة وتهويمها، كأننا في منشأةٍ لتربية الحشرات، بدلاً من الاستماع للأصوات الآدمية التي تختفي بسبب أوامرهم الصارمة.

في جانبٍ أبعدَ من الغرفة، كانت هناك آلةُ فحصٍ إلكترونيةٌ أُخرى، هي الأضخم بين غيرها، وعليها حزامٌ طويلٌ يُمرّر الحقائب التي يقومون بتفتيشها للمرة الألف، وكان يصدر عنها أزيزٌ مختلطٌ بالهدير مثلَ ماكينة غسيلٍ عملاقة. كان الهواء يدوم حولها، مثل إعصارٍ صغيرٍ ينطلق من حركاتها الإلكترونية المتواصلة.

عادت ونظرت إلى الجنديّ، الذي كان يُحدّق داخل شنطتها ويدير بين يديه مرطباناتٍ صغيرةٍ من مُربَّى النارنج والكُبّاد، التي لم تقاوم محنة إغراء جلبها معها. تمنت في تلك اللحظة لو كان غسيلها الوسخ معبأً في تلك المرطبانات. رأته يُحدّق بعدها في حليب البشرة الذي يُستعمل بعد الحمام، ويقرأ نوع الماركة على الورقة الملصقة عليه. لم يترك شيئاً معها إلا وتفرج عليه، كأنّه يتعمَّد إذلالها بالتدخل في تفاصيل كل أشيائها، ولكي تحس بحرج حملِ أيِّ شيءٍ سوى ظلّها وحده في المرة المقبلة. كانت الجنديةُ الأُخرى ما زالت سادرةً في بحوثها العسكرية حول الصور البيضاء والسوداء التي يحملها الشاب الفلسطينيّ، الذي كان بدوره يقف مقابلها صامتاً.

وكانت ما زالت هناك أصواتٌ كثيرةٌ لحقائب تنزل وأُخرى تُرفع، وصرير غيرها وهي تكرّ على القشاط الكبير خارجةً من المعتقل إلى قاعة الوصول.

أُدخلت إلى الغرفة امرأةٌ حنطيةُ البشرة، ذات ثوبٍ طويلٍ وإيشاربٍ سابغ، تلوح كأنّها من سكان أريحا. كانت برفقتها طفلةٌ سمراء ذات شعرٍ أكرت لا تزيد على السادسة من العمر، وكانت على ظهر الطفلة حقيبةٌ مدرسيةٌ حمراء تحملها بزهوٍ، على رغم أنها كانت تُطأطئ رأسها بخوفٍ لدى دخولها. تقلص حجمها وهي تلبد مع أُمها على المقعد المجاور. من الممنوع التحادث معهما هنا، على رغم السماحة وتعبير التفاؤل اللذين يكسوان وجه الأُم الطيبة. كان هناك صوت الأيدي وهي تُطقطق أثناء تنبيشها في أغراض السيدة، وعلى المنصة المقابلة استقرت صحارةٌ بلاستيكيةٌ مُغطاةٌ بقماشٍ خشن، كانت تحوي أغراض الأُم وابنتها.

تجمدت الطفلة داخل تعابير فزعٍ لافتٍ على وجهها. أرادت مواساتها وإخبارها بأنها تحب عينيها السوداوين ومريولها البني الموشَّح بالأحمر، لكنها لم تتمكَّن. طبعاً، سوف يفرد الفزع جناحيه فوقهما لو تحدثت. ندمت لأنها لم تحمل أيَّ قطعٍ من الحلوى، لأنها لم تتوقع أن تجد طفلةً خائفةً هنا. كان طعم قطع سكاكر الملبس "حامض حلو" الملونة بالأحمر والبرتقالي والأخضر، التي كان يحملها إليها جدها لأبيها "سيدي" في جيب صدريته الجوخ، هو صاحب الطربوش الأحمر، حينما كان يريد قهر خجلها وانزوائها وهي طفلةٌ صغيرة، تعود إلى فمها، فتتذكر كيف كانت تمصها على مهل، وتتشبع بحموضتها اللاذعة تختلط مع حلاوتها القوية. لم يكن بالمستطاعِ الهمسُ لأنّ المكانَ ضيق، وسوف يتدخل الجنود لإسكاتهم أو استجوابهم لو تحادثوا. خشيت أن يزداد جوُّ التوتر الذي يُجفل الطفلة.

ابتسمت لها، وغمزتها، لكنها كانت جديةً ومُثقلةً بالحزن أكثر من جميع من كانوا هناك، وحتى من الشاب الذي ما زال واقعاً تحت الاستجواب. كانت مُتجمدةً على المقعد الحديديِّ مثلَ عصفورٍ صغير.

كانت يد المجند الثالث تُقلّب الآن ما تحويه صحارة السيدة وابنتها. بدت ظروفٌ تحوي بعض الأشياء الرخيصة. لمحت بينها كيساً من النايلون الشفاف فيه حبات التمر. كان الجندي المراقب الرابع أو الخامس يُعيد إغلاق أكياسها الورقية بخجلٍ خفيٍّ بعد مشاهدتها.

أما المجند الذي كان يعبث بأشيائها، فقد انتهى من عمله السامي، ويا للَدهشة. توقعت أن يستمرَّ الأمر معه حتى نهاية العالم لشدة انسجامِه بعملية التفتيش، لكنّ أغراضها المُعرَّضة للتفتيش ليست كثيرةً كي تساعده على الاستمرار، على أيِّ حال.

خرجت مسرعةً من غرفة "التشريح".

عندما توقفت السيارة للتفتيش أمام حاجز المحكمة العسكرية الإسرائيلية "الدي. سي. أو"[1] على مدخل رام الله الشمالي، تطلَّعت حولها ترصد زرقةً سماويةً جاد بها الإله على حقول بلدة "بيتين" إلى يسارنا. كانت شجرات اللوز التي أطلقت نُوّارها تصطف وهي تتراصف بأناقةٍ عجيبة، وبينها تزهو شجرةٌ ذات نُوّارٍ زهريٍّ ليلكيّ، وكأنها مرسالةُ النورِ القادمةُ من الفضاء الخارجيّ لإيناسِنا، نحن البشر الحزينين المكبلين بعزلة أصفادهم الصفراء.

كانتُ تفكّر أنّ كثيرين منا لن يطالهم اليأس، وأننا سوف نستمر في جلب أغراضنا و"كراكيشنا"، على رغم كلّ أنواع التفتيش. سوف نغلق العين عن الأسى، ونفرح بالعودة إلى بيوتنا من جديد، بعد أن نترك الجسر الذي يبدو مثلَ قطعةٍ من جهنمَ فرض الاحتلالُ علينا اجتيازها.

ثمة أُمنياتٌ صغيرةٌ تساقطت من القلب وقتها؛ أن تلتقي المرأة وطفلتها مرةً أُخرى، على رغم أنهما لن تتعرّفا إلى بعضهما في المستقبل بالتأكيد. وربما كانت ستكون سعيدةً لو سنحت لها فرصةٌ لمحادثة الشاب الذي كان يطرق رأسه بانحناءةٍ خفيفةٍ خلال فترة التفتيش الطويلة، كي تسألَه عن سببِ إعادتِه كلَّ هذه الصور القديمة إلى فلسطين، هل تُوفِّيَ قريبٌ له فعاد بذكرياته إلى الأرض والمكان الأصليَّين؟!

بعد عبور الحاجز علا صوت المطربة اللاهية، الذي كان يتردد من مذياع السيارة. وكان هناك العديد من الصبية الخارجين من مدارسهم، وزحمة السير المعتادة، وذلك الدوار البشع المصبوب من خرسانةٍ تخلو من الذوق والجمال، وكان.. وكان.

كان ذلك على أبواب رام الله، حيث شارع "السيتي إن"، الذي رُصف من جديدٍ بعد أن كان ممتلئاً بآثار سوداء خلفتها قنابل الغاز التي رماها الجيش على الصبية الذين أشعلوا القطع المحترقة من إطارات السيارات.. أيامَ ما كان يستشهد هناك عشرات الأولاد والفتية في الأشهر الأُولى من سنوات الانتفاضة الثانية.

أرض التنين

كانت المعالجة الأكثر شهرة في العالم بحاله. وعندما سألتُها: "كيف امتلكت هذه الطاقة السحرية؟"، أخبرتني أنّ أرض الرافدين وبلاد بابل تكتنز الطاقة الأعلى مغناطيسيةً في الكون، وأنّ أهلها حضروا من هناك إلى هذه البلاد الشاسعة. كان اسمها "جونا"، ومنذ سمعتُ باسمها للمرة الأُولى والثانية والعاشرة والمئة وقبل أن أزورها كانوا يقولون إنها تداوي الأمراض جميعها. وحين قام صديقنا الشاعر بزيارتها للتعرف عليها خلال وجوده في بلادها وأخبرَته بأن عليه القيام بفحوصات محددة، لم يصدقها. كان يجد نفسه في أحسن حالاته، ولم يقبض الأمور حسبما أخبرته، إلى أن خطر له القيام بالفحوص التي طلبت منه القيام بها. اكتشف أنها عرفت وبدقةٍ ما كان سراً خفياً داخل جسمه الذي كان يظن أنه الوحيد الذي كان يدري كوامنه.

كانت المعالجة الأشهر في العالم كله. حتى نيل أرمسترونج، الرجل الأول الذي داس أرض القمر، ذهب للعلاج مراراً عندها من أمراض نقص الجاذبية التي تعرض لها.

طاقة. الطاقة وحدها. أخبرتني ونحن نقوم بالمقابلة الصحافية معها، هي التي كانت تبث طاقةً مغناطيسيةً كهربائيةً عمل علماء بلدها على دراستها. وعندما سألتها: ما السر؟ قالت: الطاقة وحدها.

لكني أسألك: ما سر الحياة؟

قالت: الأوكسجين.

وعندما سألني هو: كيف يمكن استجلاب الطاقة، إذاً؟

أخبرتُه عن تفسيري المتواضع. يستطيع الجسم أن يرتشف ما يريده من الهواء. لا يمكن لأيٍّ منا أن يجد الهواء فارغاً حوله، فهو يحمل ملايين جزيئات العناصر التي طرأت على الأرض وعلى ملايين الملايين من البشر الذين عاشوا فوقها.

سألني: حتى الحب؟

قلت: حتى الحب، يمكنني ارتشافه من الهواء. إنه يصلني مهما كان بعيداً ومرسلاً من مسافاتٍ وأماكن نائية، لأنه مصنوعٌ من مادة الكون ذاتها.

أخبرتُه.. وأخبرتُه.. لأني أُحب الكلام. ثم بدأت أروي له عن التنين.

على باب الدير ذاك توقفت السيارة، فشعرَتْ بأنها تعود إلى عقودٍ وعصورٍ ماضية. وجدَت نفسها فجأةً قرب تلك الأسوار العالية التي صُنعت من أحجارٍ ضاربةٍ في القِدَم وتُسّور بناء فسيحاً مترامياً ينغلق على ساكنيه، ولا تُفتح أبوابه إلا بترتيباتٍ مُسبقة. إنه دير الخضر الأشهر "مار جريس"، الذي لمحته مرة في طفولتها خلال رحلةٍ مع أهلها إلى برك سليمان التي لا تبعد كثيراً عنه.

كان "الرفاق" قد خلّفوها لتنتظرهم في السيارة، بعد أن توجهوا إلى بيتٍ في تلك الحارة لمقابلةٍ سريعةٍ مع رفيقٍ لهم كان مريضاً. بدأت تُجيل النظر فيما حولها. لا تبدو قرية الخضر بلدةً بقدر ما تبدو مكاناً صغيراً ومحدود البيوت، خصوصاً من هذه الناحية البعيدة عن الشارع الرئيس.

رأت فلاحةً في أواسط العمر ترتدي اللباس الريفي التقليدي وهي تقف على باب منزلها الحجريّ الصغير، وتُحدق فيها بإصرارٍ وتمعُّن، كأنها تود أن تعرف السبب الداعي لتوقُّف السيارة هنا وأصحابها الغرباء.

- صباح الخير.

قالتا معاً، وفي وقتٍ واحد، الغريبة وامرأة البيت القديم.

وهي نزلت من العربة وسلمت عليها. كانت المرأة ترتدي ثوباً فلاحياً نبيذياً من قماش "الحَبَر" الأصلي. حالَ لونُ القماش، لكنه لم يطمس فتنة التطريز الذي يمثل التنين المرسوم في

تراتُبٍ على طول السطور المطرزة. التنين يتكرر في التطاريز داخل سلسلةٍ لانهائيةٍ وهو يقف مدجناً مرتاحاً وكأنه ديكٌ صَبورٌ أو حمامةٌ عاقلة. ظهر التنين داخل الثوب مثل طيرٍ وديعٍ في الحكايات الشعبية. لطالما احتارت في جمال هذا الطائر الوحشيِّ العجيب في تجلياته داخل التطريز الفلسطيني. إنه تنين، لكنه طائر، وربما أتى إلى التطاريز من أُسطورة سيدنا الخضر الذي تقف الآن على أبواب ديره المسمى باسمه "مار جريس". تقول الأُسطورة إن القديس الذي قهر التنين سوف يُشفي المريض متى

حضر إلى الدير، وتم تقييده بالسلاسل كي تحل عليه رحمة الرب. هذا ما كانت تسمعه أيام الطفولة.

اندمج في داخلها منظر السور القديم بمربعاته التي قاومت زحف مئات السنين، بقماش الثوب النبيذي الباذنجاني حائل اللون لقدم قماشه، بنقوش التطاريز المرسومة بلونٍ أو لونين متجنبةً بذخ الألوان الزاهية، بهؤلاء المرضى الذين يمسهم القيد كي يحررهم ويعتقهم، فتحل عليهم الرحمة الإلهية ويُشفَوْن. خلال لحظة واحدة بعدها، عرضت عليها الفلاحة بحماسٍ شراء الثوب حين رأت انبهارها به، وطلبت ثمناً مرتفعاً جعلها وسط دهشتها تقوم بإعطائها النقود تواً، من دون تردُّد، وهي كل ما كان لديها في جزدانها.

للحظة واحدة أثناء غيابها وقبل أن تأتي إليها بالثوب ملفوفاً في ورقة جريدةٍ عتيقة، كانت تدعو في سرها لو شُفيت هي أيضاً من ذلك الحب مثل مرضى زوار الدير.

كان ما يعتورها حباً غامضاً وفتّاكاً يخص البلاد، على رغم أن الأمكنة جميعها تبدو كأنها نسيت الغائبين ولم تعد ترحب بهم. بهتت المطارح، وتغيّر البشر، واختلفت أذواقهم ومشاربهم، بل وتغير البلد، فكأنه لم يعد هو ذاته. ومعظم من عرفتهم لم يعودوا هنا بعد أن توزعوا على أماكن الشتات ومخيماته المنتشرة في جميع أصقاع الأرض.

إنها لا تزال تحس بطعم المرارة ينتشر في فمها، كلما استعادت موجات انتقاد كل ما يفعله القادمون من الخارج بين الأقرباء أو البعيدين، بما في ذلك الاعتراض على أشكال تسريحات شعورهم وملابسهم وأنواع المأكولات القادمة من دول الشتات التي يفضلونها. كما كانت هناك أصواتٌ اتَّخذت من القادمين مواقف عدوانيةً قبل أن تميز الغث من السمين، والطيب من الشرير.

كانت تدخل في نوبة ضياعٍ إثر ضياع كلما رأت التغييرات الجديدة التي طالت أساليب الحياة. صاروا يتكلمون بطريقةٍ مختلفة، ويركضون وراء أشياء لا تدريها. يعرضون أنواع الطعام في المطاعم على الواجهات بكلمات اللغة الغازية وحروفها. يكتبون "معراف".

- ما هو هذا؟ هل هو عرف الديك؟ سألت.

ضحكوا وأجابوا بأنها أكلة يُحبّها العمال الذين يذهبون إلى "هناك". رأت اللافتات التي تدعو "الخواجات" ساكني المستوطنة القريبة إلى تصليح سياراتهم، ورأت هؤلاء وهم يشترون أغراضهم من الأسواق المحلية قبل الانسحاب المقرر. انتهت الطمأنينة التي عرفتها قبل غيابها الطويل الطويل، عندما كان لها بيت وأُسرة وأقارب وصداقات وشوارع تحفظ دروبها منذ كانت في الثالثة من العمر، وأقنية ماء متدفقة من عهد الرومان كانت تغطس قدميها بها الشطر الأعظم من الصيف قاموا بإغلاقها وسدها الآن بكمياتٍ هائلةٍ من الإسمنت، ومدنٌ تعرف خصائصها وأوصافها وتنتمي إلى حواريها وأزقتها وأشجارها، ولوحات زيتية يرسمها الأب مرة والأُم مرات، وكتبٌ قديمة، وقطع تطريز فائقة الجمال تركتها الأُم بعد رحيلها عن العالم لكي تجعلها لمن خلفتهم وراءها دلالةً على التمني بعيش رغد الحياة وحلوها، مع أن الجميع عاشوا العكس بعدها.

انتهى الماضي مثلما يتهاوى الحاضر الآن أمام أعيننا، وانسكبت حياتنا مثل حليبٍ يقع من إناءٍ زجاجيٍّ على الأرض في لحظةٍ واحدة. وتلطَّخ زمن الحلم الأول بعد رحلة الأب البريئة حين قطع الجسر إلى عمان لإيصال بناته للضيافة عند عائلةٍ صديقة، فصُدم عصر ذلك اليوم من الحرب التي دارت في ساعات، بالنبأ الذي بثته الإذاعة وهو على باب سيارته قاصداً العودة إلى بيته وعيادته، حين عرف أنّ طيران الغزاة دمر الجسر وبات الطريق الوحيد الذي يربط بيته في الضفة الغربية بالعالم مقطوعاً.

فكرَت حينها بأبيها المسكين مع بناته اليتيمات، وقد صاروا جميعاً مطرودين خارج الحياة بسبب هذه الطائرات الحربية اللعينة التي بثت الموت يميناً وشمالاً بلا توقف، واجتاح أصحابها بلادهم ومنعوهم من العودة إليها، وكذلك بسبب قذائفهم التي قتلت صديقتها بالنابالم المسلط على سيارة عائلتها حين كانوا على طريق عمان حينها. استعادت ذلك الأب الذي تحوَّل بلحظةٍ إلى لاجئ مقهور، لا يملك شروى نقير، بما فيه أوراقه الثبوتية التي خلفها وراء ظهره.

منذ ذلك الحين امتلكت تلك اللحظة التي تسمَّر فيها الوالد مشلولاً وحائراً أمام جسر اللنبي، مفعولاً ممتداً، وجللت عمراً كاملاً اختتمه مشلولاً، طريداً، خالي الوفاض من ممتلكاته وأشيائه الأولى في لحظة موته الأخير بعيداً عما أحبه طيلة حياته.

بعد غيابٍ إجباريٍّ طال ستةً وعشرين عاماً، بعد يأسٍ من العودة إلى الأرض دام كل تلك السنين، بعد حوارٍ لم ينقطع لحظةً بين القلب والذهن، بين الوجدان والفكر، بين البصيرة والنفس عن شراسة الحنين وسط اليأس والحروب التي لا تنتهي في الخارج والمطاردات المزعجة والمشاكل المعتادة في التنقل بين البلدان، تعود..

أعود..

نعم فعلاً، وها أنا أحمل التنين بطبعاته اللانهائية على الثوب النبيذي الذي حال لونه أمام دير "مار جريس " الذي تمشي له النساء في عيده، حاملاتٍ أرغفة الخبز الذي تُنقش عليه صورة القديس وهو يطعن التنين برمحه الطويل وينتصر عليه.

هنا. ههنا. في بلدي أخيراً.

في قلب أرض التنين أنا.

في فلسطين!

أسواقٌ تحت الأرض

المرة الثانية التي عذبها فيها هذا الحب، منبثقاً من قطعة نسيجٍ اتخذت شكل سجادةٍ، كانت عندما زارت أصفهان ضمن وفدٍ لمهرجانٍ سينمائيٍّ عريق. مدينة تتنفس الهدوء والشاعرية عبر النهر الذي يعبرها منذ فجر التاريخ. هناك اكتشفت صدمة الشغف الذي يخلقه النسيج في أشكاله التي تُسمَّى سجاداً. ذهبتُ مع الوفود إلى السوق التاريخي هناك، ومن ثم انفصل كلٌّ على هواه، على أن يتم التجمُّع والعودة إلى الباص الذي توقف في ساحةٍ واسعةٍ في وقتٍ محدد.

تذكَّرت حينها الصدمة البصرية التي أصابتها في متحف باردو في تونس العاصمة، حينما طالعت العشرات من اللوحات الجدارية أو الأرضية الضخمة، وهي تقدم صوراً لا تُنسى عن حيواتٍ ماضيةٍ عادت لتتشكل من جديدٍ حاملةً كل تفاصيل الحياة التي عاشها الرومان. كانت مكعبات الفسيفساء الملونة تتحرك أمام ناظريها بحيث صارت ترى جماعاتٍ من عائلاتهم تسبح على شاطئ النهر، وأُخرى تصطاد الأسماك أو تجلس على طاولاتٍ لتأكل وتشرب، ثم تقوم برحلةٍ بين الشجر. كانت قطع الفسيفساء تصنع منامات يقظة لا يتوقف سحرها. من جداريات وأرضيات متحف باردو كانت قد تشبعت ألوان الفسيفساء الغنية، التي تمددت لتعيد تشكيل الحياة في الوجوه والأذرع والابتسامات وانحناءات الكتف واستقامة الظهر أو تمايل الساقين وانشداد القامة في أناقةٍ باذخة، حتى ليظن المرء أنهم رفاقٌ له يتبادل العيش والكلام معهم في كل صورةٍ يراها.

في أصفهان أحاطت بها في سوق السجاد العشراتُ والمئات من القطع التي ترسم كلٌّ منها مشهداً مختلفاً لا يمت بصلةٍ إلى خيالنا التقليدي الجامد، الذي يجعل من السجادة سجادة لأغراضٍ محددةٍ وكفى. لم يخطر على بالها أنها سوف ترى القصائد الشعرية مُتجسدةً في نسيجٍ تصنعه الخيوط والفتائل والحبال. كانت هناك واحدةٌ منها تجمع الطيور بالألوان الزاهية، واقفة كلها على شجرة واحدة تمثل أحلام اليد التي نسجتها. بدأت ترى حيواتٍ كاملةً ترتسم على الغرز والرسوم

وأنواع الخيوط الصوفية والحريرية والقطنية، التي ترسم المشهد رجوعاً إلى البيت الذي نسجت فيه، وإلى ذوق النساج أو الحائكة وطريقة انتمائها لمنطقتها أو بلدتها. لكل مدينةٍ سجادةٌ تخصها، ولكل امرأةٍ نساجةٍ أو حائكٍ ماهرٍ مزاجٌ مميزٌ تطبعه الأصابع بطرقها الخاصة ضمن الطراز العام. ولا يميز هذه إلا المهارة وجودة الخامات وعدد القطب التي تصنع التفوق.

حين كانت واقفةً بينها تُقلب النظر، دخلت امرأة ريفية، وباعت سجادتها التي أتت بها من قريتها إلى صاحب المحل. فهمَت حينذاك أنّ هناك المئات والآلاف من الأُسر التي تعيش من هذه المهنة. وعلى رغم جمال القطع وبريقها النابعين من رسومها الخلابة، اختارت أن تقتني تلك السجادة التقليدية الممهورة بعرق صاحبتها القروية، بالرغم من أنه كان هناك انحرافٌ بسيطٌ في خط الزاوية في أحد أطرافها. كان حضور المرأة الإنساني التي أتت بالسجادة من بيتها رأساً هو ما دفعها إلى الشعور بالأنامل البشرية التي حاكتها. كانت سجادة ممهورة بالأبيض والنيلي والكحلي، وفيها بعض حوافي الخيط الحريري الناصع الذي يرتسم بين طرف شكلٍ مرسومٍ وآخر.

عرض عليها صاحب المحل أن تذهب إلى محله الآخر. كانت قد رأت حوانيت كثيرة في السوق قبل أن تتوقف عنده وترى أنّ لديه المجموعة الأجمل والأكثر فناً وذوقاً. أخبرها أنه يملك مجموعة مميزة هناك.

طبعاً لم يخطر لها أنها سترى مجموعاتٍ أشد إذهالاً مما رأته حتى الآن. وكانت قريبتها التي عاشت في أوروبا وقابلتها في مطار عمان قبل السفر قد أخبرتها بحماسٍ بالغٍ عن روعة أعمال السيد "ميم. نون"، وسألتها أن تفتش عن سجاد هذا الفنان الكبير الذي أُتيح لها أن ترى سجاداته معروضةً في متحف اللوفر في باريس لشدة فنيتها وعلو شأنها، بل وجعلتها ترى على صفحات "جوجل" نماذج مصورة من أعماله عالية الذوق والشأن الفني على شاشة هاتفها النقال. أوصتها بجدية بالغة بأن ترى أعماله، فهو معلمٌ في المهنة وصاحب توقيعٍ قد يكون لآخر المبدعين في هذا المجال.

أما هنا في مهد صناعة السجاد وعرضه، فلم يحدث أن وجدت أي قطعة لهذا الصانع في السوق مهما ذكرت الاسم باستفهامٍ وإلحاح. سألت عنه في محلات كثيرة مراراً وتكراراً، ولم تجد من سمع به أو عرف عنه شيئاً وسط العشرات والمئات من السجاجيد التي ضمتها تلك المخازن. أما حين عرض الرجل وألحّ أن يوفد مندوباً له معها إلى المحل الآخر، فقد ذهبت بناءً على إلحاحه كي

تختتم جولتها بعد أن اختارت سجادتها، وتمّ تحضيرها وإعدادها ولفها بطريقةٍ تُسهّل حملها خلال السفر.

اصطحبها إلى سوقٍ كاملٍ تحت الأرض يضم دكاكين كثيرةً مُغلقةً، مثل أحد الشوارع في قصص "ألف ليلة وليلة"، حيث يذهب البطل إلى مدينة النحاس، ويكتشف أنّ الأسواق مغلقة، وأن كل من فيها جماد. الفرق هنا هو غياب البشر، لذا لم تستطع فهم المغزى من هذا السوق التحتاني والمزدحم بدكاكين مغلقةٍ تحت الأرض، إلى أن فتح مساعد صاحب الدكان الدرفة المعدنية، ورفعها إلى الأعلى في واحد من هذه الدكاكين التي لا يدخلها أحد. وبدأ يفرجها على ما يشبه القطع التي رأتها سابقاً حتى ندمت بينها وبين نفسها على تبذير الوقت دون جدوى. كادت تطالبه بالعودة حين رفع من بين السجاجيد واحدةً صغيرة الحجم تضم رسوماً خيالية الجمال، فكأنها تصور فردوساً على الأرض. وعلى رغم حجمها الذي لا يتجاوز حجم سجادة صلاة، فقد كانت حافلةً بحدائق عابقةٍ بجميع أنواع الأزهار والنباتات والفاكهة الشهية التي عرفها البشر منذ خلق العالم. وكان هناك أيضاً مشهدٌ لسماءٍ وأرضٍ وأنهارٍ جاريةٍ على خلفيةٍ تميل إلى الأخضر الحالم العصفري.

عندها استطاعت أن تلمح توقيع "نون ميم" في أسفل السجادة. ربما كانت السجادة الوحيدة التي تحمل توقيعاً لهذا الفنان المنفي، وبدا أنها وُجدت صدفةً هناك بسبب غياب أصحابها من البلد. فمَن يمكن أن يمتلك مثلها ويتركها لتضيع بين عشرات الآلاف من القطع الأُخرى التي يزخر بها السوق؟!

كانت قطعةً ثمينةً للبائع الشهير، وكان البائع يعرف قيمتها، لكنه عرضها عليها بثمنٍ يُوازي الأُولى التي اختارتها. ولم يكن لديها مجالٌ لشراء السجادتين. تعرَّض ضميرها لامتحانٍ قاسٍ، فقلبها أمام خيارٍ يدفعها لإرجاع السجادة الأُولى، واقتناء هذه التي تكشّف وجودها الأسطوري عن ثمنٍ معقولٍ وعن إمكانية المبادلة، وعقلها يُخبرها أنه ليست هنالك فائدة في أن تقتني كل هذا الجمال وتصطحبه إلى المنافي بعيداً عن أصحابه المنفيين الذين ما زالوا يحلمون بالعودة الى أمكنتهم الأُولى! ولكن، ما هو الضير فيما لو أعادت الأُولى التي اختارتها ولفّها البائع وأبدلتها بهذه، فليست لديها إمكانية لشراء الاثنتين.

ظلت تنظر إليها بذهولٍ وهي تتذكر صديقةً إيرانيةً قابلتها يوماً في مؤتمرٍ نسائيٍّ في النرويج حينما كانت تصف لها لوعة العيش في المنافي. كانت كلما نظرت إلى الجمال الغريب في هذه

السجادة تزداد تأكداً من أنها سوف تظل تعيش عبرها لوعة من خلفّوا الوطن وراءهم. في كل لحظةٍ كانت تتذوق فيها هذا الجمال الخارق المحبوك على سجادة، كانت تستعيد ثانيةً بثانيةٍ مرارة حياة المنفى التي جربتها قبلاً. فهل يمكن لأصحاب السجادة أن يفتشوا عنها في حال عودتهم؟ وكيف سترجعها لهم حينذاك؟ ثم ألا يستجلب ذلك ذكرى تعاسة ما عاشته في منفاها؛ حين تعاود هذه السجادة تذكيرها بإمكانية ضياعها عن فردوسها المفقود ثانية؟!

لكم حاصرتها مشاعر الماضي هذه وكمنت وراءها كل يوم، وكل ساعة، وكل ثانية. كان الشوق يلتبس مع جسدها أحياناً، فيصير روحاً ثانية تحملها وتطوف بحسرةٍ في الأمكنة التي كانت تخضع في ذهنها لمقارناتٍ طويلةٍ مع وطنها الأول. كان مؤلماً إحساسها بأنّ هذه السجادة الجميلة سوف تعاود، كلما نظرت إليها، تذكيرها باليتم واللوعة، وبالشغف الذي ينظر به الإنسان المطرود إلى فردوسه المفقود من بعيد.

هل يحتمل قلبها مجرد استيلاد خاطرةٍ تمس العودة إلى المنافي؟ وهل يمكنها احتمال أفكارٍ تثير فيها ذلك العذاب كله؟! أن يعاودها الحس بفقدان البلاد كلما نظرت تحديداً إلى قطعةٍ صنعها من أراد أن يُحمّلها هذا الجمال العميق، كامناً في عملٍ فنيٍّ محبوك! أم تصرف النظر عن هذه السجادة التي تشرّد صانعها ومن امتلكوها، وتأخذ بدلاً منها قطعةً متقشفةً صنعها صبرُ فلاحةٍ تكدح كي تستمر في حياتها داخل المربع الصغير الذي ألفته وعاشت فيه، مهما تكاثر الطغاة على أنواعهم؟!

وحتى الآن ما زالت تتملى بهدوءٍ وتمعُّنٍ تلك الخيوط الحريرية البيضاء لسجادة أصفهان التي صنعتها أنامل تلك المرأة الريفية، وهي تزداد يقيناً بأن التمييز بين البياض والدكنة، وبين الليل والنهار، يظل مسألة صعبة، إلا أنه بإمكاننا أن نختار فعلاً مهما كان نوع الاختيار.

وحتى الآن فإنها لم تتخلَّ عن الثوب النبيذي ناحل القماش الذي تصطف عليه التنانين التي دجنتها قطبة التطريز الفلاحي، فجعلتها وديعةً ومسالمة.

لم تذهب مرةً أُخرى إلى أصفهان التي ظلت تبث أضواءها الفيروزية في مخيلتها، لكنها بدلاً من هذا عادت لتزور بِرَك سليمان المجاورة للخضر، تلك التي غطت ذكريات طفولتها بالتماعة مياهها، فظلت تراها مجموعة بحيرات صغيرة ملونة بالأزرق الشفاف.

زمان قبل سنوات وسنوات كان لونها اللازوردي الأزرق يتناغم مع الاخضرار المشع الذي تبثه البساتين المزهرة حولها. أنظر إليها الآن وأراها صغيرةً جداً بما يوازي برك السباحة الأولمبية أو أكبر منها بقليل. أنظر وأرى أنّ مساحة الاخضرار قد تقلصت وتضاءلت كثيراً. اللعنة على المنافي وعلى ما يغير العالم ويجعلنا نراه أصغر ثم أصغر.

صندوقٌ خشبيٌّ مُطرَّزٌ بالصدف الأبيض

لكن، أيمكنني فعلاً إعادة القصة من أولها، كما جرت مع ذلك الصندوق المصنوع من خشب الجوز والمطرز بنقوشٍ من صدفٍ أبيض؟ فالصناديق تجتذبنا وتصير بمثابة قلبٍ لكل واحدٍ منا. إننا نستودعها الكثير مما تحمله حياتنا. وهي تصير بمثابة الحجرة التي تنظم مرور الدماء إلى الشرايين وأرجاء الجسم كله. وما الرسوم التي تكون عليها إلا خارطة ودليل حياة عما عاشه الناس قبلنا. والخربشات التي عليها تشبه ما نخطه في حروفنا، فهي شهادات حية على أنّ الذاكرة لا تموت.

كان علينا المرور ببيت لحم لتلبية دعوة صديقنا جون البيتجالي. قال جون على الهاتف:

"تعالوا إلى بيت جالا بدي أورجيكم صندوق كبير كبير من خشب الجوز. تعالوا".

الصندوق المدقوق بالصدف البحري كان هناك في محل العاديات الذي يمتلكه صديقنا. صندوقٌ كبيرٌ وضخمٌ من خشبٍ قد يكون الجوز أو السنديان، حسبما فكرت، ويرتفع عن الأرض بشكل لا بأس به على مسندين عريضين جعلاه يبدو شبيهاً بالخزانة. نقشت عليه دوائر صغيرة موشومة بالصدف البحري والأبنوس. كان صندوقاً ضخم الحجم وذا صنعة نادرة، ويصعب إيجاد مثيله.

قال جون: جبته من القدس اليوم. ثمنه غالي. أيوه. بس ما بقدر أبيعه بأقل من هيك.

ثم حكى أنه يتلقى دعواتٍ غريبةً تتعلق بمهنته في بيع العاديات وترميمها، فاليوم تم استدعاؤه لحمل الأثاث القديم من دارٍ في القدس لسيدةٍ يهوديةٍ عجوز توفِّيت حديثاً، وبطريقةٍ ما استدعوه كي يبيعوا كل ما كان هناك. اشترى جون كل ما يضمه البيت من الأغراض والعفش مما لا يساوي شيئاً، فقط من أجل الحصول على هذا الصندوق.

لم يفهم جون كيف يكمن هذا الصندوق الفاخر في بيتٍ صغيرٍ كله خرابيش في خرابيش، فسأل الابنة التي تبيع عفش والدتها عنه. قالت السيدة إنّ أُمّها كانت مُقاتلةً في البالماخ، وأنها حصلت على الصندوق كغنيمةٍ من بيت أحد الفلسطينيين الذين اقتحموا بيوتهم عام 1948. وعندما حاول جون أن يلحف في السؤال عن مصير الفلسطيني صاحب المنزل الذي كان فيه الصندوق المكسو بالصدف، أخبرته الابنة الكهلة أنها لا تعرف ولا تريد أن تعرف.

كان الثمن مرتفعاً، كما ذكر صديقنا الذي لم ينل في ذلك البيت شيئاً جديراً ببيعه من جديدٍ أو اقتنائه. دفع الثمن بعين الرضا، وحصل على الصندوق الذي عاد إلى أهله الآن، فهذا الصندوق "رخيص" مهما بدا غالياً. وطبعاً، فها هو يعود إلى بيتٍ فلسطينيٍّ بعد مرور أكثر من خمسين عاماً على انتهاكه وسلبه وتشليحه غصباً.

حدث فيما بعد أنْ عزمنا صديقنا جون مع صديقنا الشاعر إلى محله القريب من الدهيشة على ذلك الشارع الطويل الممتد بين بيت لحم والخليل على غداء من الجمبري البحري المنقوع بعصير الليمون، الذي قامت زوجته الكولومبانية بتحضيره بناءً على وصفات أهل بلادها. ثم دلّنا على فجوةٍ في الصخر غير بعيدةٍ عن الفناء الخلفي لمحله. صعدنا على الهضبة، حيث الفجوة التي تؤدي إلى مدخل كهفٍ مغلقٍ على سفح الهضبة العالية، فظهر المدخل الترابي وكأنه أثرٌ لمزارٍ قديم. أخبرنا جون بأنّ الناس يعتقدون بوجود كنزٍ من الذهب والفضة هناك، وهو اعتقادٌ درج الناس عندنا على جعله تعميماً يطال أيَّ كهفٍ مغلق. ذهبنا وتفرجنا ورأينا أن الفتحة التي بدا أنها تقود إلى كهفٍ عتيقٍ في الصخر مغلقةٌ تماماً منذ عصورٍ طويلةٍ بالتراب والرمال.

فيما بعد، ترامى إلينا أن تلك الأقاويل وصلت إلى سلطة الآثار "عندهم"، وأنهم أتوا ونبشوا الكهف، وعثروا على الكثير من الجرار المليئة بالذهب والفضة، إذ إن الكهف بدا كأنه مزارٌ لديانةٍ ما منذ عصر الأدوميين.

لم يحدث شيء سوى أنـهم استولوا على ما وجدوه باسم سلطة الآثار "عندهم".

كانت بلادنا حقلاً شاسعاً من هذه العطايا المجانية. وهم قد استولوا عليها كلها كأنها شقةٌ مفروشةٌ خاليةٌ من أصحابها، حصلوا عليها بلا ثمن.

زيت الدبابات
2002

كان عليها تصوير مشاهد كثيرة وحدها بكاميرا فيديو منزلية صغيرة، لأنّ تنقُّل طاقم التصوير كان مستحيلاً أثناء احتلال الدبابات أجزاءً كبيرةً من المدينة في بداية الألفية الثانية. لم يكن الاجتياح العسكريّ قد بدأ بشكله العنيف الذي تواصل بعدها. كانت مرحلة كمونٍ للدبابات العدوة. وكانت لا تقاوم إغراء الوقوف في مواجهة الدبابات العمياء مغلقة الأغطية لتُصوِّرَها. لم يكن الجنود مرئيين، وكانت تجد العذر لنفسها في الوقوف لتصويرهم قائلةً لنفسها إن حركة الدبابات لن تكون سهلةً لمطاردتها، أو حتى لرشق بعض سهامهم المسمومة عليها قبل أن تبدأ الحرب الفعلية، وأنه لا يمكن لرتلٍ أن يضطرب بسبب امرأةٍ تنصب كاميرا صغيرةً على حاملٍ خفيفٍ، وتصور الأجساد المعدنية الضخمة التي يختفي الجنود داخلها، والتي تطفر مثل أحصنة طروادة لتحتل السماء والأرض.

كانت تقوم بتصوير طابورها الطويل الممتد في شارع الإرسال وصولاً إلى المقاطعة، وهي تشعر بأنها تقف في مواجهة وحشية "السيكلوب". تُعرِّض سلامتها لتراجيديا المخاطرة، فقط لأنها كانت تريد أن تعرف ماذا يفعلون هنا؟ ولماذا يأتون بحثاً عن كل طفلٍ خرج في مظاهرةٍ أو رمي حجارة؟

تذهب مع الجموع المتسللة مشياً لإكمال التصوير مع فتاة المدرسة التي ترتدي ملابس سوداء في الليل، حتى لا يراها الجنود لو اقتحموا دارهم في "البالوع". تحجل فوق السناسل المهدمة، التي هي حوائط قديمةٌ من الحجر تحيط عادةً بحقول كروم العنب والتين بعيداً عن الشوارع الرسمية، حيث خط سير الدبابات ورائحة الغاز السام وزيتها الثقيل الذي ينتشر في الجو البارد ويفوح بين لحظةٍ ولحظةٍ كلما وجد الجنود مشاةً يخرقون حظر التجول، لتكتشف فيما بعد أن تسجيل

يوم كامل معها ضاع و"انضرب" بسبب خلفية صوت الدبابة العملاقة التي كانت واقفةً على باب بيت الفتاة دون أن تطفئ محركها. في اليوم التالي تعود لتنصب حامل التصوير أمام باب عمارة جيران الفتاة، لتصور بنايةً مقابلةً يشغلها الجنود وهم يسدلون شرشفاً بلاستيكياً ضخماً يتدلى من الشرفات، كي لا يرى أحد حركتهم في الخارج.

بغتة، قفز واحدٌ منهم في اتجاهها من مدخل بنايةٍ أُخرى. حملت الكاميرا ومنصبها على كتفها، وركضت بهما محتميةً بقدَرٍ ربانيٍّ إلى الدرج النازل إلى بيت أصدقاء.

رائحة الكاز

1996

قبل اجتياح قواتهم العسكرية بكامل عتادها وآلياتها وصواريخها وذخائرها وبنادقها ذات مناظير "الليزر" بثماني سنوات، كنا قد اتجهنا إلى قرية حوسان، التي تشبه الجنان الموصوفة بالكتب القديمة، قريباً من بلدة الخضر، لتأدية واجب العزاء بالطفل الذي سلب المستوطنُ حياته خلال عودته من مدرسته. كان الحزن يسدل أستاره السوداء على السماء، ويخضب الحاضرين جميعهم بلونه الداكن. لا بد أنّ قتل الفلسطينيين شرعيٌّ ومعتمدٌ عند "الأسياد"، الذين يحق لهم القضاء على "العبيد"، بسبب أعصابهم الرقيقة وأمزجتهم المرهفة. فهكذا تصبح جرائمهم مبررةً وعصيةً على العقاب.

كان ذلك ما حصل مع مجموعة الأطفال الذين كانوا عائدين من المدرسة مشياً كعادتهم، وقاموا برمي الحجارة على سياج المستوطنة المقدس. عثر ضابط الأمن في تلك المستوطنة المجاورة على ضالته المنشودة في مجموعة الأطفال هذه. ظفر بهم أخيراً حينما رآهم يسيرون مثل كل يومٍ على الطريق العام الذي لا تطرقه السيارات إلا نادراً. أولادٌ يرمون الحجارة على المستعمرة المقدسة! يا للعار، إذاً. هل كان يحمل كتابه القديم الذي يتغنى بقتل الفلسطينيين آنذاك، وهو يطاردهم بسيارته السريعة ذات الدفع الرباعي، والأطفال يركضون هاربين إلى بيوتهم؟ كانت أعواد الذرة الخضراء تتمايل وتتكسر وراء ظهورهم وهم يعْدون عدواً سريعاً قبل أن يمسك بهم. الأخير الذي تخلَّف عن الركض وظل في النهاية كان هو الهدف.

ببساطة شديدة، تمّ قتلُ الفتى بأن ضرب رأسه مراتٍ عدةً بمسدسه. ألا يصلح هذا كمقدمةٍ لكي يتعلم الأولاد الفلسطينيون أو "العرب"، حسبما يرى العنصريون، عدم التجرؤ على مَن هم أعلى منهم؟!

في 27 تشرين الأول 1996 قتل ناحوم كورمان الطفل حلمي شوشة بحجرٍ ظلَّ يضرب به جمجمة الصبي، الذي ما زال على تخوم الأحد عشر عاماً، إلى أن قضى عليه نهائياً. تم احتجاز القاتل ثلاثة أشهر. وبعد ثلاث سنوات في 27 أيلول 1999 صدر الحكم ببراءته التامة.

كانت النسوة خلال العزاء متربعاتٍ على الأرض بلباس الحداد وأغطية رؤوسهن السوداء. وكانت رائحة الكاز تنبعث من مدفأة البيت الفقير، وتغطي كل شيء. تمتد من حوسان إلى بيت لحم إلى العالم كله، مرنخة بحزن أعمى لا يعرف له طريقاً أو خلاصاً، لأنّ المجرم محصن، والعقاب غير وارد على الإطلاق. حزن وكاز يطغيان على كل ذرة هواء.

يا ربي نسمة هواء.

هواء. هواء. يا رب.

في المحكمة الإسرائيلية قيل إنّ المتهم بريءٌ براءة الذئب من دم يعقوب.

وخرج بلا عقاب.

رائحة الكاز تجلل العالم.. كاز.. كاز.. يا رب.

الأعراس

تخطر لها فكرةٌ فيلم عن عرسٍ تتدخل فيه قواتٌ عسكرية، ليس فيلم "عرس الجليل" لميشيل خليفي طبعاً، بل فيلمٌ يحوي التكنولوجيا التي غزت الأعراس الآن. هل يمكننا أن نتخيل عرساً يرسل إليه جيش "المحتل" طائرةً صغيرةً بلا طيار "درون" لتصويره ومن ثم قصفه من بعيد. قرأتُ شيئاً عن هذه "الدرون" التي يرسلونها إلى غزة ويستهدفون بها أفراداً أو مجموعات. ولا يستدعي هذا في العادة غير تدخل المجندة بطرف إصبعها لكي تضغط على زر الكمبيوتر وتقتل من تريد بلمسةٍ واحدة. قبل سنوات، كان هنالك فيلم فلسطيني يُصور الروبوت الآلي التابع لجيشهم وهو يفجر كيساً فيه ملابس البطلة في شريط "عرس رنا". أما الآن، فهذا الروبوت الفضائي يتجسس في جميع الأمكنة، سواء في الأرض أو السماء.

بدأت القصص تعود إلى الخلف، فكأنني أُعاود تمرير شريط الخيال إلى مكانٍ وزمنٍ آخرين. عدتُ إلى طريق صيدا لبنان عام 1980، حينما قصفت طائرات الجيش المغوار طوابير الناس والسيارات على طريق بيروت قرب محطة تكرير الزهراني. كنتُ في عرس ذلك الرفيق الذي كان يساعدنا في عملنا الصحافي قبلها بيومين. صفقوا ورقصوا وفرحوا في مخيم عين الحلوة. ثمّ في أقل من ثمانٍ وأربعين ساعةً أُصيب بقصف طائرات جيشهم الحربية، ولم يبق منه إلا نطفةٌ تحولت إلى طفلٍ يتيمٍ لم يُقيَّض له أن يعيش مع أُمه التي تركته مع جدته لأبيه، لأن أهلها زوّجوها بسرعة بعد فقدانها زوجها.

ليس لأن الموضوع درامي وحزين، وليس لأنني لا أستطيع توليد المؤثرات الحقيقية الأُولى، وإنما لأن المسألة بحالها تثير فيّ الاكتئاب. لجميع الأمكنة عندنا ذاكرةٌ عائدةٌ إلى الحرب أو تحمل رائحة بارودها. كلما مشيت في مكانٍ، أعدت تأريخه بالنكبة أو النكسة أو الاجتياح.. إلخ.. إلخ.

أدهشني ابن جيراننا الخجول عندما دخل مع عروسه إلى قاعة العرس وسط إيقاعات الأغاني العربية راقصاً، ممدود الخطو، غير آبهٍ بمقاييس التحفظ التي نشأ وسط ظلالها في بيتهم التقليدي. رقص الفتاة العروس مألوفٌ واعتياديٌّ عندنا. أما أن يدخل العريس راقصاً مع زوجته، فهذه جرأةٌ جديدةٌ تدل على ما وصل إليه الشبان من تحدٍّ لمجتمعٍ ما فتئ يُحارب اجتماعياً كل ما ليست له علاقةٌ بتقاليد القرون الوسطى. كان العروسان يتقدمان باتجاه مكان "الصمدة" في صدر الحديقة. وآنذاك انتبهتُ إلى أنها لم تعد الحديقة التي أعرفها، فقد جرى جزّ كل ما فيها من أزهارٍ ونباتات، ولم يبق في أنحائها إلا مسرحٌ صغيرٌ وأضواءٌ ومساحاتٌ كثيرةٌ للكراسي.

يا إلهي! البِركة. بركة السباحة التي كنت أُحبها. أين هي؟

تمّ تغيير معالم المكان وإزالة طابعه الأول تماماً. حتى حوض السباحة الجميل الذي كنا نسميه "البركة" تمّ ردمه، واستُبدل بحوضٍ صغيرٍ لمياهٍ ضحلةٍ ضئيلة الاتساع قليلة الغور.

لم تعد هنالك تلك البركة التي أُحبها، وقد عرّضتُ نفسي بسببها لخطر الوقوع في قبضة الجيش. تغيرت البركة التي قررتُ أن أصل إليها قبل سنوات، خلال يوم عطلة وسط الصيف الحارق الذي دهم المدينة مُتجانساً مع الغزو والاجتياح، غيرَ آبهٍ بمشاعر الاحتباس التي فُرضت علينا خلال منع تجولٍ استدام ثمانية أشهر.

تجول أم عدم تجول! كان عليَّ الوصول إلى هناك.

قلتُ لنفسي يومها إني لن أتوقف حتى أصل إليها، فقد تحولت بالنسبة لي إلى بحرٍ لن تمكنني مواصلة العيش، إن لم ألمسه أو أطل على وجوده الاستثنائي في هذه المدينة الرابضة فوق جبالٍ وهضاب. مازلتُ أذكر ملمس المياه الباردة وهي تنعش جلدي أولاً، ثم تمتد إلى جميع أنحاء جسدي، لكي تنفض عني التعب المتراكم، وتعطيني إحساساً بالتجدد والتهيؤ لما يمكن تسميته روعة اللحظات المقبلة. كنت أتجه تواً من عملي إلى تلك البركة الساحرة، ومعي كيسٌ أحمل فيه الأغراض التي أحتاجها، وأختار من ثم كرسياً من قماشٍ أتمدد عليه وأنا مغمضة العينين كي يمحو ما راكمه جسدي من وعثاء النهار. وعندما يغادر آخر السابحين المكان، كنت أنزل وحدي في طقسٍ فريدٍ يجعلني أتوقف وسط المياه الزرقاء في منتصف البركة، لأرمق السماء الصافية والطائرات التي تمخر فيها بين الحين والآخر. آنذاك كانت الفقاقيع الدقيقة تتصاعد من ملكوت الماء لاذع البرودة، فأنتفض مثل

فرخ بطةٍ بريةٍ يتعلم العوم، وأخرج بعدها مفعمةً بالرضا والسعادة من وجودي داخل تلك البركة الوديعة، التي أصل إليها حينما تسترد رواقها وهدوءها فور انصراف آخر الناس عنها. تذكرتُ إحساسي بالبلل وأنا جالسةٌ بين الأعشاب وأوراق البردى المتهدلة بعد خروجي من الماء المثلج مجللةً بالمنشفة، التي تصير خشنةً بشكلٍ غير متوقعٍ أمام رقة المياه التي غسلت أعمق جذور جسدي، وجعلتني شبيهة بتلك الأعشاب التي أكمن قربها بعيداً عن الأنظار. تذكرت انتظار نسمات الهواء الساخنة كي تقوم بعملية كيٍّ معاكسةٍ للإحساس الثلجي السابق وشعور الدفء الذي يدب فيَّ حينها رويداً رويداً، شاحناً إياي بكل ما في العالم من نشاط.

باختصار، وسط ذلك الحصار، وفي ذلك اليوم تحديداً، صارت تلك البركة أُمي وأبي، وتحتَّم عليَّ الوصول إليها بأيّ طريقة.

كان عليَّ الوصول إليها مهما كانت حجم المخاطر والتضحيات. فقد علمت أنه في يوم العطلة الأسبوعي الماضي كانت البركة والحديقة حولها قد امتلأت حتى آخرها بالعائلات التي نجحتُ في التسلل إليها من الجيرة القريبة. صحيحٌ أن الحيّ الذي أعيش فيه هو الأبعد، وهو يقع في منطقةٍ بعيدةٍ عن تلك، لكني كفيلةٌ بتدبُّر أمري إن ساعدتني الظروف. وسأرى ما بإمكاني فعله كي لا أظلَّ محتبسةً وراء الجدران في لهيب هذا الصيف الحار.

أخذتُ السيارة وانطلقتُ إلى مصيرٍ مجهولٍ عازمةً على أن أمشي ببطء، فإن وجدتني الآليات أو الدبابات التي تجول الشوارع في العادة، فسوف أقف أمام باب أيّ بيتٍ على الطريق، وأتظاهر بأنني أحد ساكنيه وأنني لست إلا واقفةً على بابه. لم أُفكر في التفاصيل كثيراً، لأن الطريق لم يكن حافلاً أصلاً بالبيوت السكنية التي يمكنها أن تستّر على وقفتي أمامها. كانت هناك شوارع رئيسة عدة، وأراضٍ بور عديدة ومنعرجات والتفافات لا يمكن التكهُّن بما وراءها، على أن أمشي ببطءٍ حتى أستفيد من الوقت، وأتوقف كي لا يعثروا عليَّ في حالة حركة، فيما لو كانت هناك أيُّ مدرعةٍ أو دبابةٍ أو آليةٍ عسكريةٍ لهم. آه كم بان الطريق طويلاً وأنا وحدي في سيارةٍ تتلكأ في شوارع مدينةٍ يقبع كلُّ من فيها وراء الجدران، وتُمنع عليهم الإطلالة من النوافذ حتى. لم أُفكر كثيراً فيما يمكن أن أفعله فيما لو وجدتُ نفسي وجهاً لوجه أمام دبابتهم الضخمة بعلوّ ثلاثة طوابق. جعلت الأفكار تتمشّى على شاشةٍ في دماغي، كما لو كانت نملاً يرقص ويقفز فوق كوم الرمال من دون اكتراث. وواصلتُ التقدم في الطريق الذي بدا أطول وأطول.

وصلتُ بمصادفةٍ إلهيةٍ من دون أن أراهم أو يعثروا على أصحاب الأسلحة الحربية، هؤلاء الذين كانوا يُهددون السكان يومياً بالتصويب عليهم لو وجدوهم خارج البيوت. عندما دخلت إلى الفندق، ومن ثم انحدرتُ إلى البركة، سَرَت فيّ حالةٌ عاليةٌ من الفرح والسرور، كما لو أني حصلت على كأس العالم في السياقة الآمنة، لمجرد دخولي من دون احتجازٍ أو استهدافٍ على الطريق. لكنّ سعادتي فترت قليلاً لأني لم أتوقع أن تكون البركة خالية تماماً من الناس، عكس ما كانت عليه الأُسبوع الماضي، كما عرفتُ هاتفياً من صديقتي. لا بد أنّ تهديداتهم ازدادت إلى درجة سريان الفزع مضاعفاً بين زوار عطلة الأسبوع السابقة. الوحيدان اللذان كانا هناك صبي وفتاة في حدود الثانية عشرة والرابعة عشرة، وكانا يتشمسان على العشب، وهُما، لا بُدَّ، من جيران المكان.

احترتُ إن كنت سأسبح أم سأجلس على البركة الدمشقية الصغيرة المكسوة بالجليز والخزف الأرمني الأزرق، وأحتسي فنجان قهوة بالقرب من عريشة الياسمين التي كانت أزهارها الساقطة متوزعةً على البلاط المشمشي اللون. فكرتُ برهةً، ثم فضّلت كسب الوقت والنزول إلى الماء.

أمضيتُ ربع ساعةٍ لا مثيل لانتعاشها وسط سماءٍ صافيةٍ ومياهٍ مُلونةٍ بأطياف النباتات والأزهار التي تجلل الحديقة، ثم رأيت الولدين يهرعان فجأةً ممتلئين بالهلع إلى الجدار الذي يرتفع مقدار طابقٍ عن الشارع، ويطيلان النظر إلى تحت. لم أحتمل القلق الذي بدأ يساورني، فخرجتُ من البركة سريعاً وأطللتُ معهما. ما الذي سوف يحدث في شارعٍ كان فارغاً قبل وصولي؟! وهناك، تحت، تماماً تحت الجدار رأيتها. دبابة مركافا ضخمة بحجم ثلاثة طوابق وصلت تواً، وعناصرها يشرعون في إقامة حاجزٍ لاعتراض البشر والسيارات. ويبدو أنهم عثروا على سائق تاكسي كان يتسلَّلُ من هناك صدفةً، فصادروا مفاتيح سيارته، وأوقفوه رافع اليدين ووجهه إلى جدار الفندق العالي.

إذاً، هذا هو ما كان سيكون عليه مصيري لو التقطوني قبلها بقليل.

تسلل إليَّ دفقٌ باردٌ من ثلوجٍ قطبيةٍ بدأت تجول في عظامي وتجمدها لتصبح مثل الحجارة الصلدة، ولم أدرِ ما الذي يُمكنني فعله أمام الخيبة الكبرى. ها إنّ تحفز الفرح السابق يهرب مني، وأتحول إلى كائنٍ يحطمه الإحباط والتوتر والشك في جدوى ما قمتُ به. أأقوم بهذه المخاطرة لكي أُوقع نفسي في فخّ حاجزٍ عسكريٍّ قد يتحول من جوالٍ إلى ثابت! كيف سأرجع إلى بيتي، إذاً، وهؤلاء الجنود مستعدون لتصويب طلقاتهم على أيّ سائرٍ أو عابرٍ للطريق. عدتُ خائبةً إلى البركة،

ومكثتُ في مياهها من جديد، من دون أن أملك القدرة على مواصلة السباحة. بات الماء جليدياً قاسياً لا يحتمل. كنتُ أستعرض كل سيناريوهات الانسحاب والخروج من دون أن أُفلح في تقرير الأصلح بينها، هل أترك سيارتي وأعود مشياً، على رغم أن الطريق بعيدٌ والطقس تموزيٌّ لافح الحرارة، وقد يستغرق المشي وقتاً طويلاً للتداري أمام كل لفتةٍ ومنعطف؟ ثم أين أضع ملابسي المبللة؟ هل أتركها مع موظفي استقبال الفندق على ما في هذا من إحراجٍ وضياعٍ للخصوصية؟ أم أتركها في السيارة، فتجف وتصبح حطباً تحت شمسٍ لاهبة؟! أم أرميها في الشارع وأمشي؟ أم أحملها معي، على رغم أن حقيبة الكتف الملونة قد تلفت أنظار أي دورية عابرة؟

ظللت أُدير في عقلي أفواجاً من الأسئلة والاحتمالات تنطلق متضاربةً، مثل قفير نحلٍ ينفجر بصخبه وشره المستطير إلى أن استنفدتها كلها. وبعد نحو عشرين دقيقةً، وبعد أن صرتُ أشبهَ بلوحٍ من الثلج وأنا مُتسمّرةٌ في المياه من دون نأمةٍ أو حركة، شعرتُ بالصفاء يغمرني، ووجدت الحل يرتسم واضحاً بهيّاً أمامي. إنه الحل الأبسط والهادئ والأكثر عملية.

ألستُ في مكانٍ تابعٍ لفندقٍ يمكن البيات فيه؟ فإن استمروا بالتواجد واعتراض الناس، فلن أكون مُجبرةً على العودة إلى الدار أمام تهديد من في داخل هذه الدبابة الوحش، حتى لو أقاموا حاجزاً دائماً أياماً متعددة، فسوف أبقى عندها في الفندق وأُقيم فيه، ومن ثم أعود إلى البيت حينما يتم رفع التجول.

وهكذا استعاد المكان في عيني ألوانه البهية من جديد.

استطعتُ العودة بمعجزةٍ من دون أن أصطدم بأيٍّ منهم، لأنّ الدبابة العملاقة لم تُطل الوقوف أكثر من ساعتين في ذلك المكان. عدتُ وأنا أحمل روحي على راحتي، كما قال شاعرٌ يوماً. ولم أُحاول بعدها اختراق الحصار والذهاب إلى هناك مرةً أُخرى، سيما بعد أن علمتُ من طبيبٍ صديقٍ عن التهديد الذي وجهه لعائلته الضابط الإسرائيلي صاحب الدبابة التي كانت تجول في حيهم. فقد هددهم بالشروع في التصويب عليهم مباشرة، عندما وجد العائلة مع كامل الأولاد داخل سيارتهم وهم يحاولون الوصول إلى "السوبر ماركت" في آخر شارع بيتهم، للتزوُّد بجملةٍ من المواد الغذائية التي تنقصهم.

حدّق الضابط بهم بعدائيةٍ بعد أن نزل من دبابته التي كان فيها، وسأل بصفاقةٍ كاملةٍ عن سبب خرق التجول حينما كمشهم على باب الـ "سوبر ماركت" الذي كان صاحبه ينام داخله، ثم أجاب على ردهم:

هل تريدون الموت بسبب علبة حليب الأطفال الذي تريدون شراءه؟

وهكذا في عز الحر لم أعد خلال الفترة التي تلت إلى هناك. بتُّ أحلم بالبركة ومائها الأزرق المنعش في السكون القاتل لمنع التجول داخل الجدران القاحلة بعد أن اشتدت قبضتهم على المدنيين، وصاروا يتعرضون لمن أُعتقوا من ربقة منع التجول لساعاتٍ قليلةٍ كل أربعة أيام. كنا نعيش حالة اختناق جماعية بعيداً عن بعضنا البعض. لم يكن فقدان المعارف والأصدقاء والصديقات مسألةً واردةً قبلاً، وهكذا بدأتُ أتساءل كيف يمكن للمرء العيش من دون أصحابٍ أو رِفقة، وإلى أيِّ وقتٍ يمكن أن يُحتمل هذا الشقاء!

حتى سهراتنا الليلية المختلسة في حديقة بيت الجيران توقفت، بسبب الميركافا اللعينة التي كانت الأرض ترتج لدى زحفها على الطلعة المفضية إلى حارتنا العليا وتفضيلها التوقُّف قرب باب دارنا بتحدٍّ واضحٍ للحارة كلها، إلى أن حلّ ذلك اليوم الذي حدث فيه أمرٌ جعل المدينة تضج ولا تستكين. فإن كانوا هم أسياد النهار بسلاحهم، فإننا سنكون أولاد المكان عن حق. وهكذا بدأ اعتصامٌ كبيرٌ للشبان والشابات في ميدان المنارة الصغير، وصار يكبر بعد أن تضاعفت أعداد المنضمين إليه. وعندما قطعوا عنهم الكهرباء، أشعلوا النيران، وبدأوا يقرعون كل ليلةٍ حينما تحل الساعة العاشرة على الأواني المعدنية وكل ما تصل إليه أيديهم احتجاجاً على منع التجول وعلى احتجاز "الختيار" في المقاطعة. شاركهم أهل المدينة كلها في إصدار الأصوات الاحتجاجية التي تتطاير من كل حدبٍ وصوب، خارجةً من الطناجر والمقالي والطبول وصفائح التنك. حتى إن صديقة لي اتصلت هاتفياً لتستشيرني إن كان بإمكانها أن تستخدم "التيفال" لقرعها والضرب عليها، وسألتني إن كان صوته مناسباً من ناحية العلو والقوة، لأنها لا تستخدم غيره في مطبخها، فأفتيت لها بجواز هذا. قلت لها:

"تيفال (Tefal) أو مش تيفال، المهم أنه مصنوع من معدن".

وبدوري، أخرجتُ الطبلَ الأثريَّ الذي أهدانا إياه صديقنا جون ابن بيت جالا، وهو عبارةٌ عن دائرةٍ ضخمةٍ من معدنٍ كبيرةٍ أشبه بصينيةٍ هائلة الحجم يتدلى منها حبلٌ ثخينٌ ثُبِّتَ إليها عبر ثُقبين فيها. كانت له أيضاً يدٌ خشبيةٌ ضخمةٌ تضم على طرفها ما يشبه يد الهاون أو المدق الكبير، ينتج عن الضرب بها على المعدن صوتٌ جهوريٌّ قويٌّ يُشبه ضرب قذيفة منجنيق.

كل مساء تترامى الأصوات في جوانب رام الله والبيرة، وقبل منتصف الليل بقليلٍ أخرج لكي أنضمّ إلى الأصوات المحتجة القادمة من كل مكان. أقف عند باب الدار في حارتنا حاملةً الطبل المعدني العملاق، مرتديةً الحبل الذي يثبته على كتفي، ثم أبدأ قرعه بالمدق الخشبيّ الضخم. آنذاك تتردد عبره أصواتٌ جنونيةٌ تشبه الخرافة، تُبعد شرور الميركافا التي توقفت عن القدوم ليلاً. أحسب أن ذلك الطبل "الأنتيكا" كان مصنوعاً لدعوة فوجٍ من العسكر القدماء إلى الحرب، أو إلى مسيرات الجيوش التقليدية، أو إلى التجمع من أجل وجبات الطعام. المهم أنّ الأصوات المرعبة التي تصدر عن المدينة بتساوقٍ كاملٍ قامت بعمل انسدادٍ لشهية "المركافا" في التنقُّل، فلم نعد نراها في الليل.

كنت واثقةً أنَّ صوت طبلي المميز كان يصل إلى المقاطعة مباشرةً، وأنّ ياسر عرفات كان يستمع إليه شخصياً ضمن جوقة القرع والخبط والتطبيل والدمدمة والقرقعة التي كانت تصل إليه من جميع أنحاء المدينة بالتأكيد.

أنظر الآن حولي والموسيقى تخرج قويةً صاخبةً مصحوبةً بطبولٍ من الميكروفونات التي أطلقت أصوات مطربي الأعراس من عقالها، وأرى الفرق العميقَ في المكان. كانت هناك جدارياتٌ خزفيةٌ للفنان التشكيليّ الراحل عصام، الذي أراد أن يخطَّ سيرة الطبيعة بلوحاته، فرسم عليها جماليات المكان، ونقش عليها أبيات شعرٍ لمحمود درويش، إلى أن اقتلعتها الإدارة الجديدة للفندق.

وقبلاً كانت هنالك ياسمينة ترشُّ أزهارها وعطرها الخلاب وتحيطها كراسيُّ عدةٌ تتحلَّق حول بركةٍ دمشقيةٍ صغيرةٍ تتوسط المدخل السفليّ، مزينةً بالخزف المقدسي الأزرق (شغل الأرمن)، ولها نافورةٌ ترش ماء بارداً مضمخاً برائحة الجنة وسط صحراء القيظ المتواصلة. كانت النافورة قد انتُزعت كذلك، واستُبدلت بهيكلٍ معدنيٍّ بشعٍ يصلح للتحول إلى خيمةٍ للاحتفالات العائلية والمناسبات الخاصة بالشركات. لقد هدموا كل ما كان استعداداً لمرحلة العولمة الجديدة التي يمثلها الفندق الآن.

وها أنا جالسةٌ وسط المدعوين الكثر لأفراح الصيف التي تتراكم شبيهةً ببعضها، متميزةً بتقمص العروسين دور البطولة، يحتكره كلٌّ منهم في شريط سينما قصيرٍ شبيهٍ بما تنتجه بوليوود. وها أنا أتجمد فزعاً لأن طبقاً فضائياً صغيراً كان يومض بضوءٍ أحمر صار يُحلّق فوقنا. وأنا أرتجف خوف أن تكون له علاقةٌ بالطائرة "الزنانة" التي يطلقها الإسرائيليون من دون طيار، لكي تتحرى وتتجسس على كل ما يرتابون به.

ولكن، لماذا يرسلون طائرة تجسسٍ إلى العرس على شكل طبقٍ فضائيٍّ طائر؟ وما الذي جلب هذا الطبق إلى هنا فوق رؤوسنا! دهمني قلقٌ مختلطٌ بالانزعاج، إلى أن انتبهتُ إلى أنه موصول الكترونياً بالكاميرا التي تأخذ صوراً من علٍ للعرس. كان ذلك الطبق يُحلّق ويلتقط صوراً للمدعوين الجالسين على الطاولات، فيما عينه الحمراء التي تتوسطه تومض من دون توقُّفٍ لكي تلتقط كل حركةٍ وكل نأمةٍ تحته.

كان الفرق واضحاً لي الآن فقد كنتُ فيما مضى أكمن في وسط البركة، وأتطلع إلى السماء بحثاً عن الطائرات المدنية التي لا ألطف ولا أجمل منها، وهي تشقّ طريقها عبر صفاءٍ فسيحٍ أزرق للوصول إلى مطارٍ ما، ولا يوجد فوقي الآن إلا طبقٌ فضائيٌّ يطوف ليلاً فوق المدعوين، ليتجسس على نوعية فرحهم وانبساطهم بالعرس أو عدم اكتراثهم أو انبهارهم به.

يا إلهي كم صار كل ما حولي صغيراً! وها هو المشهد قبل سنواتٍ يزداد إلحاحاً على خيالي حين كان هنالك عازف عودٍ يأتي ليلاً، ليعزف المقامات للناس المتحلقين حول البركة الصغيرة المرسومة بالخزف مع نافورتها التي لم تكف يوماً عن الغناء مع سيل الماء النازل منها، أفتقدها الآن كما الجداريات التي حُطمت نهائياً ورُميت من دون أن يسأل عنها أحد. واختفى معها الفضاء الواسع الذي كان يفسح للبركة سماءها وتحوّل إلى فضاءٍ شبيهٍ بـ"المول" التجاري.

وبحسرةٍ عاليةٍ بدأتُ أتذكر العرس الأجمل، الذي حضرته في حياتي حينما كنت في الثانية عشرة، ونحن نسكن قرب سينما "النزهة" في القدس، حينما ذهبنا إلى بيت الجيران لنرقص ونغني على أنغام الدربكة والمسجل القديم صاحب البكرة البنية الضخمة، والذي كان اختراعاً لا بأس به وقتها. كنتُ أرتدي فستاناً أزرق لماعاً من الساتان المطبوع، فصّلته لي الخياطة التي تُفضلها أُمي في العيد السابق، ويحيط تقويرة رقبته الواسعة شريطٌ من دانتيل أبيض يُدعى "ريكامو"، وكنت أرقص بلا توقفٍ ململمةً زهور الفرح التي تلتمع على مُحيّا جميع الحاضرين والحاضرات، الذين

يساهمون بالتصفيق والغناء والهتاف. وكنت بطرف عيني أُدرك أنّ ابن الجيران الوسيم الذي كان يشبه نجوم السينما كان هناك يراقب العرس من بلكونةٍ قريبة، أيام كنت أظن أن الأحلام ستحملنا في قاربٍ سحريٍّ إلى أن نكبر ونقيم عرسنا الخاص، ساهيةً عما يحمله التهجير المباغت من تحطيمٍ لكل الخطط البشرية، بل حتى للخواطر السارة التي قد تُبادر المرء مجاناً ومن دون ثمنٍ باهظ، وغافلة عن أن المصائب لن تتوقف عن التوالد في ظل احتلالٍ مقيتٍ ترافقه هجراتٌ قسرية.

كان عرس القدس ذاك في بيت جيراننا الذين كانوا من أقارب الطبيب المقدسي صديق أبي المعتقل حينها، الذي كان يتطوع لمداواتنا بكل ودٍّ ورحابة صدر، وهو الذي تخصص في علاجي من التهاب اللوز المزمن أيام الطفولة. أذكره خصوصاً وهو يلتقيني لدى عودتي بعد غيبةٍ طويلةٍ عن البلاد، بعد أن صار شعره مجللاً بالشيب، وهو يخبرني أن وجهي شاحبٌ أكثر من العادة، وأنّ عليّ تناول المزيد من حبوب الحديد، كي لا أُعاني من فقر الدم الذي كان يُصيبني أيام الصغر بسبب كُرهي تناول اللحوم.

رحل ذلك الطبيب بعد أن أقعده الكبر وهو يرى مدينته التي أحب تذوي في الحصار المضروب على أهلها أمام عينيه، لكنه استمر قبلها في محادثتي باستمرارٍ على الهاتف، بسبب الإغلاق المضروب على القدس وصعوبة الوصول لزيارته أو زيارة الأقارب هناك.

خسرتُ مدينة كاملة يمكن لها أن تكون وطناً لجميع العالم، فهل أزعل لأن البركة هنا رُدمت واستُبدلت بحفرةٍ مستطيلةٍ ضحلةٍ لا تصلح إلا لعرض أكاليل الأعراس التي تُقام حولها من أجل مبارزات التظاهر العام؟

دالية الخليل

كأنه كان عنقوداً من ذهب. هكذا رأيتُه عندما وصلتُ إليهما.

قبلها لم أستطع الوصول إلى بيتهما لكي أتذوّقَ عنب الموسم من داليتهم. وهما -خالتي وزوجها- حفظاه لي أشهراً طويلةً، إلى أن استطعتُ تذوقه وقد صغرت حباته وصارت شبه جافة، لكنها ما زالت تحتفظ بذلك النسغ المكثف الذي يُحوّل طعم الزمن بداخله إلى عنقودٍ من العسل الصافي. وضعتُهُ في صحنٍ صغيرٍ وقمتُ بتصويره، وأظهرت التماع شعاع من الضوء كان ينصب عليه. ذكّرني هذا بالأواني الخزفية اليابانية التي يلأمونها عندما تنكسر بسائل الذهب، ويُسمُّونها "كنتسوجي"، كي يؤكدوا القيمة العالية لما يُكسر، ولِمَ لا نستغني عنه ونحافظ عليه ملتئماً بحبال القلب؟

ومَن لا يحب العنب؟

ستة أشهر وعنقود العنب ينتظرني. ظل شهرين على الدالية داخل كيسٍ ورقيٍّ بلونٍ بنيٍّ يستخدمه أصحاب عرائش الدوالي لحماية العناقيد من الحشرات والطيور، ثم قضى الوقت الباقي في ثلاجة المطبخ عند خالتي أُم بسام، التي خافت أن يجفّ قبل أن أتمكّن من تذوق عنب تلك السنة من كروم بيتها وعمي أبي بسام في حلحول، فقامت بلفه داخل محرمةٍ ورقيةٍ ناعمةٍ تحفظ له يناعته.

في تلك الأثناء، كانت حلحول التي تقع على مدخل الخليل محتلةً من الجيش تحت حجة البحث عن مستوطنين مختطَفين، وبهذا عجز أفراد العائلة في القدس عن الوصول إلى بيتهما الحجريّ الذي يرقد على ربوةٍ عالية. كان الجميع يتنافس على زيارتهما صيفاً للحصول على حصةٍ من العنب الفاخر الذي رعاه أبو بسام طيلة العام، كي تتدلى قطوفه شهيةً وضاءةً على العرائش. أم بسام وأبو بسام لم يوفرا شيئاً في موسم العنب المميز، فقد كانا يعبئان الصناديق تلو الصناديق،

ويحفظانها لمن لا يستطيعون الوصول إلى الخليل للحصول على حصصهم الصيفية. عنب من جميع الأصناف والأشكال: حلواني، أبيض ومستطيل الحبة أو رقيق القشرة وقليل السكر الزيني، نبيذي، مراوي، والنوع الآخر الذي يفوح بطعمٍ معطرٍ في الفم.. المسكاوي.. وما إليه من أنواع تتعدد. عنب بكل الألوان يتدلى عناقيد مثل الكواكب الدرية. بصعوبةٍ بالغة، تمكّن أهل القدس من القيام بإطلالةٍ خاطفة، وظلت الأمور صعبةً عليّ، لأن القيود على أهل الضفة الغربية أشد وأقسى.

أصابني النكد صباح ذلك اليوم، الذي لمحت فيه على الروزنامة تعانق الرقمين واحد وثلاثة. يدهمني في العادة قلقٌ وعدم ارتياح كلما رأيت هذا الرقم المكون من خانتين، وأبدأ حينها في مكافحة مشاعر النحس كي أستطيع نسيان معتقداتي غير الواقعية حوله.

كان الوقت أواخر الخريف، والشمس قوية في الخارج، كأن البقع الشمسية التي تتوهج فيها تشهد أوج احتدامها كي تصدّ شحوب الشتاء المقبل. وكنت قد وضعت إبريق الشاي كي تغلي أعشاب الميرامية على النار قبل أن أُضيف ملعقة الشاي وأُطفئها. سرحت حينها في روعة المشي تحت جاكيتي الدافئ، على رغم الصقيع المحيط، لأنّ البردُ يحلُّ قوياً في مناطق الظل التي لا تصلها أشعة الشمس. رن هاتفي المتنقل على غير توقُّع، وظهر اسم خالتي أم بسام على الشاشة، ما أشار إلى أن هناك حالةً طارئة، لأنها لا تتصل على الموبايل إلا إذا كان الأمر ملحاً. فاجأتني قبل أن نتبادل آخر الأنباء حول ما يجري من تفتيشٍ وتمشيطٍ للجيش في منطقة بيتهم. قالت:

تعالي وخذي محشي اللفت الذي سأطبخه غداً.

باغتتني.

بدا لي أنّ خالتي التي تبالغ في الحرص عليَّ تجاه التنقل في الأيام الاعتيادية غافلةٌ تماماً عن أخطار الطريق وأهواله، وسط وضع الطوارئ الحالي بعد حملات البحث عن ثلاثة مخطوفين في منطقتها. هل تريدني خالتي أن أذهب بشكلٍ اعتياديٍّ لكي أتناول الطبخة الخليلية المفضلة عندي في بيتها، حبات اللفت تلك التي تشبه الجذور المستديرة وقد حُشيت بالرز وغُمرت بعصير البندورة والسماق أو التمر هندي؟!

لكنها أكملت:

تعالي وخذي الأكل معك إلى بيتك لو كنت متعجلة. وبعدها قد تريني، وقد لا تريني أبداً.

يا ساتر!

وَل! ماذا حدث يا خالتي؟ أنت في منزلة أُمي، ومن لي يقوم مقامها غيرك، فكيف تُريدين أن أصل إليك والطريق شبه ممنوعٍ ومغلقٌ بالحواجز الخطرة كما تعلمين؟

أخبرتني أنها تحس بأنها وصلت إلى أرذل العمر، وأنّ التعب صار لا يفارقها. أتعب من التعب نفسه! حاولت الاستفسار، فقالت إنها تحس بدوخةٍ رهيبة. سألتها عن الالتهاب الحاد الذي كان يدهمها بين الحين والآخر. فأخبرتني عن تناولها ثلاثة أنواع من المضادات الحيوية التي أحضرها زوجها من الصيدلية. روحي إلى طبيب يا خالتي. لا، لا يمكن، ليس لديَّ ابنة كي تأخذني. للمرة الأُولى في التاريخ تبدي خالتي لومها للقدر، لأنها لم تُرزَق إلا بأولادٍ غائبين سافروا جميعاً للعمل في الخارج.

للمرة الأولى منذ عرفتها، تُبدي خالتي أشواقها إلى ابنةٍ فتاة، وهي التي ولّدت نساء المدينة كلهن كمساعدةٍ طبيةٍ ومتخصصةٍ في الولادة، ورُزقت بالصبيان وحدهم في مدينةٍ لا تُمجد سواهم. سألتُها عن قريباتها اللواتي

يساعدنها في حالة المرض، فقالت إنها لم تخبرهنّ أصلاً أنها مريضة، لأن طرق حلحول مقطوعة عن الخليل. ولذا فهن لا يعلمن أنها بهذه الحالة البائسة.

غداً، قالت، الخميس غداً أو الجمعة تأتين.

سألتُها برجاء وأنا أُخيرّها:

السبت أفضل لأن ازدحام الطرقات يشتد يوم الخميس، والاشتباكات تكون يوم الجمعة في العادة بين الشبان والجيش.

قالت مثل معلمٍ يحاسب تلميذه:

تعالي غداً، الخميس، سأطبخ محشي اللفت.

كانت تعلم أنه طبقي الفريد والمفضل، فقلت لها محاولةً أن أكسب لها وقتاً إضافيّاً في الحياة بعد أن هددتني بالإمحاء من الكون، ما أصابني بذعرٍ شديدٍ خوفاً عليها:

لا تطبخي غداً، لأن عليك الذهاب إلى الطبيب، وقد أعجز عن الوصول إليك إن كان الطريق مُغلقاً بالحواجز، ولا بعد غد، وانتظريني السبت، فهو عطلتهم الأسبوعية التي تقلص من وجودهم في الشوارع لكبح تحركاتنا.

أصررتُ على موقفي قائلة:

الخميس لا. تتكاثر دورياتهم لأنهم يعرفون أنّ الطرق تعج بالموظفين العائدين إلى بيوتهم في نهاية الأسبوع. كما أنّ الطريق بعيد، واسمه أصلاً "وادي النار" لصعوبة منعرجاته والتفافاته الشديدة.

قالت وهي تساومني:

ولكن السبت منخفض جوي.

قلت لها:

المشكلة أن أجد سائقاً يا خالتي، وليس الطقس. الجميع يرتعب من الاعتقال أو التقويص عليه هذه الأيام. أنت تعرفين صعوبة الوصول، لكنني سأُحاول كل يومٍ إلى أن أصل.

وعدتُ أفكر فيها طيلة النهار. كيف سأزور هذه المخلوقة رقيقة الحس طيبة القلب والمشاعر؟ كيف سأصل إليها؟ سأتكلم معها غداً لأتأكد من وصولها إلى الطبيب.

غرقتُ في رعبي عليها ونسيت كل ما يتعلق بمحشي اللفت الذي أحبه بسبب حباته العسلية الدافئة التي تغرق في مرقٍ مشمشيٍّ وزعفرانيّ اللون لتعطي طعماً فريداً.

ماذا حدث كي تهددني حبياً بأنها لن تموت إلا بعد أن تطبخ لي طبختي المفضلة للمرة الأخيرة؟ وبدأتُ أستعيد ما أخبرتُها به من أني لن أجد سيارةً للنقل، فردَّت بأنني لن أعدم سيارة "سرفيس" (فورد) تحملني إلى مشارف الخليل وحلحول. وبدأتُ أُحاول كسب الزمن من جديد، فقلت لها إنني في ظروفٍ كهذه لن أستطيع الركوب مع أيّ سائقٍ غريب، لأنه قد يتوقف في منتصف

الطريق إن صادف الحواجز الطيارة، التي توقف الناس ساعاتٍ طويلةً قد يمتد بعضها أكثر من ثماني ساعات، وحينها ما الذي سوف أفعل، إن قرر السائق الرجوع إلى بيته في المنطقة ذاتها؟! وأين أذهب إن اعتذر عن المواصلة وأنزلني في منتصف الطريق الذي لا يقل عن ثمانين أو تسعين كيلومتراً!

لكنها أصرت، وقالت إنه عليّ إيجاد حلٍ ما، أيّ حل!

لا بد أنّ طرق الخليل وعرة وشعثاء بعد عاصفة الحصار العسكري الطويل والبرد القارس هذين. واستدعى ذهني برد الأسبوع الفائت، وقد تجمدنا داخله، وصرنا أشبه بعصيٍّ خشبية داخل قطع مثلجات "الأسكيمو". ما هو الفرق بين الشهور؟ بين أول الشتاء وأواخر الخريف؟ لا شيء. ازدياد الهواء والعواصف. شدة البرد أو خفة الغيوم. لا شيء آخر حين لا أصل إليها. الطرق الالتفافية صارت خطرةً، وأصلاً هي مُحرمةٌ علينا. إنّ حالة الريبة التي تتولّد لدى الجنود تكفي لفعل أيّ جرائم. هذا الصيف لم يصلهما أحد هي وأبو بسام بسبب الحواجز العسكرية الكثيفة على الطرقات. يخاف كل من يذهب منا إلى هناك أن يحتجزه الغزاة. حتى الارتياب بنا وحده يكفي. وهو ما يتيح لأيٍّ كان في جهتهم إطلاق النار على أيّ مدنيٍّ كان في جهتنا، لو سوّلت النفس لواحدٍ منا مجرد الصراخ أو الاحتجاج أمام الجندي "المقدس" في دولته النووية. أليست هذه هي الحالة المثالية لكل من يريد أن يصبح قاتلاً متسلسلاً؟

بعد أيامٍ ذهبت في رحلتي إليها. الشمس قويةٌ وواضحةٌ عكس نهاية الأسبوع الفائت. سيارات المستوطنين تتراكض وتتقلص أعدادها على الطريق. ازدادت أعداد حافلاتهم لأنهم صاروا يميلون إلى التنقُّل الجماعي المؤمن بحراس مسلحين. على الطريق قرب مستعمرة "أفرات" داليةٌ وحيدةٌ تتسلق حنفية ماء ضخمةً ومُسيجةً بشريطٍ فولاذيٍّ خشن، وقد عُلّقت فوقها لافتة كتب عليها "دالية اليهودي". أعرف سماجة الموضوع، لأن صاحب الأرض لم يبع تلك الدالية أبداً، إلا أن المستعمرين حوّطوها بسبب الحنفية الأساسية التي تروي المستوطنة، ولهذا وزيادة في الحيطة كتبوا عليها أنها لهم. يؤلمني اختفاء الشبان من الفضاء الخارجي، فلا يبدو أيُّ واحدٍ على وجه الأرض يقل عمره عن خمسين عاماً أو أكثر. تتناثر هنا وهناك حفنةٌ من بائعي بسطات الخضار المسنين على طريق العروب وبيت أُمّر، عارضين بعض الخضروات الذابلة لقلةٍ من العابرين الذين يشترون منهم في العادة، لكنهم اختفوا الآن. ليس إلا البؤس المدقع.

نمر على محطة البنزين الضخمة التي تقع على المفرق المؤدي إلى مستعمرة كريات عتصيون، التي يرقد وراءها مول ضخم يتجمع في العادة حوله الكثير من المستوطنين، لكنّ كل ما حوله الآن فارغ، وكأنّ روح الرعب مَسّتهم بالخوف على أنفسهم أيضاً.

خالتي لا تفتح الهاتف لنخبرها أنّنا على الطريق إلا بعد رنينه مرتين، لأنها انشغلت بالوقوف مع زوجها الذي كان ينكش أرض الحديقة في الخارج. عندما وصلنا كان يرتدي ثيابه القديمة للعمل في البستان مع طاقيته البيتية. بدا ظهره مُنحنياً للمرة الأولى. كان يقوم برياضة المشي مرتين إلى الجامع المجاور يومياً، إلى أن لم يعد يجرؤ على النزول إلى الشارع وسط تهديد قنابل الغاز التي تُرمى على السكان في أيّ لحظة. أشار إلى صدره وأخبرني:

أنت تعرفين لديّ مشكلة في رئتي. وكان يشير إلى نوبات الأزمة الصدرية التي تصيبه. قال إن الغاز صار يتكاثف حولهم، وهو لا يستطيع الخروج لأنه مهددٌ بأن يُغمى عليه أو يُصاب بطلقة.

وحكى عن الغاز السام الذي ملأ دارهم حين أصر عناصر الجيش على قنص فتى كان يقف فوق سطح الجيران، لأنه شارك في المظاهرات الاحتجاجية. قال إنهما أوشكا على الموت هو وخالتي لكثافة الغاز وانتشاره. ثم قتلوا الشاب،

قال بنبرةٍ حزينة،

أصابوه على السطوح بعد أن أطلقوا عليه الكثير من هذه القنابل، إلى أن قُتل اختناقاً، على رغم أنهم أصابوه برصاصةٍ في الصدر.

بدا كأنّ خالتي تستعيد الألم المرافق لذلك الحزن الشديد الذي خلّفه مقتل الشاب.

وأخيراً.. لم تمُت خالتي.

كانت قد راجعت الطبيب وأعطاها دواء ناجعاً.

وكنتُ قد نلتُ طعامي المفضل وقتها حينما استطعتُ الوصول، لأنني أجّلت الذهاب إليها مراراً وتكراراً وقتها وبعدها، كي أكسب الزمن، وأجعلها تنتظرني كي تنسى قهره، ذلك الزمن الذي خدعنا وجعلنا نفقدها من جديد بعد سنتين من ذلك التاريخ.

قبل أن أُغادر في تلك المرة، حملتُ معي مرطبان المكدوس المعتاد، وعنقود عنبٍ نبيذيّ اللون هو ما استطاعا حفظه لي من شهر آب. ستة أشهر والقطف ينتظرني، وحباته صارت خمريةً مُكثفة. تقزَّم حجمه وانكمش لكثرة الأيام التي حُفظ فيها ومرور الأشهر عليه، ومع هذا لم يفقد ألقه الكريستالي حين وضعتُه في الصحن تحت الشمس التي تخلّلت حباته الوردية العنبية.

وحمّلاني أيضاً أكياس ثمرات الرمان التي أوشكت على أن تجف، لولا أنهما قاما بحفظها في البراد. ثمرات رمانٍ كبيرة ذات لونٍ أحمر لا نظير له، يشبه رسوم التفاح في الحكايا، وقد نلتُ منها النصيب الأكبر في ذلك العام الذي لم يزرهما فيه أحدٌ من أهل الضفة سواي.

وما بين العنب والرمان ذلك العام أُتيح لها أن ترمي وراء ظهرها داعي الموت وأن تطرده، ولو لزمن، بدافع حبها العميق للحياة.

لو سألني أحدٌ عن اللون الذي أُحبه، فسأقول إنه لون الرمان الذي يكبر تحديداً على شجرة دارهم في الخليل، لأنّ لثمار الرمان عندهم ترددات لونيةً ونغماتٍ بصريةً ترسم فرادتها والتماعاتها الخاصة، وأنا التي كنتُ أحسبُ أنّ للرمان لوناً واحداً، اكتشفت بيقينٍ كاملٍ أنني لا أعرف شيئاً. فألوان الثمار والفاكهة لغةٌ لها أحرفها وإيقاعاتها وطبقاتها الصوتية والمرئية وغير المرئية، ولكلّ لونٍ موسيقى وتردادٌ خاصّان وإيقاعٌ خالصٌ يختصُّ بكلّ ثمرةٍ أو شجرةٍ أو حبة زيتون.

أيام الزيتون والرمان

قبل ذلك الاجتياح الذي غيّر حياة المدينة ذهبنا مع طاقم التصوير، واصطحبنا معنا عاملةً في المكتب الصحافي تُدعى يسرى إلى مدخل رام الله الشمالي، كي نصورها مع زيتوناتها في أرضها. هي أرملة وحيدة لم تنجب وتعتمد كلياً في تموينها على قطاف الأرض. كان ذلك المشهد الأول من الفيلم، وكان مدير التصوير البارع قد حضر من غزة إلى رام الله مع مساعده، عندما كان التنقل بين المدينتين غير ممنوعٍ كما هو الآن. نقف هناك مقابل أرض يسرى الفلاحة، التي صودرت عملياً منذ سنوات الاحتلال الأُولى بفعل الأمر الواقع من دون إعلامها، لكي ندخل إليها، إلا أن مدير التصوير لا يقبل القدوم معنا إلى هناك. أرجوه أن يتحرك، فيخبرني بأنه متأكدٌ من أنّ الجنود سيخرجون إلينا من بنايتهم القريبة التي كانت مستشفى للجيش الأردني سابقاً، وحولّها الاحتلال إلى مركز قيادته العسكرية في الضفة الغربية، وسوف يقومون بكسر كاميرته الوحيدة. أُعاود رجائي، فيخبرني بحزمٍ بأنه لن يذهب مهما حدث.

إصراره كان افتتاحاً قاسياً وكئيباً للفيلم. أُطالبه بأن يصورنا فقط عندما ندخل إلى الأرض وعندما نخرج منها على الأقل، فيكمن مع مساعده في خندقٍ صغيرٍ تُرك لغرض من أغراض البناء أمام البيت الوحيد المواجه لقطعة الأرض هذه، الذي يقع مقابل مكاتبهم العسكرية للمناطق المحتلة. كانت الدجاجات توقوق حولنا، والأطفال يتجمعون مع أمهاتهم في فناء ذلك البيت الوحيد المواجه للأرض الحرام.

قالت يسرى إن أرضها ستظل لها حتى لو بعد ألف عام، هي التي تعيش وحيدةً بعد موت زوجها، ولا تجد من يتجرأ سواي على مرافقتها للدخول إلى الأرض. كانت تريد أن تقطف زيتونها الذي حُرمت منه في مواسم متعددة. ما زلتُ أذكر كيف أتت تزورني في إحدى المرات خلال

خريفٍ سابق، وسكبت في مطبخي حمولة سطلٍ كبيرٍ من حبات الزيتون الخضراء الكبيرة التي لم أجد مثيلاً لنكهتها في حياتي.

وبثوبها الفلاحي المطرز وقامتها السامقة ووجهها المشقوق مثل سنديانةٍ عجوز، قالت لي: سندخل، وسأقطف الزيتونات. أيّدتها وأعدنا الإلحاح على مدير التصوير صديقنا، كي يتبعنا بالكاميرا، لكنه امتنع من جديد. قلتُ له محاولةً إقناعه كي يبدأ التصوير إنني سأتحمّل المسؤولية كاملةً، وأُناورهم بالكلام والمحاججة في حالة ظهورهم وقدومهم إلينا. ووعدته بأنني سوف أرفع صوتي عليهم حتى أُعطيه الوقت لكي ينسحب بكاميرته فيما لو أتوا لمحاسبتنا. ضحك مني ومن سذاجتي كما قال، وأخبرني أنهم سوف ينتقمون من كاميرته السينمائية الثمينة، وقد يكسرونها أمام عينيه.. ولكن هيهات. دخلنا إلى الأرض طبعاً، هي وأنا. تجنبنا الطريق الممهد ومشينا وسط الشوك البري والمرار الشائك وقطع الصخور المتداخلة مع نبتات لم تشذبها يد منذ عصور طويلة. من شجرة زيتونٍ إلى أُخرى كانت تنحني على الأرض وتندب وهي تلتقط غصناً جافاً وتخبرني:

لقطوه. شوفي هذا كصف (قصف).

أُواسيها وأُذكرها بأن الموسم كان شحيحاً، لكنها تلتقط بقايا قليلةً من الزيتونات من بعض الشجرات، وتعيد إطلاعي على الفروع الجافة والمتخلفة عن عمليات التقطيف. تعدد وتلطم بعباراتها كأنها تلطم وجهها، وتقول:

إجُوا ولقطوه.

كان غرامها في الحياة أرضها. تدللها وتتعهدها بالحراثة والعناية، وتتسلل إلى حقلها حين تستطيع الحصول على تصريح، أو بمجرد النية وتوافر العناية الإلهية التي قد ترسل لها صديقةً مثلي مستعدةً لمرافقتها للدخول خلسةً إلى الأرض.

لم أعرف إن كانت كاميراتهم قد اكتشفت وجودنا، إلا أنّ المهم أننا لم نجد ثمرات الزيتون. كما أننا لم نفُز بصورٍ تُساهم في رفد بنية الفيلم، لأنّ المسافة التي كانت تلتقط فيها العدسة صورنا كانت بعيدةً جداً، وقد حجبتنا الشجرات فلم نظهر بعد أن دخلنا.

لم تُفدنا لقطات الدخول إلى الأرض والخروج منها، لأن المادة ظلت غير كافية. ظلت الصور التي تحاول اظهار أرض يسرى وزيتوناتها ناقصةً. لا يعرفها أحد، ولن يعرفها أحد حتى حين تمت مصادرة الأرض رسمياً عبر بلاغٍ معلنٍ هذا العام، وكانت قبلها مصادرةً حسب قانون الأمر الواقع. وحين يرى العابرون قرب حاجز "الدي. سي. أُو" سيارات كتائب الجنود ومهاجع الدبابات التي تحتل مساحة كبيرة من الأرض جرفت معظم أشجارها من اللوز والتين والبرقوق والزيتون، فمن سيعرف أنها أرض يسرى ومسرى أحلامها في الحياة.

بكت بلا دموعٍ عندما رجعنا، وامتنعت عن الكلام والتعليق كمن فقد عزيزاً. انطوى جسدها تحت وطأة فشلنا في تلقيط الزيتون وعدم أخذ صور لها هناك.

بعد تلك اللقطة الخرساء الأُولى التي لم يبدأ بها الفيلم. بدا أنّ طرفاً من الحزن صار موشكاً على الانتشار في المشاهد المقبلة، مثل مشحةٍ من الألوان المائية الشفافة التي يضعها رسّامٌ يابانيٌّ على رسمته "المينياتور"، فتنتشر إلى جميع أنحاء اللوحة.

كان ذلك لون الحزن حينها!

ذهبي شفاف يميل إلى البلوري، ويتأجج اصفراراً فوسفورياً مثلما ينداح الزيت وقت عصره من حبات الزيتون في الجرن المعدني داخل المعصرة. ينزاح بعدها في دوائر تُخلّف وراءها أقواساً من سائلٍ بنيٍّ يُشبه أديم الأرض.

كنت أعرف تماماً أنها تفتقد القعود على التراب الدافئ وحرارته الخافتة التي تُعالج الاكتئاب وتجلب البهجة أيام جني الثمر. ذلك السائل السحري الذي يشفي العليل، ويبرئ السقيم، وتُدهن به جلود الأطفال في الأربعين يوماً الأولى لكي تقوى على مواجهة الشدائد.

لكنّ لون الحزن يختلف حينما يكون المرء مطروداً من وطنه، بل ويصير مائلاً إلى الأصفر المختلط بالرمادي الداكن، هذا ما اكتشفه صديقنا الأُستاذ رفيق نور الدين أيضاً.

كان رفيق قضى سنواتٍ طويلةً من حياته في الخارج عاملاً في قنصليةٍ ما لبثت أن تحولت إلى سفارة، بعدما رجع جزء من الفلسطينيين إلى الضفة الغربية وغزة إثر اتفاق "أوسلو" الشهير.

لم تكن حياته هَيِّنةً أبداً بعد ما قضى أخوه الأكبر في عمليةٍ إرهابيةٍ لمنشقٍّ فلسطينيٍّ حدثت في أوروبا ضد أخيه الذي كان يتولى منصباً دبلوماسياً عالياً. كانت عائلتهم من اللاجئين الذين وصلوا إلى مخيمات سورية بعد النكبة. وفي نهاية الخمسينيات ربما، أو منتصف الستينيات، تركها الشابان وغادرا بعد أن حصلا على مِنَحٍ للدراسة في أُوروبا مقابل التنازل عن كرت المؤن الخاص بالعائلة، وهي بطاقات الإغاثة الصادرة عن وكالة الغوث الدولية. كان أخوه مغرماً بجمع الملصقات التي تحمل رواية فلسطين التاريخية وترسم تفاصيلها، وكان شغوفاً بجمع الطوابع البريدية أيضاً. كان أخوه، كذلك، بمثابة الوالد والعائلة والعم والصديق الذي لم يهن عليه رفيق فقدانه، لذا كرَّس حياته الخاصة لمواصلة جمع هذه الصور والملصقات التي كان الكثيرون يطلبونها لعرضها في مناسباتٍ وطنيةٍ متعددة.

سنواتٌ طويلةٌ عاش فيها رفيق نور الدين وحيداً منعزلاً. سنواتٌ وأشهرٌ وأيامٌ مرت عليه طويلةً وباردةً أحياناً، وساخنةً ومُسرعةً في أحيانٍ أُخرى. عمل خلالها ما أمكنه كي يستعيد ذكرى طفولته في تلك البلاد الأُولى التي أتى منها من دون أن يُسمح له بالعودة إليها.

ثم فجأةً، وبعد أن تقاعد وأصدر بعض الكتب التاريخية، دعاه مؤتمرٌ مُتخصصٌ في البلاد، ووجّه إليه دعوةً للحضور إلى ذلك الوطن الذي لم يره في حياته، هو الذي لا يملك وثيقة سفرٍ تُخوله زيارة ذلك الجزء الفلسطيني الذي عاد إليه المئات والآلاف. هكذا سنحت فرصة العمر، وصار بإمكانه أن يزور مسقط رأسه الأول حيفا.

مرَّ بمراسيم الدخول المعتادة، وعبر عن جسرٍ يجثم عليه جنودٌ ورجال أمن وكاشفات ألغام وبارود ومدققو أختام يتطلعون إلى عيني المرء بمنتهى الوقاحة، داعين إياه إلى خلع نظاراته الطبية في كل منعطفٍ وزاويةٍ على الجسر، ليتأكدوا من شخصيته، هم الذين يماثلون السراق مع أصحاب البيت.

كان مغرماً بجمع بطاقات المعايدة التي كانت تحمل صوراً لمناظر البلاد قبل أن يتم احتلالها بالكامل، وتغيير هويتها إلى أُخرى مفروضةٍ قسراً بلا لونٍ أو طعمٍ أو رائحة. قام بمغامراتٍ كثيرةٍ للعثور على هذه البطاقات القديمة المصفرة بحجم الكف في الأسواق الأُسبوعية التي تُقام في أوروبا في يوم العطلة، وتُدعى في العادة سوق البرغوث، حيثما أُتيح له الوصول والبحث. وعندما كان

يحدث أن يجد واحدةً تحمل صورةً لحيفا، مسقط رأسه، كان يحتفظ بها كمن وجد لؤلؤةً سوداء يتيمة لا نظير لها.

هكذا أراد قبل كل شيءٍ أن يذهب إلى مدينته، إلى مسقط رأسه الذي قضى العمر يحلم بالوصول إليه بعد أن عاش وحيداً ممنوعاً من الدخول إلى بيته الأصلي، وإلى حارته وأهله وجيرانه الذين عرفهم في الطفولة.

إلى حيفا، إذاً.

آخ، حيفا، جمالها يوجع القلب. جلال الشاطئ الكبير المنفسح الذي يصبغ البيوت بظلاله الزرقاء، فتصبح مندغمةً مع هيبة الجبال العالية التي تحيط بالكرمل شمالاً. شجرات الصنوبر التي تملأ رأس الكرمل بشَعرٍ أخضر يتفرق، أحياناً، ويتكاثف في أماكن أُخرى. لون السماء البنفسجيّ المتدرج إلى الأبيض ومن ثم الوردي. البساتين والبيارات على جانبي الطريق، وانفساح النور والمدى شمالاً، وكأن المرء لو أكمل طريقه إلى هناك وصل إلى جنةٍ أرضيةٍ خفية.

كان الأُستاذ الفلسطيني فادي، ابن البلد والمتخصص في تاريخ الأمكنة، ينتظره هناك كي يُطلعه على تفاصيل المدينة. أراد رفيق إيجاد أيٍّ كان من عائلته الكبرى، وهكذا أخرج الأستاذ الذي استعد لاستقباله كشوفاً بأسماء من تبقّى هناك من أفراد العائلة. فكانا يجريان مكالمةً هاتفية، ومن ثم يذهبان إلى زيارة صاحب أو صاحبة الهاتف الذي يستجيب لهما. يمران في زيارةٍ قصيرةٍ لكل من يجدانه، ويشربان فنجاني قهوة، وينتثر الحديث بينهما منساباً تختلط الأشواق فيه مع بقايا صحون الفاكهة وحبات الشكولاته، إلى أن أتت تلك المكالمة وحدها من دون إنذار.

كانت مكالمة تليفونية من سيدة إلى مرافقه الأستاذ فادي ابن حيفا. طلبت أن تلتقي به وهي تجهش ببكاءٍ مريرٍ فور أن سمعت صوته بعد أن بدأ حديثه معها. أصرت السيدة على أن تطلب من الأُستاذ فادي أن يأتي بقريبها إليها. كانت رفيقة طفولته، وكانا يلعبان معاً. كانت ابنة خاله، وكانت هي ذاتها أيام طفولته بحالها. هما مَن كانا يمتلكان تاريخ طفولة الحارة معاً.

كان وجهه قد تغيّر عما كان بالتأكيد، ونزلت بعض أسنانه في الجانب الأيسر من وجهه. كان قد ولّى مسناً الآن، لكنها تذكرته، ووصفته هاتفياً للأُستاذ فادي كما كان في الزمن القديم.

ذهب إليها. عرفته. عرفها، على رغم أنها كبرت وتغيرت وصارت ترتدي ملابس طويلة مثل "الحجّات"، وتضع غطاء رأس أبيض شفافاً تتدلى بداخله جدائلها الشائبة. فلا يمكن للمرء أن ينسى رفاق الطفولة الذين لعب أول ألعابه في الحياة معهم! كان عمره سبع سنوات تقريباً حينما غادر.

لا ينسى النط بالحبلة، وخمس حجار، والإكس..

كان دوماً مع قريبته بنت الجيران، وكانا كلما استطاعا العثور على حبات الرمان يفرطانها، على رغم تعنيفات الكبار، لأنهما يلوثان ثيابهما ويلطخان وجهيهما بعصيره الذي يتراشق بشكلٍ فوضويٍّ من دون ترتيب.

كانت زيارته الآن إليها في موسم الرمان مصادفة.

وكانت قد حضَّرت له رمانةً كي يفرطانها معاً، لأن الموسم لم يكن قد انتهى بعد.

يا إلهي على الرمان!

يا رب الرمان الأحمر من الخارج، المتلألئ جواهر من الداخل.

وألقى بتعويذة الطفولة معها، وهما يضحكان بعد أن صارا في سلك الشُّياب.

"طاسة طرنطاسة في البحر غطاسة،

من جوة لولو، ومن برة نحاسة".

يا ربي، حبة رمان من حيفا. حباتها بعدد سنوات الشتات.

كانت السيدة قد حضّرت حبة رمان كبيرة، لها قشرة لم يشاهد مثيلاً لبهجة الاحمرار عليها. فرطت له ثمار الرمان وقُربها حفيدها الصغير يلعب على السجادة الموضوعة فوق بلاطاتٍ خزفيةٍ صغيرة. قدمته له في صحنٍ قيشانيٍّ قديمٍ واسع، ورشت عليه ماء الورد.

رمان! رمان! كان ذلك اسم حيفا الذي سيحتفظ به طويلاً في صدره، وبين أضلعه، حتى لو تمكن يوماً من العودة، حتى لو لم يعد مرةً أُخرى.

رمان!

رمان!

حلبة الرقص

"يا ظريف الطول ونازل ع القدس

يا كحيل العين وغاوي باللبس"

من أغنية شعبية "دلعونا".

بغمضة عين كانت جنان هي الفتاة الأُولى التي علمتني الدبكة، وأصابت طالبات المدرسة كلهن بخميرة الولع بالرقص والتراث الشعبي أثواباً وأغاني. صديقتي تلك قامت بتغيير رتابة الأيام لليتامى الذين أُنشئت المدرسة من أجلهم، جالبةً تهيؤاً لسعادةٍ أُخرى يتجلى فيها الرقص والنغم، خصوصاً في موسم الميلاد الذي تحتفل به مدرستنا، مثلما تحتفي به القدس مدينتنا. لا تعرف جنان عظم التأثير الذي قامت به حتى الآن، حين أقنعت مهارتها المتميزة في رقص الدبكة مديرتنا ورأس المدرسة وروحها "الست هند" بإمكانية تعريف السياح وزوار القدس على الفنون الشعبية الفلسطينية في الأيام العشرة الأخيرة في نهاية كل عام. وهكذا قامت المديرة بإنشاء ما يشبه موسماً خاصاً بالمدرسة، يشمل كل ما يمكن عرضه من هذا التراث. كنت قد سألت جنان قبل وقتٍ ليس ببعيدٍ إن كانت تدري أنّها هي من أشعل فتيل الرقص والدبكة والأنغام! فلم تُجب سريعاً، وكأن إعادة تصورها لتلك الفتاة التي صارت جدة الآن جعلها تفاجَأ بالسؤال، فمن الذي يستطيع نسب الفضل لنفسه في سعادةٍ مثل تلك التي مضت، وأفراحٍ توزعت علينا جميعاً بالعدل والقسطاس مثل فتات خبزٍ يُنثر للطيور؟!

بعد أربعين عاماً قالت إنها كانت مَن صنَع الرقصات، وإنها كانت "الدبيكة" و"اللويّحة" و"صاحبة المهاهاة". وذكرت ما كان يعرفه الجميع فرداً فرداً، وكان بدَهياً ومفروغاً منه في تلك

الأيام، لكنّ أحداً لم يذكره أو يسمِّه حينها، وهي بدورها لم تتباهَ أو تذكر هذا الدور أبداً.

قبل هذا كان لدينا في المدرسة نادٍ صغيرٌ يقع مقابل المكتبة، يضمُّ ألعاباً مثل "الحية والثعبان"، وعيداناً رفيعة لاستكشاف مهارات توازن اليدين، وألعاباً صغيرةً أُخرى. وكان أهم ما احتوى عليه هو "الجرامفون" وبضع أسطواناتٍ أجنبيةٍ استخدمَتها إيلين التلحمية لتعليمي الرقص بأنواعه عليها، لأنها لم تجد بين الطالبات مَن تحتمل المكوث أكثر من ساعتين في النادي عداي، إذ صرتُ بارعةً في رقصاتٍ عدة، بينها "الروك" و"التشاشا". استفادت إيلين أيضاً من صغر حجمي لتستخدمني مُرافقةً في قفزات "الروك آند رول" حين تصفق لي، فأطير في قفزةٍ بهلوانية، وأحط تحت ساعدها من ناحية جنبها الأيمن أولاً، ثم على الأيسر ثانياً، وبذا أُتيح لكلتينا كسب كأس التفوق في إجادة الرقص بين الطالبات. بدا كأنّ جنان نسيت كل هذا لدى محادثتنا الأخيرة، ولم تعد تذكر سوى الفرح المتبقي في أرواحنا مثل قطراتٍ من عسل البرتقال المستعصية على الذوبان في نهر الزمن. ففي ذلك الحين لم نعرف سوى أفراحٍ تتجدد كلما أتى موسم عيد الميلاد، وقمنا بنفض الغبار عن الأثواب الشعبية الأصلية للقرى والمدن الفلسطينية. حينها كانت مديرة المدرسة ومؤسستها تشير لنا بيدها قائلة:

يَلَّا، ادبكن يا بنات.

ليست الدبكة وحدها، وإنما الغناء والميجَنا والدلعونا والدربكة والنايات التي كانت تُدعى "الشبابات". تنسكب ليالينا في الأغاني، وننام ونحلم على وقع الأنغام والتصفيق والقفز والطبلة، وعزف الفلوت الذي علمتنا "ست آن" العزف عليه. آن معلمتنا المتطوعة القادمة من ألمانيا ذات العينين الزرقاوين الفاتحتين بلون نبع الماء الجبلي. يأتي السياح والزوار، ويحضرون الأفراح وقد اشتعلت والمهاهاة نازلة مثل قطوف الورد، والبنات يدبكن بجميع أحاسيسهنّ "من قلبٍ ورب". يشاهدون قصة المسيح في درب الآلام، ورحلة مريم عليها السلام التي تجسدها لطيفة الجميلة بثوبها الأبيض الكتانيّ السابغ وغطاء رأسها القطنيّ المطرز بالشراشيب القطنية الحريرية. يعرفون أنّ المسيح فلسطيني، وأنّ تيجان الشوك وُضعت على جبينه ورأسه من دون مراعاةٍ لبراءته. يقرأون أسماء المدن الفلسطينية التي وضعت إشاراتها على الحائط خلال الرحلة الرمزية، ويعرفون مدى انتمائنا لما جرى على هذه الأرض. وحينما يذهبون مُشيَّعين بنغمات الشبابة والفلوت، يتركون قلوبهم وراءهم تحنّ إلى مَدرسةٍ مقدسيةٍ يسكنها يتامى حروب الاحتلال الجائرة.

كانت جنان وسماء صديقتيَّ الأُولَيَيْن وما زالتا، وكنا نجد طريقةً للتواصل حتى بعد مرور السنوات الطويلة على البعاد. ولا يمضي وقتٌ حتى الآن لا نفتش فيه عن بعضنا لنتلاقى، على رغم أنَّ كلاً منا تسكن في مكانٍ بعيدٍ نسبياً عن الأُخرى. جلبت معها جنان إلى المدرسة قصصاً غنيةً وحزينةً عن الريف الفلسطينيّ، فأدخلت نفَسَاً جديداً إلى حياتنا، نحن ثلة من أطفال المدن الذين وجدنا أنفسنا يوماً في المدرسة الداخلية من دون توقعٍ أو إنذار، فقط لأن ظروف سفرٍ أو صعوباتٍ ماليةً دفعت الأهل للتفتيش لنا عن مأوى يُمكن لهم تحمُّل مصاريفه. وبسبب افتقاد دفء العائلة والبيت صرنا في المدرسة عائلاتٍ لبعضنا، ورسمنا أيامنا بكمشاتٍ من أوراق الشجر التي تسابقنا على جمعها لكي نُجففها ونحتفظ بها إلى جانب دفاتر الرسم المليئة بزهراتٍ "لا تَنساني" بلونٍ أصفر مختلطٍ بتدرُّجات البنفسجي، تتناثر خطوطها في صفحاتنا، وفي الحوض الأساس تحت البناء الرئيس حين تصطحبنا معلمة الرسم جميلة الوجه رقيقة القدّ سعاد كي نرسم ونرسم بلا توقف. كحلت جنان أيامي بقصص أُمّها الراحلة التي بنت البيت "العقد" بيديها، وحملت الحجارة الضخمة في كفاحها مع والدها قبل أن تموت تاركةً ابنتها صغيرةً ويتيمة. وروت لي قصص أفراد عائلتها الباقين، بحيث صرت أُتابعهم معها عبر الكلام والحواديت.

خلال احتفالات الكريسماس كنا نتنافس على الأثواب الفلاحية التي سنلبسها، وأيها الأجمل والأكثر تطريزاً وألواناً، وعلى إجادة الحركات الراقصة، وعلى تذكُّر الأغاني والمهاهاة بالطريقة ذاتها التي كنا نتنفس فيها الفرح الحر بعد أن انحبس طويلاً في صدورنا الراضخة للنظام الروتيني القاسي، ولأعباء الدراسة المستمرة، يحرضنا وجود أُناسٍ كثيرين سيَقدُمون وهم يحملون إلينا العالم كله في لهجاتهم ورواياتهم. كانت أيامنا الاعتيادية مليئَة بملل التكرار، تكرار العادات والبرامج والطقوس والواجبات. وكانت تَجُول بيننا خرافةٌ بأنّ كل من يدخل المدرسة سيُصاب باليتم لأنها مدرسة للأيتام، ولم أصدق هذا طبعاً، إلى أن عرفتُ بعدها بسنواتٍ قليلةٍ أنّ أُمي مريضة ومن الصعب أن تُشفى.

الفتاة الأُخرى، التي أصابت المدرسة بكل من فيها بجنون الموسيقى اللاتينية، كانت عائشة التي أحضرها والدها من البرازيل، وتركها سنةً كاملة كي تتعلم العربية، كما أخبرنا وهو يشق طريقه ببساطةٍ من باب المدرسة عائداً إلى قارةٍ أُخرى. فتاة لم تزل في الرابعة عشرة، لكنها تبدو شابةً أكبر من عمرها بسنوات. بدت بحجمها الجهم أكبر منا، وهي التي لا تفهم منا أيَّ كلمة، ونحن لا نفهم منها شيئاً لأننا لا نعرف لغتها. كنا نراقبها بشغفٍ وهي تفرش الصابون على وجهها ليلاً،

وتفركه بدقةٍ وصبر، فيما كنا نعمد نحن إلى "شلفقة" الغسل، فنشطف الوجوه كيفما اتفق استعجالاً للهرب من مياه الحمامات الباردة التي لا نحبها. كان لها بشرةٌ بلون الكاكاو وشعرٌ مفلفلٌ طويلٌ يصعب تمشيطه، لكنها تحسن السيطرة عليه وتربطه إلى الخلف على شكل ذنب الحصان بطريقةٍ جميلة.

عاشت ضيفتنا غريبةً وحيدةً بين مئاتٍ من الفتيات اللواتي كُنَّ يتهافتن على العناية بها، إلى أن بدأت تتكلم القليل من الكلمات العربية، وكأنها أرادت أن تُكافئ الجميع على اهتمامهم بها، فشاركت في الحفل السنوي، وقامت معنا بعشرات التمارين على رقصة "الباسادوبلي" التي قدمتها منفردة، وقضت الأيام تتدرب عليها، وخلفها تقف كتيبةٌ من الطالبات الأصغر سناً، كانت تُشكل فريقاً فضولياً يرافقها في خطواتها وتحركاتها. كنا حريصاتٍ دوماً على التواجد برفقتها ورفع أيدينا إلى الأعلى، مثل سربٍ يحاول الطيران ونحن نقلد حركات البجع التي تدل على الشموخ والكبرياء، إلا أننا عجزنا، طبعاً، عن مجاراتها في استخدام الصنوج العاجية ذات اللون الأسود المربوطة إلى كفَّيها عندما كانت تطقطق بها كالطبول الصغيرة. نواصل اللف والدوران في النادي في الطابق السفلي، وكلنا يصرخ "أُوليه" بين فواصل النغم. صممت عائشة لنفسها ملابس كرنفال ملونةً بالأصفر والأحمر والأخضر، ونجحت في أن تجعلنا مهووساتٍ بالترنُّم بالأنغام ورفع الأيدي والقفز بالأرجل لتشكيل نصف دائرةٍ واسعةٍ بين قوس الرِّجل وكشاكش الفستان اللاتيني، الذي يُفترَض بالواحدة منا لبسه فيما لو أُتيح لها رقص "الباسادوبلي" يوماً.

هكذا أضاءت جلساتُنا قاعةَ الطعام المملة مليئة الطاولات بفتات الخبز وبقايا الزنخ المتبقي من ليف المطبخ التي تُمسح بها الأشياء، وتحولت الأغراض الجامدة حولنا إلى أدواتٍ لامعةٍ براقةٍ بعد أن نسينا الفاصوليا الجافة التي نكره أيامنا بسببها، والعدس الجاف الذي يُتعب المعدة حينما يكون قديماً ومتحجراً، ونحن منهمكات بالحديث عن "الباسادوبلي". حتى الممرات الطويلة شاحبة الإضاءة بين غرف النوم ليلاً، التي كنا نتجنب المرور بها لأنها تعج بالجن الذي يحب العتمة (بَسملات)، وتلك الكائنات التي لا تُسمَّى، وليحفظنا الله منها، صارت حلوةً في أعيننا لأننا صرنا نمشي من دون أن نهابها ونحن آتياتٌ غادياتٌ من غرفةٍ إلى غرفةٍ، على رغم الممنوعات العشرة لـ"مس سيتا"، التي يُفترض بنا عدم مخالفتها، فهي صاحبة السلطة الأُولى في المنزل الداخلي. ثم أضحينا مولعات بالموسيقى والأغاني، فصارت الواحدة منا لا تتنقّل إلا وهي ترقص من وراء ظهر مدبرة المنزل "ست سيتا". تلك الموظفة العبقرية التي كانت مسؤولةً عن تزويد المنزل الداخلي

باحتياجاته، وقررَت أن نعيش على البقول حتى تنتهي الأزمة المالية للمدرسة بسبب توقف التبرعات عن الوصول، بما يمكّن المؤسسة من الصمود في تلك السنة. نهرب من "مس سيتا" لنرقص حيثما استطعنا، كي لا تتلبسنا بالتهمة، أو تكتشفنا ونحن نتمايل ونتراقص خارج النادي، المكان الوحيد المرخص لممارسة الرقص والموسيقى، ما يعاكس حالة الانضباط السليم بالدراسة التي ينبغي علينا السير عليها أو وِفقها.

حتى الثلج لم يتورع فيما بعد عن جلب جنون الرقص الهنديّ إلى المدرسة، مثل نافورة مياه صار الجميع يطالب بالاستحمام داخلها لأن بطلَيْ "جنغلي"، أحد الأفلام الشهيرة في الهند، شامي كابور والممثلة الرشيقة التي تتأوه وتقفز وتنط وتتشقلب بكل سهولةٍ خلال وصلات الرقص الطويلة بالساري الحريري اللماع، لم يكن يطيب لهما الغناء والتمايل إلا على الثلوج. وصلنا هذا الحدث الكبير، وغيّر نظرتنا إلى الأفلام، فصرنا نحسبها فردوساً خالصاً مكرساً للسعادة والغناء. وتشكلت حياتنا أحلاماً متواصلةً بالدخول إلى السينما القريبة التي تقع في محيط المدرسة، فبدأنا نرصد الأفلام، ونتعلم منها الرقص وكلمات الأُغنيات أيضاً. وقامت مدرساتنا باصطحابنا على دفعاتٍ كي نشاهد الفيلم الذي ملأته الرقصات الهندية على نثار الثلج في أعالي الجبال، وحكايات الانتقام والثأر التي تريد التفريق بين العاشقين. وبهذا أمكننا، صديقاتي وأنا، التسلل إلى أكثر من عرضٍ بين الأفواج الزاحفة من المدرسة إلى السينما، وتمكّنا من حفظ الأغاني، وتخصصَت كلٌّ واحدةٍ فينا في أُغنية صارت تحفظها جيداً..

وهكذا.. وهكذا.

طبعاً كنا ننتظر حفلات الموسيقى الكلاسيكية التي يُنظمها معهد جوته في قاعة مدرسة "شميدت" الكبرى، ونذهب إليها بملابس المدرسة الرسمية في طابورٍ تجعلني "مس آن" أتقدمه بسبب قصر قامتي، ومعنا باقة وردٍ كبيرةٌ أُكلَّفُ بتقديمها في النهاية إلى قائد الأُوركسترا في نهاية الحفل. تلك الحفلات التي تميزت بانضباطٍ عالٍ زرعت فينا الانغراس فيما لا نعرفه ونتوق إلى تعلُّمه. وهكذا ابتدعت "مس آن" حصصاً جديدةً لتذوُّق موسيقى المؤلفين الألمان الكلاسيكيين. وجعلتنا نعتبر أنّ من يتم اختيارها بين الطالبات لحضور تلك المناسبات هي الأفضل حظاً بين الجميع. ولَربما ارتبط الورد حينها لديّ بالموسيقى على طريقة بافلوف الشهيرة.

هكذا صرنا نُغافل المعلمة المشرفة ونسهر على بلكون الغرفة المقابلة لبناء "الأُورينت هاوس" الجميل، الذي كان مقراً لأفراح المدينة وفرق العزف والحفلات، قبل أن يتحول إلى موقعه السياسي في نهاية الثمانينيات ويُطلق عليه اسم "بيت الشرق". كنا نتظاهر بالنوم، ونكمن تحت الملاءات، ثم نقوم بهدوءٍ شديدٍ ونفتح الأباجور الحديديَّ الطويل والثقيل بحذرٍ بالغ كي لا يسمعنا أحد، ونختبئ هناك على البلكون، نستمع بكل جوارحنا إلى أشكالٍ وألوانٍ من الموسيقى التي تُلوّن الحياة وتجعلها شبيهةً بكريستالٍ يعكس قوس قزحٍ متجدداً، من دون مبالاةٍ بأوقات النوم المفروضة علينا، حتى ذلك اليوم الذي تمَّ فيه القبض علينا مُتلبّساتٍ بالجرم المشهود بعد أن راقبتنا المعلمة المناوبة عدة ليالٍ كي تتأكد من مشروعنا السري الجريء. وهكذا نُقلنا إلى غرفةٍ بعيدةٍ عن الشرفة في الطرف الآخر من الطابق. غرفة بلا شرفة، لكنها تصلح للسهر بسبب بُعدها عن عيون المدرسات والمراقبات أصلاً.

وهكذا أحببتُ المدرسة وسهراتها، على رغم بُغضي السابق للسكن الداخلي، وصرتُ أنتظر بنفاد صبرٍ كاملٍ انتهاء العطلة الصيفية، كي أعود إليها بعد أن صار لديَّ كنزٌ من الحكايات ومجموعاتٌ لانهائيةٌ من الرقصات والأنغام، ولم يعد يضيرني السكن بعيداً عن البيت..

إلى أن أعادتني العائلة إلى البيت من دون توقُّع.

أرض النغم

حدث أن عبَرت رسائل الحب الأول إلى قلبي عبر هذه الأغاني التي كنتُ أغنيها وحدي، ولا يسمعها أحدٌ غيري، اللهم إلا ما كنتُ أجود به في سيارة العائلة من دندناتٍ وأغانٍ طويلة بعد تمنُّعٍ قصيرٍ، بناءً على طلبات المستمعين، وهم، عادةً، أمي وأبي في عصر كان الأهلُ يهتمون فيه بتحسين قدرات أبنائهم وبناتهم بكل الوسائل الممكنة.

وحدث في تلك الأيام الداكنة أن مرضَت أُمي مرضاً خطيراً لم يخطر اسمه ببالي أصلاً، لأن أحداً لم يشخصه أو يذكره، باعتبار أنه لا يمتلك اسماً، وكنا في بيتنا في أريحا، وتحتَّمَ عليها أن تُلازم الفراش، وأن لا تُغادره إلا لوقتٍ قصيرٍ لا يكفي لشيءٍ من شؤون الحياة. وهكذا في عزِّ طفولتي، وقبل أن أصل سنَّ الثانيةَ عشرة، صرتُ ملزَمةً بطبخ وجبة الغَداء لأُسرةٍ كبيرة، علاوةً على تحضير العَشاء والفطور يومياً للعائلة ولمَن يطرأ عليها من الأقارب والأصدقاء الذين كانوا يترددون علينا باستمرار. وكان يتبع هذا تنظيف الآنية الوسخة والترحيب بالضيوف الذين يعودون أُمي ويتمنَّون لها الشفاء والعودة إلى صحتها النضِرة.

كان نهاري ينقضي بعد انتهاء الدوام المدرسي والتخلص من شنطة الكتب الثقيلة، التي تُرهق ظهري في استقبال الزائرين وتوديعهم، وتقديم صحون المكسرات وحزوز البرتقال المقشر مع كؤوس عصير الليمون والخشخاش المكثف الذي علَّمتني أُمي كيفيةَ إعداده.

وفي المساء، عندما أكونُ قد ارتحت من تنظيف آخر وعاء في المجلى وتلميع آنية الطبخ المصنوعة من الألمنيوم، كنت أنصرف إلى متابعة الإذاعات أثناء حلِّ فروضي المدرسية.

لا ريبَ عندي في أنّ يوم الثلاثاء من أول كل شهر كانت ليلتَه الأسعد، وكأنها منحةٌ من السماء؛ فقد كانت أُم كلثوم تغني لجميع الأعمار والأجيال والجنسيات، تاركةً لهم متعة التكهن

بالأغنيات المختارة لتلك الليلة اللامعة.

وكنتُ اتفقت مع أُمي على السماح لي بالسهر المتأخر عندما تغني أُم كلثوم، لأنني كنت ألتزم خلال تلك الساعات بطيّ الملاءات والشراشف وقِطع الثياب هائلة العدد في دورة الغسيل الأسبوعية، التي كنت أقوم بها مستعينةً بالغسالة الكهربائية الضخمة التي تُشبه البرميل، فيما لو لم نجد أحداً من عاملات المساعدة المنزلية.

وهكذا كنتُ أجلس على سريري أمام جبال الثياب الجافة التي تشبه أرغفةً يابسةً تحولت إلى حطبٍ مركومٍ في أكوام، وفوقي على حائط السرير الملتصق بحائط البلكون صورتان بحجم "البوست كارد" داخلَ إطارين بُنيَّين بلون الخشب المحروق علَّقَتْهما أُمي بناءً على رغبتي؛ واحدةٌ لصوفيا لورين ممثلتي المفضلة، وأُخرى لجمال عبد الناصر بطل أحلامنا الوطنية، أيامَها.

كنتُ أصرف شطر الليل الطويل ذاك وأنا أستمع إلى "الست" وكلمات أُغنياتها المؤثرة، معتبرةً نفسي كأنني جالسةٌ بين "السمّيعة" الحضور أُشاركُهم "الطرب" و"الانطراب" خلال عملية طيّ الملابس التي لا تنتهي. أُمسّد قطع الثياب واحدةً واحدة، وأُدللها بالتربيت الخفيف والمسح الرقيق كي تختفيَ تجاعيدها، وتصبحَ مرتَّبةً صالحةً لإعادة تصفيفها داخل الخزانة.

أتذكّر أكوامَ الثياب الهائجة المُشبَعة بلذعات هواء الغَوْر الساخن، التي تحفظ الصَّهَد في ثناياها، حتى لَيظُن المرءُ أنها محضُ حباتِ جُمّيزٍ تُشوى على جذوع شجرةٍ صحراوية. أتذكّر ضِيقي بهذه الملابس الكثيرة؛ لأنها تحتل سريري وأنا واقفةٌ قربَها بقامة الصبيَّة القصيرة، أُمسِّدها وأُعيدُ تدجينها وتشكيلها في مربعاتٍ ومستطيلاتٍ ثابتةٍ تصلح للحمل والاستخدام دون أن تتكسر أو تبدو بشعةً وغيرَ متناسقة. أتذكّر حالةَ الرضا العميق والسعادة التي تُنعش روحي أمام الأنغام التي تلهو بين الملابس المشعثة، وتطير في الفضاء المُنار بـ"لَمبةٍ" صغيرةٍ ذاتِ أجنحةٍ نورانيةٍ تحملني فوق كلِّ ما حولي، وتجعلني كمَن يطوف فوق بساط الريح، خصوصاً حينما أستمعُ إلى أُغنيةٍ جديدةٍ للمرة الأُولى، لا يتسنى لمن كان في عمري، ممن يَغُطّون في نومهم تحت أغطيتهم وإشراف أعين عائلاتهم الراشدة، السهرُ من أجل متابعتها.

ربما، لهذا ظلّ لديَّ منذ ذلك الحين ذلك الولعُ باللعب بالنسيج وفركُه بين أصابعي، وتمسيدُه وكأنني أُعاينُ غسيلاً في سبيله للطيّ أو الكيّ، ذلك الشغفُ الذي ما زال يتقمَّص كفَّيَّ، وكأنني ألهو

بالنوتة الموسيقية، كلما عاينتُ ثوباً جديداً أو قديماً أو غسيلاً نزل عن الحبل في ساعته، لأُمدِّدَ النسيج وأُوازن خفته أو ثقله أو نعومته، ومدى انعكاس الضوء عليه، ومستوى تشبُّعِه بالحرارة أو البرودة، وما يتداخل فيه من أنواع القطن أو الخيوط. حينها أُحس كأنَّ الأنغام الخفية ستنبعث وأنا أتمايل معها طرباً بعين الخيال، أهتفُ مع الجمهور: "الله يا تومة"، وأتخيل أنني أجُول بينهم، كما تجول يدايَ بين أكوام الملابس المُكدَّسة في جبالٍ صغيرة، باحثةً عن مكاني بين الصفوف.

ملابس وأقمشة! إنها لَتتحول إلى أدواتٍ أُخرى للإبحار بعيداً عن كل ما لا يُرضينا، فكيف لو كانت مُعطَّرةً بصوت "الست" لفتاةٍ تودُّ أن تنسى ما يدور حولها من مُنغصاتٍ وآلام؟

ربما، لهذا أمضيتُ ردحاً طويلاً من عمري بعد وفاة أُمي، وبعد اللجوء المرير الذي حَرَمَنا من كل أغراضنا وما يحويه بيتُنا في غارةٍ عابرةٍ لطيران الاحتلال على منطقتنا، وأنا أبحث عن ثيابٍ وأنسجةٍ في سوق الثياب المستعمَلة (البالة)، ثياب لها أشكالٌ وروائحُ وألوانٌ متغيرةٌ، أقبضُ عليها وأنا أُمسِّدها بدقة، مفتشةً فيها عما ترسَّبَ فيها من ذكرياتٍ وأنغامٍ فقدناها ولا نعرف كيف نستعيدُها.

كلُّ تلك الألحان والأنغام والأغاني الطويلة أذكرها تماماً، وأحتفظ بولَع خاص لما حكاه والدي عن رقصتي الدائمة التي كنتُ أؤديها وأنا بين الثانيةِ والرابعة من العمر أمام مقهى "منى" على الدرج النازل من باب العمود إلى سوق باب خان الزيت، حيث يجلس الرجال مع نرجيلاتهم وفناجين قهوتهم يدخّنون ويلعبون الورق على الرصيف أمام المحل، هناك حيث يبدأ المشيُ عبر الممرات الطويلة في قلب البلدة القديمة إلى بيت عمَّتي في عقبة المفتي.

كنا إذا دخلنا السور وهو يمسك يدي الصغيرة أسارع إلى الركض على الدرج الحجري إلى أن أصلَ أمام المقهى، وهناك أقف لأرقص وأهزَّ جسدي على أنغام أغاني "الست" أُم كلثوم. كان يتركني لحظاتٍ كافيةً أمامَ المقهى المزدحم بالأراجيل وصرخات الرجال اللاعبين على طاولة النرد "شيش بيش" ويتوقف لتبادل التحيات والضحكات مع أصدقائه الذين يتواجدون هناك عصراً في العادة، ومن ثم يحملني في النهاية بعد أن أتشبث بالبقاء وأرفض مَسك يده ومعاودةَ المشي، فننزل الدرجات الكثيرة التي توصل إلى سوق باب خان الزيت، وهناك كنا ننغمس في موسيقى من نوعٍ آخر. نداءات الباعة المنغَّمة على الخضار والفاكهة الشذية وروائحها الطازجة، صرخات السقائين الموقعة وواحد منهم يركض حاملاً قربته الجلدية التي تنقط قطرات الماء في خيط طويل خلفه، وهو

يوزع الماء للبيوت القديمة التي لم تدخلها أنابيب الماء وصنابيره الحديثة، وأصوات صواني الحلوى والكُنافة تتصاعد مع رائحة قطر السكر الساخن تتهزهز على البلاط الذي توضع عليه فور سحبها من الفرن مصدرةً إيقاعاً عجيباً من طشطشة المياه الساخنة حين توضع على سطح بارد. وصوتُ كركرة عجلات العربات الخشبية التي تكرُّ على البلاطات بأحجارها البيضاء والوردية التي كانت هناك قبل غزو العثمانيين حاملةً البضاعة إلى المحلات في الداخل، حيث لا تصلُ سيارات النقل. وحين نذهب إلى بيت عمَّتي من الجهة الأُخرى كان يمكننا سماعُ أفواج الحجاج المسيحيين وهم يرتّلون أناشيدهم الدينية الروحية كلٌ بلغته، فتمتزجُ الأناشيد والأغاني واللغات بعضها مع بعضٍ في مزيج فريد من آيات الموسيقى السماوية التي تثير الحنان والخشوع.

تلك كانت رقصتي المنسية الوحيدة التي عشتُها على أنغام "ست الكل"، وما زلتُ أبتسم كلما تذكرتُها وأنا أعبُر تلك الدرجات المنحدرة من باب العمود إلى باب خان الزيت والسوق العتيقة وأشاهد المقهى مغلقاً منذ زمن طويل.

عن الينابيع والظلال

وماذا تفعل الجنِّيّات في الليل وهي تطوف فوق مياه الينابيع والآبار تحرسُها وتقدم لها البرَكة وأمنيات السعادة؟ وكيف حدث أن ابن جيراننا الذي كبُر وما زال يحتفظ بطفولته استطاع أن يصور جنّيّة صغيرة ذاتَ لونٍ أزرقَ لماعٍ تطير حول أُصُص النباتات المنزلية في شُرفة بيتهم؟ كانت الأسئلة غزيرة وكثيرة أيام الطفولة، لكنها ذوت مثل نباتات الشوك التي يعرف الجميع أنها لا تحتمل الريَّ الكثير رغم أن هناك مَن صمَّم على أن ينزعها من أرضها، وأن يزرعها في تربة مصنوعة من المطاط والبلاستيك. عندما ذهبتُ بصحبة المصور إلى تلك العائلة التي لم تكتفِ المستعمرةُ بسرقة أرضها الواسعة، بل زادوا عليها سرقةَ ينبوع الماء الذي يوجد في حقولها، ويروي الأرض كلَّها، ويصبُّ في بِركةٍ مقامةٍ منذ عهد الرومان. كانت أُم علي ضئيلةُ الجرم ذاتُ الوجه السَّمح الذي يميل إلى احمرار ملتهب ناتج عن غياب الصبغيات من بشرة حساسة تعرضت للشمس طويلاً، تحكي لنا بسنواتها الثمانين التي تحملها على كتفيها، وهي تكاد تبكي بأن أمن المستوطنة لا يسمحُ لها ولعائلتها بالوصول إلى أرضهم لريٍّ وسقاية المزروعات.

كان أبو علي الذي جاوز منتصفَ الثمانينيات يقف قُربَها، وقد بدا في الخلفية بابُ المستوطنة التي سرقت أراضي قرية الجانية. كان يرتدي ثوبَه التقليدي، الذي صُنع قماشُه المخطط من الساتان المصنوع يدوياً على الأنوال في مصانع النسيج القديمة التي انقرضت الآن في سورية، وهو يحمل "الطورية" بيد وسلةَ مصنوعةً من القشِّ بيده الأُخرى، آملاً في أن يسمح لهم حراسُ المستوطنة بالمرور إلى أرضهم المحتجزة. كنا جميعاً، بمن فيهم هو، نعرف أن ما يخطرُ له لا يتجاوز الأُمنيةَ الباطنية، لأن حراس أمن المستوطنة كانوا أشبهَ بزبانية أبواب جحيم دانتي، ولا يمكن مخاطبتُهم أو الاقترابُ منهم. حكت أُم علي عن شجرات الليمون التي صارت تذبلُ رغماً عن حوض البِركة الحجري الذي يقع قريباً منها، وقالت باستهجان إنه لا أحدَ من عندهم يكلف نفسه سقايةَ الأرض.

الأرضُ عطشى، وهم يمنعونهم من الدخول إليها، هي وأبو علي وأولادهم والأحفاد، تحت حُجة دواعٍ أمنية وهمية. أُم علي لم تذكُر كلمة "المصادرة" لأنها تخاف منها، وهذه مستوطنةٌ غيرُ شرعية فكيف لها أن تصادر الأراضي حولَها؟ لذا كانت تؤجل إطلاقَ الصفة على ما يفعلونه رُعباً من دوام قَصاصهم من أهل البلدة.

منذُ بداية الألفية الثانية، يصطفُّ سكانُ القرية مع أوعيتهم وزوّاداتهم وأغطيةِ الأسِرَّة والشراشف التي تُفرد تحت الشجر لجمع الثمر، ومعهم حميرُهم التي سيحملون عليها مؤونة العام خلال ثلاثة أيام وحيدة في موسم الزيتون، يُسمح لهم فيها بالدخول إلى الأراضي التي يمتلكونها ويمر طريقُها من أمام باب المستوطنة المكهرب والمبطَّن بشريطٍ من الفولاذ المُخرَّم. يفتح حينها الحراس الطريقَ يوماً أو يومين، تنتهي في العادة سريعاً من دون إكمال اليوم الثالث، حتى لو كانت الإدارة المدنية قد أعطتهم إذن دخولٍ يغطي ثلاثةَ أيام، وقد صادف، في إحدى السنوات، أن منعوهم من الدخول نهائياً أكثر من عام.

حين كانت أُم علي تحكي كنتُ ما زلت أُفكر إن كان هنالك روحٌ لثمرة الليمون تشبه أرواحَنا.

حدث هذا ببساطة تامة معي، وهو ما جرى بعدها مع ماسة التي أخبرتني أنها لم تدرِ كيف تفسرُ ما رأته حين تصاعدت سحابةٌ صغيرةٌ تشبه الدخانَ الأصفر الفاهي أمامَها، وهي تتقافزُ من بين أصابعها، بعد أن قصَّت ليمونةً كانت قد قطفتها عن الشجرة لتعصرَها في كأس الماء الذي تتناوله لدى استيقاظها. حدث هذا ذاتَ صباح كانت تقفُ فيه على المَجلى وقد انسكبت فيه أشعةُ الشمس الدافئة من بين الستائر القصيرة لشباك المطبخ.

هل لثمرة الليمون روحٌ حتى يمكن أن نراها طيفاً ليمونيَّ اللون ينفصل عن الثمرة، ثم يتقافز بين اليدين ويطير؟

كانت تؤمن بقدراتي الروحية، ولهذا سألتني إن كان هذا ممكنَ الحدوث حقاً، مثلما حدث معها حينما شَعرت قبلها بالرعشة الكهربائية تمرُّ بسرعة البرق بين أصابعها مثل صاعقة مباغتة، لتضربَ طيرَ الحُبِّ المرتجف الراقد بين كفَّيها وهي تحاول إنعاشَه بالماء، بعد أن بدا على وشك الموت، بسبب اضطهاد بقية الطيور له في القفص الكبير. كان هناك صراعٌ بين طائرين لسبب ما،

فقام الطائر العدواني بنقره وانتزاع ريشه، أما هو فانطوى على نفسه بريشه الملون بالأصفر والأخضر، ولوى عنُقه ثم ارتجف رجفته الأخيرة ورحل إلى الأبد.

حتى طائر الحسون الذي أتت به بعده، كانت له روح. حدثتني، لم تتمكن ماسةُ من نسيان الطائر الصغير حين كانت تدخل إلى مطبخها كلَّ صباح فتُفاجأُ بغيابه وامِّحاء قفصه عن المصطبة التي تشبه الرخام. تظل تُحسُّ بوجوده الصغير في المطبخ قربَها، وتحتار حين تطفئُ جهاز الراديو في كُلِّ مرةٍ تذكر نفسَها فيها، بأنه ليس هنا كي يُغنّي مع الألحان الصادرة منه. لم تعد تفتح الجهاز، لأنها كانت تقوم بهذا كي يستمعَ هذا الحسونُ إلى الأنغام والأغاني، ويتعلمَ التغريد.

تجلس لتطالعَ الجرائد على طاولة المطبخ، فتحسُّ كما لو أن روحَه تبقَّت هناك على المصطبة الحجرية التي كان قفصُه الصغير المخلَّع يرقُد عليها. يرِينُ في المكان هدوءٌ شاملٌ صباحاً، وأشعةَ الشمس الكسولةَ تتمطى على الرخام المحيط بالخزائن، ثم لا تلبثُ أن تتنحّى تاركةً المجال للصمت والعُزلة، فتحس ماسةُ بالملل، وترنو إلى زقزقاته التي كانت تحرك الهواء الساكن في المطبخ.

هل للعصافير أرواحٌ مثلنا أم مجردُ حيوات بيولوجية؟ كانت تتساءل!

قالت لي إنه سبق أن غرَّد ذلك الحسونُ سنواتٍ إلى أن نال منه الهرم وصارت له غرةٌ بلون الشَّيب، صار وجهُه رصيناً وصامتاً يشبهُ وجهَ جدِّها في شيخوخته. بلغ منتهى الشيخوخة أو ما يُسمى أرذلَ العمُر، اكتملت حلقاتُ حياته مثلَ دائرةٍ من السحاب، ظلت تتسع على مدار اثنَتَي عشرَةَ سنةً، ثم صغُرت وتبخَّرت مرةً واحدة.

هل لليمون روحٌ تنطلق مثلَ سحابةِ دخانٍ حين تعترضُ اليدُ طريقَ شعاعٍ اندلع من الشُّبّاك المقابل للمَجلى، فتتفاعل مع النور لتخرج منها هذه التأوُّهاتُ اللونية الصامتة؟!

مثلها، ما زلتُ أتذكر كيف رأيتُ يوماً بخاراً شفافاً بلونٍ ليموني خفيف وهو يندلع حول الثمرة وأصابعي التي تقوم بعَصرها، تطاير اللون في الهواء مرتين، مثل مجَّةِ سيجارة هائمة، لكنها امتلكت الشفافيةَ واللون والوهَج حينما نبَعت من قلب الثمرة الصغيرة.

كانت أُم علي تتحدث عن روح الليمون أيضاً، وهي تشكو في الفيلم من أن المستوطنين استولوا على أرضهم في قرية الجانية لكنهم لا يسقون الشجر رغم أن الليمون قد ذبل وتطايرت أوراقه البنية على الأرض.

أعاود التفرج على صورتهما الفوتوغرافية القديمة التي التقطتها لهما قبل سنتين خلال التصوير وهما جالسين فوق طراحة على التراب وسط أرضهما بلباسهما الفلاحي وإبريق الشاي الموشوم بآثار النيران المشتعلة في الحقل. وأحس أنهما يدخلان قلبي من جديد ويولدان داخله. كثيراً ما يستطيع الأصغر سناً ولادة من هم أكبر منهم عمراً عندما يتبناهم قلبياً يؤمن بهم ويجد أنهم الحقيقيون أمام كل الزيف الذي يحيطنا.

زرنا أرضهما الساحرة مرات عديدة وقتها. جلسنا على طرف البركة الرومانية المليئة بمياه النبع الصافي في أرضهما. أكلنا التبولة في ظلال زيتوناتها وأشجار البرقوق فيها. وقمنا هناك بالتنزه والمكوث في ظلال الطبيعة واستكشاف مغارات أثرية ما زالت تحتفظ بعلاماتها منذ العهد النطوفي. كان أسم ذلك ‘‘الشطحة " وهو يعني أجمل علاقة بين الفلسطيني والطبيعة.

تحدث أبو علي طيلة الوقت عن استيلاء المستوطنين على أرضه في قرية " الجانية " وهو الذي قضى سنوات عمره في رعايتها. استولت المستوطنة المجاورة ليس على الارض وحدها وإنما على النبع الذي يَصْب في البركة الرومانية. كاد أن يبكي وهو يحدثني عن حرمانه من سقايتها وأم عاطف تشكو من ذبول أوراق شجر الليمون بعد أن مُنعوا هم أصحابها من دخولها.

كان كمن فقد طفلاً أو عائلة وهو يروي كيف انه اعتاد على الذهاب اليها يومياً الا أنه صار كالمحكوم بالحبس المؤبد في بيته.

تبدو أم علي مثل زيتونة رومانية تذبل وتصغر مع الأيام ولكنها تزداد عطاء وكرماً ولا ترى في مناماتها الا شجرات الليمون العطشى.

- من يعرفهما يتأكد تماماً من أن للأشجار أرواحاً مثلنا. قلت لماسة وأنا أبتسم.

- هل تشكين في هذا؟

غبار.. غبار..
2018

شكوتُ لماسة وأنا أشرب القهوة بفناجينها الخزفية المزخرفة يدوياً من صناعة الخليل. كنتُ أشير إلى ما يجري حول بيوتنا من مرور لا يتوقف لشاحنات محمَّلة بأطنان الحجارة المكسورة ومخلفات البناء التي يُمنع وضعُها في مناطق السكن، فكيف برميِها من عَلٍ شاهقٍ على الأشجار. أخبرتها:

المقاولون، لا أصدق، يقتلعون الشجر. اشتروا سكوت اللجنة المحلية عنهم، وها هم يرمون أطنان الحجارة فوق غابة الزيتون الرومانية التي تقع أسفل دارنا.

غابة من أشجار الزيتون التي تتسامق إلى الأعلى مكوِّنةً مظلة من الحياة البرية التي ضمَّت الكائناتِ جميعَها، بدءاً من السلاحف إلى الخنازير إلى الفراشات والثعالب وأنواع الخُلد والنمس والأفاعي والصقور التي تحلق فوقنا في الفضاء الذي كان وسيعاً وتلبَّد الآنَ بالغبار الذي يبدو وكأنه مخلفاتُ قنبلة ذرية. غابة نشأت منذ عشرات آلاف السنين، وها هم يأخذون قراراً سرياً مبطناً بتحويلها إلى مكبٍّ نفايات لحجارة البناء التي يريدون التخلص منها.

غابة اكتنزت أشواقَنا إلى المشي تحت خطرات النسيم في أيام الصيف، وإلى روح الدفء في أيام الشتاء الباردة، وأمتعتنا دوماً بتغاريد أنواع الطيور كافة، وجعلتنا نقفزُ بينها مثل أيام الطفولة الهاربة بحثاً عن لياقة بدنية بدأنا في افتقادها لكثرة الجلوس على المكاتب.

غابةٌ أعطتنا الحياة، وأشعرَتنا بأننا آدميون لهم علاقةٌ بالفضاء الكوني، وأننا نختلف عن الكثيرين الذين صاروا ضمن جيوش الموظفين ينتظرون انتهاءَ الدوام بفارغ الكسل، لكي يذهبوا إلى

بيوتهم وأسرَّتِهم ومقاهيهم، فقط حتى يمارسوا التهام الطعام أو الكسل على الكنبة، وفي أحسن الأحوال التجوُّل في "المولات" كي يقوموا بالتسوُّق.

تشارعنا، وبدأ الجدال بيننا من جديدٍ حول اسم ورق شجرة الكينا، هل هو الكينا أم البيلسان؟ أصرَّت هي على أنه البيلسان، وأخرجت القاموس لتثبت صواب رأيها.

ثم عاودَتْ سؤالي:

كتبتِ؟

أجبتُها: حاولت، بل أوشكتُ أن أكتب. لم أستطع تحريك اليد. شيءٌ ما كان عاجزاً فيّ عن الحركة، وكان يرتبط بوجود الشجر، وباستهجان القدرة على تخريبها وتدميرها بقُمامة تهبط عليها من أعلى الجبل بدلاً من مطر العناية الالهية الآتي من السماء.

.. كأنه تدمير وجودنا ذاته.

ولم أُرد أن أخبرها لأنني أعرف كيف يتحكم الخوف بها لو ذكَّرتها بتلك الأيام، حينما كنا ندور على برادات المستشفيات أيام وجودنا في لبنان، إثر الغارات الجوية، لنبحث عن الشهداء الذين نعرفهم وضاعت ملامحهم بسبب قصف الطيران.

أيكون مصير الأشجار هكذا؟

أيكون مصير البلاد كلها هكذا؟

نداء هاتفي

مساء ذلك اليوم، أتى نداءٌ هاتفيٌّ من ابنة جنان، أعلمتني فيه أنها مع أُمها التي ترقد في مستشفىً مقدسيّ، بعد أن دهستها سيارةُ ولدٍ طائشٍ لا يمتلك رخصةً أو تأميناً. ما الذي دعاها للنزول إلى القدس؟ سألتُ. كانت تعاني نوبة شوق، وتركت بلدتها القريبة من القدس، وذهبت هناك لتلاقي صديقةً تسكن ناحية شارع الزهراء.

يا إلهي! كانت جنان تتألم من تكدُّماتٍ شديدةٍ وكُسورٍ في أضلاعها. تكلمتُ معها. كانت ترقد، وقد أعطوها مسكناتٍ قوية. ولا أعرف كيف تَبادَرَ إلى ذهنها أنْ تُذكِّرَني بما فعلناه يوم استبدلونا في احتفال الدبكة بفتياتٍ أكبر منا، وقمنا حينها بكتابة احتجاجٍ كبيرٍ على اللوح في قاعة الاستقبال، ذيلناه بتوقيع "المنبوذات الثلاث"، ثم خططنا تحته ثلاث كلمات تعبر عن تواقيعنا. فعلاً.. هذا ما حصل. الألم يهيج دماغ جنان، ويجعلها تتذكر الحادثة الصغيرة التي رقدت في جانبٍ صغيرٍ من تذكاراتنا. وقتها كتبت جنان توقيعها "تضحية"، وكتبت سماء عن نفسها "مُحبة"، وأنا كتبت "حب". ولم تُفلح كل التهديدات والتحريات من "ست سيتا" في اكتشاف الفاعلة.

تأوّهت جنان، وتقطّعت أنفاسُها، وقالت: تذكرينَ كيف أنجزنا الامتحان الرسمي للإعدادية، وكنا خارج المدرسة، حين ذهبنا بعدها ركضاً إلى ابن الجيران لكي يحلَّ لنا تمارين الرياضيات ويُطمئننا على سلامة إجاباتنا؟! آ.. لو وجدتنا "ست سيتا" وقتها لسجنتنا إلى الأبد.

ظلّ الأرض

لو كان الأمر يتعلق بموسوعةٍ عن الجنِّ والغيلان، لَعرفنا من قصص طفولتنا الكثير. كان يمكن للقصص أن تكتسب زخماً وأصواتاً حقيقية. فهناك كهوف في الهضاب والجبال وداخل بعض المدن القديمة أو المواقع الأثرية التي يحلف كثيرون ممن سكنوا قربها بأنهم شاهدوا أضواء ساطعة تتلألأ بداخلها يوم الخميس، وأنهم شاهدوا ظلالاً ترقص على أصوات موسيقى الدفوف والطبل تتلاوح داخلها، لأن أحداً لم يمتلك الجرأة للذهاب والدخول إليها. واحدة من بنات عمومتي (ابتسام) أقسمت لي منذ كان عمرنا عشر سنوات بأنها رأت ظلالهم مرات عديدة، وأنها شاهدت الشموع تتلألأ في المغارة الكبيرة التي تقع وراء بستان عمي عمر.

ولم تكن مسألة الينابيع المرتبطة بالجن أو الحوريات تتعلق بما يجري هنا هذه المرة، إنما كانت عن ظاهرة جديدة لا يحتملها وضع الأسرى الذي نعيشه خلف الجدار.

كائناتٌ بدت لنا غامضة مثل ظل الأرض لو كان لظلالها التجسد بطريقةٍ ما.

قبلها بعامٍ كان يقف على رأس الشارع، جامداً مثلَ ظِلٍّ أصم، خانه كيانُه الطبيعي، فتدفق بكُلِّيته على الأرض، كأنه قد تم تثبيتُه هناك مثل برميلٍ حجري هائل الحجم.

لونه أسود.

فكَّرَت أنها تراه الآن للمرة الأولى، بعد أن تحدث أهل الحي عنه مراراً.

كانت الثعالب والواويات بدأت تأتي إلى صناديق القمامة المعدنية ذات اللون الأخضر الداكن، بل إنّ الخنازير صارت جوعى، أيضاً، بعد أن ثبَّت الجيشُ الجدارَ الفاصل وسط البلدة،

ساحباً معه الجزء الأخضر من أراضي المزارعين، فأُغلِقت المنافذ كافةً أمام الحيوانات البرية التي كانت تسرح طليقةً في الحقول بعيداً عن تجمعات البشر.

"انحشروا هنا. في جهتنا. عندنا"، قالت ماسة التي سكنت في حيٍّ قريب.

كان ظهور هذه الكائنات الغريبة بمثابة جرسِ إنذارٍ للجميع، إلا أنّ أحداً لم يعرف كيف يتصرف. هكذا سادت موجةٌ من التكهُّنات، اختلطت مع معلوماتٍ متضاربةٍ تتكهن بأنّ الخنازير البرية تقتات على بقايا الثمار على الشجر، وعلى دود الأرض وخشب الأشجار وأشنات الفطر التي تنبت على الجذوع، ولهذا علينا أن نخاف منها، وخصوصاً إن كانت تصطحب صغارها معها، لأنها تصير عندئذٍ عدوانيةً وتهاجم البشر.

وزيادةً في تأكيد عدم الخوف أو الرعب منها علّقت جارةٌ أُخرى:

" أكله هذا المخلوق نباتي، كما يقال".

وأعقبت:

"لكنه يهاجم مَن يعتدي على صغاره".

وها أنا حينما أُتيحَ لي أخيراً أن أراه، وأن أعرف سرّ "الهيصة" التي ثارت في الحي، صُدمتُ بمنظره حين أتى، لأنني لم أُفلح يوماً في تخيُّله قبلاً.

كان وجودُه غيرُ المعتاد على قارعة الطريق في ذلك المساء ينشر ظلاً حزيناً، ثابتاً في مكانه لا يَريم. ينصب لونه الداكن على زاوية الشارع، حتى لَيبدو نقطةً ضخمةً سوداء مُسيطرةً على المشهد. كان مغايراً تماماً عمّا رأيته في الرسوم المتحركة دوماً، التي تمثله بلونٍ زهريّ، تلتفُّ حوله غيمةٌ من أحزان الجوع وتحوّط كتلته الثقيلة.

عدلتُ عن الخروج، وعدتُ إلى البيت قبل الوصول إلى الطريق، حيث كان واقفاً "مثل جلمودٍ صبَّه السيلُ مِن علٍ". لم يكن ممكناً تقدير مدى الخطر الذي يشكله وجودُه هناك على هذه المسافة القريبة، ولا أحد يمكن له أن يعرف احتمالات تحركه، وإن كان سوف يحافظ على وقفته

اللامكترثة إن مر أحدٌ قُربه. قالت الجارة إنه من الضروري الابتعاد عن مساره والانزواء في أي مكان حين يخرج إلى الطريق.

قلتُ لنفسي وقتها "والتليفونات. مالْها التليفونات؟ يُمكنني أن أطلب من أشاء ممن أعرفهم وأُحادثهم من داخل الدار، وهكذا أستغني عن الخروج".

"يعني الزيارة لازم تكون مواجهة؟ الزيارات الإلكترونية أفضل".

قال ابن الجيران أمسِ لأُمه أمامنا، كان يقرأ من شاشة جهازه للضيفات شاربات القهوة والشاي عن النسبة القياسية لاستخدام الحاسوب في فلسطين لأغراضٍ اجتماعيةٍ بعد إنشاء الجدار الإسرائيليّ، ذلك الذي قسَّم الأرضَ وفصَل بين العائلات.

واصل تعليقه..

- آ.. هيك يمّا. مَهُوِّه حسب إسرائيل ليش هُوِّه لازم نشوف بعض؟ هَيْهُم بيحطوا الجدار، وإحنا هَيْنا محبوسين، بس عنا إنترنت!

لم تَخفَ سخريتُه علينا، لكن أن تنطلق الخنازير في الشوارع بسبب الجدار الذي احتبسها عن الأرض البرية، فهذه فعلاً مأساة!

أخبرت ماسة:

أنا رأيتُها في الصيف الماضي حينما كان الطقس حاراً.

كنت أقطع الشارع المُفضي إلى الطريق الرئيس، فإذا بخنزيرٍ متوسط الحجم لونُه بنيٌّ يجتاز الرصيف، ثم الإسفلت، إلى الجهة الأُخرى، مُصطحباً معه عائلةً كاملة.

الأب، ثم الأُم، ثم طفلان أو ثلاثة، يسيرون جميعاً على التتالي في موكبٍ دقيق.

كانت العائلة تصعد من بين أشجار السرّيس والتين الواقفة على مُنحدر الجبل إلى حقل الزيتون على التلة المقابلة، لكنها ما لبثت أن ارتدّت على أعقابها ونزلت مسرعةً إلى الوادي الذي يقتلون أشجاره بعد أن عاجلها عواءُ كلبٍ مجنون. ازداد الهمس، وتصاعد إلى احتجاجاتٍ عاليةٍ في القرية عن ضرورة الفتك بهذه الحيوانات البرية التي هدّها الجوعُ بعد هذا الشتاء الطويل، لا سيما

أنّ الجدار الإسمنتيَّ الشاهق قد أغلق المنافذ علينا، وسد إمكانات تَنَقُّلِ الناس بين السهول والهضاب والجبال، فكيف بالكائنات الأُخرى؟!

وزاد من المأساة تكالُبُ الناس على العمران في منطقتنا، بعد نقصان مساحات الأراضي التي لم تتم مصادرتُها من الحكم العسكري بعد، فاتجهوا إلى الفتك بأراضٍ حرجيةٍ جديدةٍ بعد هجمات الجيش على ما امتلكوه قبلها. هكذا بدأت الحيوانات تطفش باتجاه القرى.

لكنني بعد ذلك لم ألتَقِها، ونسيت إخبارَها بما حصل وقتها:

كانت الثامنةَ مساءً من ليل القرى الطويل من شتاءٍ جديدٍ آخرَ احتبست فيه الأمطار، حين رأيتُ من نافذةِ شباك السيارة الزجاجيِّ المغلق، وأنا أقود عائدةً إلى البيت، واحداً منها على جانب المنعطف تحت أشجار الزيتون، وقد تنحَّى عن الطريق مُتفاجئاً بأنوار السيارة القوية التي ضربت وجهه.

لفتَني آنذاك أنَّ له شاربين سوداوين رفيعين مثل رجلٍ آدميٍّ مُتأنق، وأنَّ مسحةً خفيفةً من الإحراج قد ظهرت على وجهه لرؤيتي إياه. إذاً، حتى هذه الحيوانات تمتلك حِسّاً بالكائنات الأُخرى. مضت السيارة واختفى في الظلمة.

هذه الليلة الصيفية، وأنا أتمَشّى على الطريق الزراعي مستمتعةً بالقمر المُضيء وكوكب الزهرة الساطع، الذي تجلَّى في أوج كماله الماسيّ، وجَفَّ قلبي حين حدقتُ ورأيتُ في نهاية الشارع أكثرَ من جُرمٍ أسودَ عريضٍ، يتراءى في الظلام الدامس. هل كانت الحيواناتُ قد خرجت، وستندفع إلينا للتوسُّل للحصول على الطعام؟ أتجثو أمامنا لكي تطلب فُسحةً في الجدار تتيح لها التنقل في البراري التي احتبست عنها؟ وماذا نفعل حينها؟

تخيلتُ أنني سأقفُ أمامها وهي تتشمَّمُ قدميَّ ناظرةً إليَّ بتلك النظرةِ المترجية، التي رأيتُ فيها الخنزيرَ المتخفي في العتمة يرمقُني بها من وراء زجاج سيارتي، حين اتجهَت أنوارُ كشافاتِ السيارةِ القويةِ إلى عينيه.

استدرتُ على عقِبي، ومشيتُ مسرعةً تحت السماء التي بدأت تُرشرش مزيداً من الضياء على النجوم الخافتة، والسؤال يعصف بي:

ماذا ستفعل بنا هذه الحيوانات الجائعة؟

لكنَّ تباطؤ خطوِ من كان يرافقني في المشي جعلني أنظر بتملٍّ وتدقيقٍ إلى المشهد الأبعد داخل نطاق الضوء القادم من عمود النور إلى موكبٍ وسط الشارع.

لم يكونوا إلا حفنةَ أطفالٍ من الجيرة، يمشون في العتمة على دراجاتهم الصغيرة.

لم يكونوا إلا بعض هذه الكائنات الأسيرة التي ستكبر من دونِ أن تعرفَ ما وراءَ الجدار.

عن الشغف والشغب

كيف يمكن للجسد أن يشمَّ رائحةَ المطر قبلها بليلة! وللأنف أن يتحسَّسَ رائحة الغبار القادمة في الأفق قبل وصول العاصفة، وكيف يتغير ما نجهلُه إلى أُلفةٍ عميقة تشبه أن نسمع نغماً غريباً عابراً ثم نجده مألوفاً مثل خفقة ريح تداور شُرفاتنا كل يوم؟ ألا يشبهُ هذا ما يحدث حين تُعاودنا بعضُ الأصوات مثل الرعد المسائي فيباغتنا ويثيرُ دقاتِ قلوبنا؟

حدَّثتني الشاعرة عن حبها الكبير في زمنٍ بعيدٍ لكاتبٍ كان يعيش في بلد عربي آخر، حُبٍ استمر عدة سنوات بينهما ثم انتهى دفعةً واحدة. وأنا أتابع حوارها عن شؤون حياتها أبديتُ استغرابي لنهاية حاسمة مثل هذه لا تتساوق مع طريقتها المتمهلة، إلا أنها قالت إنها ظنَّته كاذباً حين توقف عن الاتصال بها وتوقَّفَت رسائلُه تماماً، وهي التي رسمت صيغةَ تلاقيهما. كنتُ قد عثرتُ على كتابٍ كان يحوي مراسلات ذلك الكاتب لها وهو الذي كان يعيش في بلد العروبة الأول في تلك الأيام. اعترفَت لي بأسفٍ بأنّ حزناً عظيماً غمرها ولن يتوقف أبداً، عندما سمعت نبأ رحيله عن الدنيا قبل أن تدري بوضعه الخطير. كان قد دخل إلى مصحّ، وانقطع عن الكتابة تماماً بعد إصابته بمرضٍ لم يكشفه لأحد. وكانت الدنيا صغيرةً أيامها، والظروف صعبةً بل مُريعةً من كل الجوانب، فلم يكن هناك ما يكفل الاتصالات إلا الرسائل، وحينما كان المرءُ يحتاج إلى السفر كان عليه أن يفكر كثيراً قبل أن يستسلم لمشقّة الطريق.

لكنها عادت وقالت إنه رغماً عن هذا فإنها لا تأسف إلا على حُبٍّ وحيدٍ كان في عز شبابها.

- صاحب الزهرة التي رماها عليكِ؟ سألتها.

أجابتني: لا. ذاك لم يكن حُباً. كان أشبهَ بألعاب الأطفال، وما زلتُ أُتابع تفاصيل حياته. أعرف أين يعيش الشاب بعدما ترك البلد وصار رباً لعائلةٍ كبيرةٍ في بلدٍ مجاور.

شاب؟ تساءلتُ أمامَها.

قالت وهي تبتسم: لا، تغير وصار كهلاً، ولم تعد له صلةٌ بتلك الصورة القديمة.

لا. أقول لكِ. كان الرجل الذي أحببتُه هو الرجل المستحيل، كان أجنبياً، وهو من علَّمَني أشياء كثيرة. كان متزوجاً، ولو كنتُ سأستمر معه لكنت سأترك بلدي هنا. التقيت به في بعثةٍ دراسية.. فترةَ أقل من عام، ثم توقف كلُّ شيء بسبب عودتي إلى هنا.

وفيما بعد.. فيما بعد..

شكَت من لواعج الحب الدائمة، وشبَّهته بالموج الحار الذي يتلاعب بالروح والنفس والجسد، ويفور فلا يعرف المرءُ كيفية إطفائه. أخبرتُها عن صديق كان يقول إن الحب كائنٌ مُشاغبٌ لا يمكنك أن تتخلص من عبَثه بحياتك إلا إن مارستَه وعشته، وعليك أن تقوم بهذا، وإلا فسوف يلتصق بقلبك وشماً إلى الأبد.

وهذا يعني أن نعاني الوشمَ.. العواقبَ.. إلى الأبد.

لم أخبرها أن مسألة العواقب هذه انطبعت وشماً على قلبي بعدها، وأنني، إلى الأبد، لم أعُد أعرف ما يمكن عملُه للتأليف بين العواطف وبين العواقب.

ليل الوحشة

زمان كانت الصور ترسم ظلالاً سوداء أو بيضاء، رماديةً أو فضية، والآن صارت تكُرُّ على الشاشات الإلكترونية بتدفُّقٍ خيالي السرعة وخوارزميات معقدة. كأنني أقف في مواجهة زمن مضى، وأراه على أطراف أصابعي التي تتحرك على لوحة الحروف بتساوق وسرعة واستعجال، يشبه أن تركضَ بخطواتٍ سريعة لكي تقبضَ على بُلبُلٍ سحري هرب من الشجرة التي تميل قرب نافذتك وكأنها تتقصد أن تتقصى سريرَك وحدَك ليلَ نهار.

لم تنسَ ذلك الغناء الأوبرالي الشجيَّ الذي سمعِتْه مرةً واحدة في حياتها في ذلك الحين. كان صوتاً لسيدةٍ تطلق أناشيدها وأغانيها بطريقةٍ أُوبراليةٍ تتناهت إليها، والبناتُ يصعدن إلى درج المنامة في المدرسة المقدسية. اثنا عشر عاماً ولم تكن قد عرفت الأوبرا أو استمعت إليها قبلها ولا فهمت معناها ولا اللغة التي تدور بها، وإن كانت تعتبر أن مهنتها المستقبلية سوف تُفضي إلى الغناء حتماً، ما دامت العائلةُ تعتمد عليها في رحلات السيارة الطويلة والقصيرة خلال العطلات، حين تشدو بصوت بدا لمن حولَها قوياً وحنوناً وله مستقبلٌ في ذلك الحين.

وضعَت قدميها على السلم فصدح الصوت مؤنساً، مضيئاً ليل الوحشة التي يحملها الظلام الدامس القادم من الجزء قيد التصليح من البناء المتصل بالسكن، الذي كان خالياً مهجوراً قبل أن تتمكن مديرةُ المدرسة من الحصول عليه كهِبة من عائلتها المقدسية. كان العمال يشتغلون نهاراً لتأهيل البناء وتشييد ممرٍّ بين الجزء القديم والجديد، إذ إنه كان يعتبر تابعاً لمبنى آخر تحوَّل فيما بعد إلى "الأمريكان كولوني".

كُنَّ قد وصلنَ إلى نقطة المنتصف، حيث يصعد السلَّم الحجري الطويل متلولباً وملتفاً إلى الطابق الأعلى، لا ينيرُه الا ضوءٌ خافت يسمى "نواسة" لشدة ضعفه وتهافته. حينما سمعت ذلك الصوت يتصاعد شجياً، غنياً، حياً، توقفت على الدرجات الأولى كي تُنصتَ بهدوءٍ بعيداً عن صخَب

ثرثرة الفتيات. كُنَّ عائداتٍ من التدريب على الحفلة السنوية تلك. أحسَّت بترددهن وحيرتهن عندما توقفت في أول السلَّم وعزفت عن الصعود. لم يكن الوقت مبكراً، فقد كانت الساعة قد جاوزت التاسعةَ مساءً، وزمنُ الإيواء كان قد بدأ منذ السابعة. وقفت في العتمة وأصغت بكل جوارحها ثم خبرت جنان: هل تسمعين الغناء؟

أجابتها جنان متعجبة: أي غناء؟

قالت لها بهمس: هذا الذي يتصاعد بصوت أعلى من العالي.

أنصِتي. لا أكاد أصدق جمالَه.

أكدت البنات ما قالته جنان: أيُّ صوت؟ لا نسمع شيئاً!

عندها أدركت أنها الوحيدة التي سمعت وما زالت تواصل السماع، وأنه كان عليها متابعة الصعود معهن إلى الأعلى. سقط قلبُها حينها وهي تخلف العتمةَ الدامسة خلفها، والصوتُ الشجيُّ ما زال يتصاعد مغرداً قوياً حاملاً روائح البراري وأزهار الربيع والغابات والبيوت العتيقة في الشمال.

عرَفَت ذلك الغناء بعد سنواتٍ طويلة وهي تشاهد على الشبكة الإلكترونية أناشيدَ الربيع التي تغنّيها النسوةُ حين يُنادينَ القطيعَ في البلاد الإسكندنافية، عندما ينتهي البياتُ الشتوي وتنطلق الشمس حرةً إلى الفضاء، وقبلها كانت قد عرفَت أن صاحب الدار المقدسي المسلم الراحل كان يستضيف في بيته الوسيع قبل عقود، جماعاتٍ من الحجاج الآتين من السويد والشمال الإسكندنافي، وأنه تزوج واحدةً منهم بقيت معه في الدار.

لا بد أن ذلك كان شعورَ أبي خالد الأسدودي حينما ذهب ليزور مسقط رأسه أسدود، بعد أن تم فتح حدود الضفة مع إسرائيل عام 1967 بصدفة عجيبة غريبة نتجت عن تمدُّد الاحتلال واتساع حدوده. كان قد مر حينها على تركه بلدَه أكثر من عشرين عاماً. ذهب إلى ما كانت مزرعةَ أهله، التي كانت ملاصقةً لمزرعة جدي. وكما روى لي خلال وصفه بذور صداقتهما النامية والمستمرة، كان قد تعرَّف إلى أبي هناك على الحائط المشترك بين المزرعتين وهما طالبان في المدرسة. تجوّل هناك ورأى التغييرات الكبيرة الحاصلة في الأمكنة التي أَلِفها طفلاً ثم شاباً وتركها عام 1948. حينها مشى خطواتٍ باتجاه البحر، وبوغِتَ حين رأى ذلك الحجرَ الضخم مرمياً على الأرض. كان

قد أصيب بصدمة لم يستطع تبيانها لمن كان يرافقه، فلم يكن ما رآه مطروحاً ومرمياً على باب "الفيللا" الخارجي حجراً، بل أشبهَ بذلك النُّصْب المرقوم الذي رآه في مدينة الآثار تحت الأرض، بل إنه هو، هو نفسُه.

وقف يملؤه العجب والحيرة، وعادت به الذكرى إلى اليوم الذي دخل فيه مع ثُلَّة من الصبيان خفيةً إلى سرداب يشبه نفقاً في بورةٍ خالية، وقد تجرأوا جميعاً على مخالفة أوامر أهاليهم بعدم الدخول إلى تلك الخربة المهجورة. نزلوا فيما يشبه درجاً مهدَّماً ينحدر إلى باطن الأرض، ورأوا الحجر النُّصْب ذاتَه واقفاً بجلال ومهابة، محفوراً بإشاراتٍ ورموز، وكأن نقشه يبين معنى المكان والتواريخ التي يعود اليها. بعدها وجدوا ممراً طويلاً تترامى على جانبيه أعمدةٌ حجرية تشبه تلك التي كانت أيام الإغريق والرومان. كان النُّصْب الحجري هناك ولم يستطع الصبيةُ أيامها تحريكه أو رفعه من مكانه، لذلك سارعوا بعد إنهاء جولة استكشافهم بين الأعمدة إلى الخروج، قبل أن يتحولوا هم أنفسُهم إلى أعمدةٍ من حجارة، حسبما ردَّد الأهلُ على مسامعهم مراراً عن مصير من ينزل إلى الخربة.

نظر أبو خالد إلى الحجر وهو بين مُصدِّقٍ ومُكذِّبٍ لنفسه. كان مرمياً بإهمال على جانب مدخل "فيلا" كبيرة. سأل مرافقيه عن أصحابها، فأخبروه بأن صاحب الفيلا مقاول إسرائيلي كبير. الحجر الذي عايش أحلامه وكأنه سرُّ الأسرار صار مرمياً الآن على قارعة الطريق، مثل قمامة لم يتمكن صاحب البيت المُقام على أرض الخربة الأثرية من التخلص منها بسبب وزنها الثقيل، فرماها بإهمال أمام بيته.

لمع بارقُ ألمٍ في قلب أبي خالد لأنه تذكر يوم دخول الجيوش الصهيونية إلى أسدود، وكيف رحّلوا من رحّلوا واعتقلوا من اعتقلوا من شبان كان هو بينهم. مكثوا في السجن العسكري طويلاً قبل إبعادهم من جديد، وكانت مهمتهم جمعَ الأشياء التي تفيد الغزاة. كانت هنالك فرقٌ مشكَّلة من الأسرى لجمع قرميد البيوت، وفرقٌ أُخرى لجمع الوثائق والصور.

كانت وظيفةُ أبي خالد مع مجموعته جمعَ قرميد البيوت المنسوفة ومعاودة تعبئتها في (شوالات) وإعادة شحنها إلى حيث يريد الأسياد الجدد، وكان في هذه المرة يقفز بين الحجارة وهو يجمع قرميد بيته هو شخصياً. وبينما كان ينحني لالتقاط المزيد منها عثر على عُلبة من التَّنَك كانت قد ضمَّت صور عائلته وأهله. كانت العلبةُ تخصه، انتبه الحارس لما جرى فسأله عما يحمله، فأجابه

أبو خالد طالباً منه الاحتفاظ بالعلبة لأنها تضم صوره الخاصة وعائلته، فلم يجبه الحارس بأكثر من أن جميع الوثائق والصور يجب إرسالها إلى الجامعة العبرية للفحص هناك.

لم يكن أبو خالد ليخطر له أن صوره وصور أهله يمكن لها أن تتحول إلى وثائقَ حربيةٍ يغنمها هؤلاء الغزاةُ الجدد. لا، لم يخطر له هذا حتى في أكثر أحلامه وحشيةً وإظلاماً، ولم يعرف حينها أن مكتبات فلسطين الكبرى والصغرى قد جُمعت من أمكنتها وتم شحنُها إلى مقر التجميع نفسه. كان منصرفاً إلى مشكلة إبعاده وأهله إلى مخيمات أُقيمت على عجَل، بعد أن استحوذت إسرائيل على الأرض وأعلنت استقلالها وأغلقت الحدود، لتمنعَ شعباً كاملاً من العودة إلى مكانه الأصلي.

قال إنه لم يحكِ لأحد في أسدود قصةَ ذلك الحجر، هناك حيث ترك مدينةً كاملة تحت الأرض. سقوفٌ وممراتٌ ومداخلُ وأقواسٌ وأبوابٌ حجرية وأعمدةٌ رومانية أو يونانية من قبل التواريخ التي نستطيع حسبانها. أمام بيت المقاول ركل الحجرَ غيظاً، وبقي الحجرُ صامتاً لا يتحرك من مكانه بسبب ثِقله.

كان أبو خالد يخبرني قصص الماضي تلك، كي يورِّثَني إياها كما يورث العم أو الخال أشياءَ لا تهمُّ الا أفراد العائلة ذاتها. لقد عرف كيف توفي والدي وأنا في منفى وهو في منفى آخر. كان صديقه أيام المدرسة، وفيما بعد صار صديقه أيام الكفاح والعمل، ولهذا اعتبر أننا ننتسب إلى عائلة واحدة.

الشيء الوحيد الذي كان يستغلق عليه حتى بعد أن عبر عامه الثمانين، هو المعنيُّ بكافة أنواع المعرفة، أنه لم يحصل على العُلبة التنَكيَّة التي ضمت صور عائلته في ذلك اليوم، وأن ذلك الحجر القديم كان قد اقتُلع ورُمي على ناصيةِ جدار الفيلا كأنه قمامة لا أكثر ولا أقل.

كم كان يبدو التعب عليه وهو يرسم ويخطط على الدفتر، محاولاً أن يشرح لي كيف أن أشكال الحروف العربية والعبرية تعود إلى أصل واحد. كان يرسمها، ويقول بوجهه المتغضن وابتسامته الدمثة التي لم تتخلص من الخجل، على رغم تقدمه في العمر:

ليش بيعملوا فينا هيك؟! ليش بيعذبونا وبياخدوا كل شي منا، مع إنو إحنا أولاد عم و"ساميين"، وما آذيناهم؟!

فيما بعد، استمر أبو خالد يروي لي عن معالم أسدود، ويعدُني بأنه سوف يأخذني كي أرى بيارتهم وبيارة جدي، وحتى حينما رافقنا من رام الله إلى غزة لحضور المهرجان الفني الدولي الذي أُقيم هناك للمرة الأولى في صيف العام 95 أشار إلى النخلة التي تقع في منتصف الطريق بين أسدود وغزة، وروى لنا معالمَ الوصول إلى هناك في ذلك الزمن، لكن الأيام انطوت واحداً تلو الآخر، مثل درج عجيب يقود أصحابَه إلى مالانهاية، وإلى لا مكان. كنا ننغمس في شؤوننا العملية الضرورية ونبقى لفترات طويلة تحت الإغلاق العسكري المفروض على أهل الضفة الغربية، فلا يمكننا التحرُّك أو التخطيط لتلك الرحلة الضرورية.

وكان هو يعاود التأكيد على الشروع في رحلتنا كلما التقينا في مقر العمل أو في الشارع وتوقفنا لتبادل التحيات.

رحل أبو خالد عن الحياة، ولم يتسنَّ لي أن أزور بيارةَ جدي في اسدود. سمعت من عائلته لدى وفاته تأكيداً بأن المكان تغيَّر تماماً منذ زمن طويل، وأنه صار مزدحماً بالعمارات والشُّقق السكنية والبنايات العشوائية بعد أن اندثرت البيارتان.

حينما يصرخ المرءُ ولا يسمعه أحد، فإن صرخته تدخل حجراً وتتجمد هناك، وإن رفعَ المرءُ يده وصنع بالحجر رسالةً أو صرخة ما، فإنها تصل حتى لمن يتجاهل الالتفات إليها. الحجر وحده يثلم الصمت ويجعل المرءَ يعبِّر عما وصلت إليه الأمورُ من تجمُّد وانعدام أمل، وقد يكون هنالك حجرٌ عدوانيُ الهيئةِ يجثُم على صدر المرء، ولا يمكن له أن يتخلص منه الا بإزاحته من مكانه.

ذلك الحجر..

عندما وقفتُ خلف ذلك "الأباجور" المغلق، حاولتُ أن أرفعَه إلى الأعلى قليلاً لينفرج بعضَ الشيء، كي أستطيعَ أن أُوجِّهَ كاميرتي إلى الدبابة الضخمة التي تقف في الظلام مقابل شباك غرفة نومي. كانت قد توقفت وسطَ الشارع، ولم يفهم أحدٌ في الحي السببَ إلا حين رأيناهم يطرقونها بهراوة على جناحها، وكأنها راديو عتيق يحتاج إلى مجرد خبطة لكي يشتغل. ها هو الجندي يقف على برجها المفتوح، ويراقب كُلَّ شيء بانتظار النجدة من المستوطنة، حاملاً بندقيته. كان ما يفصلني عنه أقلَّ من مترين ونحن في مواجهة بعضنا، لكنه لا يراني. هو في مكان يتيح له أن يقفز على شرفتي افتراضياً، وأنا وراء "الأباجور" أتدارى وأتخفى في العتمة، وليس بالوسع تحريك "الأباجور" دون أن يصل إليه الصوت، لأن موقعه عملياً ملاصقٌ لشباكي. كيف يمكن للحدود أن تخرج عليك على غفلة منك، وتجعل من مساحة بيتك ذاتِها أو غرفتك احتلالا ًلا مثيل لهمجيته، حينما يأتي جنود ليجعلوا العالَم من حولك ساحةَ حرب؟

قضيتُ أكثرَ من أربعين دقيقةً وأنا أسحب الحبل، بطريقةٍ صامتة، أقلَّ من سنتيمتر بين لحظةٍ وأُخرى، لكي يصعد "الأباجور" إلى الأعلى وينفرج قليلاً. أريد أن أصوِّر ما أراه من وراء قضبان نافذتي. كانوا يصوبون مدافعهم وبنادقهم إلى بيوت الحي وهم في وضع الاستعداد، وكنتُ أحتمي بزاوية الجدار وأحمل الكاميرا الصغيرة ملفوفة في مِنشفة، لكي لا يظهر أي انعكاس للضوء الأحمر الذي يومض فيها لحظات التصوير. كنتُ أصوِّر دون أن أتحكم تماماً بمساحة الكادر، لأنني لا أستطيع حمل الكاميرا بالتركيز المطلوب وأنا في وضع بين الوقوف والقرفُصاء.

أخيراً، وبعد انقضاء زمن ما من التصوير، خطر لي أن أُنزل رأسي بين "الأباجور" وقاع النافذة لكي أتحكم بالكاميرا بشكل أفضل. في تلك اللحظة وجَّه الجندي شعاع الليزر الأحمر الخارج من منظار القنص المركب على بندقيته باتجاهي، صار الشعاعُ يلعب على حافة النافذة، رجعتُ إلى

الوراء وقلبي يدقُّ بصوتٍ عالٍ، فهذا يعني أنه انتبه إليّ، وأنه في بداية مرحلة إحكام القنص باتجاهي.

كان ذلك يشبه تماماً لحظة رأيت ذلك الحجرَ الاستعماري الذي كان يؤرقني على مدخل رام الله منذ عدتُ إليها، كنتُ أكرهُه وأُحسُّ بالشؤم كلما مررتُ بمحاذاته.

كان عبارةً عن نُصْب من حجر صخري، بدا وكأن فكاً حديدياً لجرافة ما قد سحبته إلى مدخل المدينة الجنوبي، وكانت عليه كتابةٌ عبرية تتكرر على أنصاب عديدة كهذه أقيمت في مواقع عديدة في الضفة الغربية تكريماً لمستعمرين قضوا في تلك البقاع. وفي العادة إن حدثت أي عملية فدائية هناك كانوا يقيمون أنصاباً كهذه ثم يصادرون الأرض كلها في سبيل إنشاء مستوطنة استعمارية عليها. بدا الأمر بمثابة اغتصاب للذاكرة وفرض الوجود الغازي بالعنف على سكان المكان.

رأيتُ ذلك الحجرَ ذاته صدفةً في فيلم وثائقي في أعقاب بداية تطبيق اتفاقية "أوسلو" صوره أناس من الجانبين، وكان يعرض عيّناتٍ من آراء وحياة أفراد من كلا الشعبين، وبينهم كان هناك إسرائيلي يقوم بجمع صور الشبان الفلسطينيين الذين يشك بأنهم ينتمون لتنظيمات فدائية تقوم بعمليات ضد المستعمرين، ثم يخطط لقتلهم ببندقيته قنصاً دون أن يتمكن أحد من متابعته. كان الرجل ضخماً ويرتدي فرواً غامقاً مثل دُب عملاق، وكان يحشر نفسه في سيارته بالكاد بسبب حجمه الهائل، وكان يعيش في مزرعة سطا عليها من السكان واستصلحها لنفسه قرب الخليل، وهو يلعن الفلسطينيين واليوم الذي وُجدوا فيه على الأرض، يجمعُ صور الشبان الصغار ويُخفيها في الجيب الأمامي لسيارته ويرصدهم بقصد قتلهم واصطيادهم ببندقيته. أشار للمصور إلى عدد من الصور التي يحملها في جيب معطفه، وقال إن الفلسطينيين قتلوا ابنه، وإنه على الرغم من أنه يعيش في مستوطنة قرب الخليل، فإن غارات صيده تمتد إلى رام الله، حيث قضى ابنُه وحيث قام هو بوضع ذلك النُّصْب الذي يكرم اسم ابنه على مدخل رام الله الجنوبي. أمعن الرجل قتلاً وقنصاً في الشبان الفلسطينيين، وواصل لعبة القاتل المتسلسل الذي يفعل ما يحلو له، لأنه يفترض أنه السيد حكماً، وأنه يمتلك الأرض والحياة ويستطيع أن يجرد العبد منها في كل لحظة.

كانت رؤية النُّصْب معلَّقاً على مدخل المدينة تقلقني وتذهب بأفكاري بعيداً، فمَن الذي سوف يجازف برفعه ما دام هنالك حاجزٌ للجيش الإسرائيلي يقف قريباً منه على مدخل المدينة؟ وما هو

نوعُ هذا العقاب المجنون الذي يطبِّقه هذا القاتل؟ ولماذا أحضر ابنَه المحتلَّ إلى هنا أصلاً ما دام كارهاً لأولاد هذه الأرض، وما الذي يدفعه هو إلى مواصلة الجريمة؟

حدث أن قامت هنالك مظاهرةٌ أُخرى، بل مظاهراتٌ، في مدخل رام الله الجنوبي، ورُفع النُّصْبُ الحجري المصنوع من صخرة كلسية لونُها ترابيٌّ بني.

ببساطة. لم يعد هناك.

كان هنالك فتيةٌ يتدفقون احتجاجاً على إقامة نفق تحت المسجد الأقصى في القدس. أحياناً يُحس المرءُ بأن البلاد عبارةٌ عن نبع يتدفق، وأن قطرات الماء هي الشبان والشابات يُرصِّعون الأمكنة كلها بحضورهم في المظاهرات حاملة همهم الضروري للحرية. ولا يمكن لهذه الينابيع أن تختفي إلا حين تمتلئ الأرض بزلزالها كما يتنبأ الجيولوجيون. قد تنضبُ المياه أو تتحول إلى بحر واسع يملأ كلَّ شيء، حينها يمكن لهذه القطرات أن تتبخر، أو تنضَب، أو أن لا تتبخر وتتخلَّق من جديد حياةً تعاودُ خلقَ نفسها، حياةً تُطور ذاتَها بذاتها مثل فكرة الحبة، تبدأ بِذْرةً صغيرة ثم تكبر وتتحول إلى شجرة. أولاد وبنات فلسطين هم البذور والشجر.

في مظاهرة النفق تلك، رأيتُ فتى يستخدم مقلاعه بمهارةٍ ضد عناصر حاجز الجيش المواجه، فيما الطائرات الهليوكبتر تحاول إصابته وزملاءه وهي تحلق على علو منخفض. علمتُ فيما بعد أنه أصيبُ بطلقات موجهةٍ عدةٍ منها. ذهبنا إليه لنزوره مع الكثيرين ممن توافدوا إلى مستشفى رام الله الذي امتلأ على آخره بأهالي الجرحى وأهالي المدينة الذين حضروا جزعين ليعرفوا مصير هؤلاء الشبان والفتية الذين كان العديد منهم في حالة خطر عالٍ. كان الفتى نائماً في غيبوبةٍ لم يصحُ منها أبداً، كان منتفخَ الوجه وقد استوعبَتْهُ الجروح الخطيرة وبدأت تسحبه من هذا العالَم، ظل غائباً عن الوعي حتى أسبوعين إلى أن أعلن الطاقم الطبي وفاته.

بدا كأن كل هؤلاء الشهداء والجرحى والمصابين قد أطلقوا قوةً دفعت أحداً لأن يشيل الحجر الغريب الذي يحمل اسم ذلك الجندي ابن المستوطن، ويرميه في بورةٍ ما بعيداً عن الأنظار، علاوةً عن انسحاب حاجز الجيش من هناك، وأخيراً رُفع الحجر الذي أُريد له أن يكون نُصْباً يخلِّد ابن قاتل متسلسل.

رُفع النُّصْب، بل تم تحريكُه ورميُه إلى الأرض وسحبُه تماماً من هناك بعد الاشتباكات التي حصلت لثلاثة أيام إثر إنشاء نفقٍ تحت الأقصى.

عندما كنا نزور الشاب الذي استُشهد لاحقاً، وكان وحيدَ أبويه، تهيأ لي أنني أرى بين طاقم الممرضين والأطباء وجهاً أعرفه.. عينان خضراوان، وهيئةٌ ذكية على بشرة عسلية. عاد أبو يوسف إلى خاطري، ورأيتُ كم يُذكِّرُني شكلُه بوالده. ها هو يوسف الذي عرفتُه مع أُمه وإخوته في لبنان، وقد اتصلَت علاقتي بعائلته المتحدرة من قرية الجاعونة في أرض فلسطين التاريخية. ذهبَت الأُم لتعيش في مخيم اليرموك في سورية مع أبنائها الكثيرين بعد استشهاد والده القائد الفدائي في إحدى القواعد القريبة من النبطية في لبنان، وفيما بعد وبسبب صعوبات الحياة هاجرت إلى السويد واستطاع يوسف الدخولَ إلى فلسطين.

آه، أبو يوسف والتمثال!

يا إلهي. الحجرُ الصغير الذي صار تمثالاً. تذكرتُ الحجر الذي قام أبو يوسف بنحته وهو في معتقل أنصار، حينما ذهبتُ لتهنئة عائلته بنجاته من سجن أنصار في أعقاب حرب لبنان الشهيرة. كان الإسرائيليون قد قبضوا عليه في صور، واحتبسوه في ذلك المعتقل مع عشرات الآلاف من المعتقلين، ذلك الجَسور الذي كان قائداً مقداماً لعناصره، ولم يهرب يوماً، سواء في حرب الجنوب أو غيرها، مثلما فعل غيرُه من عُتاة القادة الذين تحصَّلوا على المجد والجاه والاسم. أمضى أبو يوسف سنواتٍ في معتقل أنصار قبل أن يُطلقوا سراحه لعدم ثبوت تهمة معينة عليه، خرج وكان أثناء تهنئتنا له يحمل تمثالاً بحجم نصف كف يُظهر رجلاً في وضع القُرفصاء، وعيناه الكبيرتان محددتان بخطٍّ أسودٍ ثخين، يخلق انطباعاً بالرُّعب الذي يبين في عيون التماثيل الآشورية التي تعرَّض أصحابُها للتعذيب.

هل كان هو مَن نحت هذا التمثال الذي بدا ملتصقاً بيده وكأنه قطعةٌ منها! قال إنه والمحتجزون جميعاً هناك، كانوا ينحتون طيلةَ النهار ما يمكن لهم من حجارة صغيرة، لأن أرض الخيم التي تُؤويهم كانت مفروشةً بالحصى الكلسي الصغير الذي كان يتفتت بسرعة. لكنهم، أيْ نعم، كانوا يُحسون بالبرد في الشتاء، وبالحر الشديد خلال الصيف الحارق، إلا أنهم كانوا يحاولون أن يُمضوا الوقتَ القتّال وأن يفعلوا شيئاً.

سألتُه: طيِّب، لماذا يجلس هذا التمثالُ مقرفصاً مطويَّ الجسد مختصراً نفسَه إلى هذا الحجم الصغير؟

توقف عن الحديث وقتها ونظر إليَّ قائلاً:

لأننا كنا نجلس هكذا طيلة الوقت. لا تتسع الخيمةُ إلا لعشرين رجلاً، وكنا أكثرَ من ثمانين بداخلها. لم يكن هنالك مكانٌ لكي نمُدَّ أرجُلَنا ونرتاح.

تماديتُ حينَها، وعاودتُ سؤالَه، ولم أُخفِ افتتاني بالحجر الذي صار عزيزاً عليه مثل قطعة من قلبه:

هل يمكنك أن تعطيَني هذا التمثال؟

هزَّ رأسَه وشبحُ ابتسامةٍ يتأرجح على وجهه. كنتُ أعرف تماماً معنى الابتسامة. يظنني حمقاءَ لكي أطلبَ منه ذلك الحجرَ الذي كان سجلاً لعذاباته والمعتقلين معه، وأنا حكيتُ لأنني لم أدفع رغبةً عابرةً كي أرى مدى تشبُّثَه بحجر لا يمكن إلا لفنانٍ متمكن أن يشكله بكل ما فيه من تعابير البؤس والانتظار التي تخلِّفها سجونُ الطغاة منذ أبدِ التاريخ.

بعدَها بسنوات قليلة، عرفتُ عن استشهاد أبي يوسف الذي كان ما زال في رَيْعان شبابه آنذاك. رجع إلى قاعدته في الجنوب، وأُصيب مع عناصره بقذائف مدفعية آتية من الحدود. لم تتسع السيارةُ الوحيدة لكي تنقل الجميع إلى المستشفى، فأُرسل فيها كل المصابين الذين كانوا معه عداه هو. ظل واقفاً ينتظر على باب القاعدة والدماء تنهمر من رجله، إلى أن خلت شرايينُه منها ولم تعد في جسده قطرةٌ صالحة لمحاولات الإسعاف، حين عادت إليه السيارةُ من رحلتها الشاقة بين المستشفى والبراري.

طبعاً لم أسأل عن التمثال، ولن أسأل يوماً. يكفي أن ابنه عاد إلى الوطن ليحقق أمنيةَ والده من حيث لا يعلم.

أرض الرحيل والرجوع

مازالت على حائطي تلك البلاطةُ البورسلان الصغيرة التي رسمَتْها هدى أُم سماء، بيدينِ مرتجفتين، هي التي لم تستسلم لتأثير المرض الذي جلب الشلَل إلى جانبها الأيسر ومنعَها من الحركة. كانت تستخدم كرسيّاً متحركاً للتنقل في دارها وجلب كأس من الماء من المطبخ.

عدتُ أتذكَّر اختلاط الماضي بالحاضر في تلك البلاطة البورسلانية المعلقة في بيتي. كانت قد أهدتني عليها رسمَها لـ"نفرتيتي" بكامل بهائها وشموخ رقبتها ورأسها المتطلع إلى الأمام، وكأنها تُحدِّقُ في أبد الزمان الذي حفظ وجودَها بالألوان اللطيفة التي تكسو بشرةَ وجهها الصافية، وبعينيها المرسومتين بالكُحل الأسود الذي لم ينلِ الزمنُ منه شيئاً.

لم أعُد أستطيعُ الوصول إليها.. أنا التي كنتُ أتحرق لرؤيتها قبل أن تسافر. في نهاية عام 2000 صارت كافةُ الطرق إلى القدس ممنوعةً، والوصولُ إليها خطراً.

أراها الآن في تلك التطاريز الجميلة كلما زرتُ المتحف، فهي التي عملت طويلاً مع المديرة على تأسيسه، ولولا جُهدها الشاق لما بُني ذلك المتحف الصغير الذي يضم كلَّ تلك الأثواب الشعبية الساحرة في مدرستنا المقدسية.

لولا هدى، لَما تولّد عن صداقتها وهوايتها المشتركة مع المديرة هذا الإرث الجميل، لأن مديرتنا تهوى تطريز القطبة "الصليب" الفلاحية" على قطع قماش مربعة، تعرضها في إطارات كبيرة داخلَ بيتها الذي يقع في الطابق الثاني من إحدى بنايات المدرسة. كانتا تفتشان عن القماش عن أشكال جديدة من الطبيعة، تبرز عبر تطريز وحدات زخرفية ترسم فصولَها ورياحَها وأمطارَها، وزهورَها ونباتاتِها وأشواكَها وأعشابَها، ونجومَها وكواكبَها، وأشجارَها وتمائمَها ونسائمَها الرقيقة، فهي القطبة الأكثرُ حساسيةً لترددات الزمن، على رغم أنها تنحدر من عصور لا ندريها، ومن

أصول لم يعرفها أحدٌ حتى الآن، وربما كانت اختراعاً يشبه الأشكال "الرقمية" المعاصرة، حيث يمكن لكل شكل أن يجد تردداته عبر نقاطٍ تمثِّله. ولأنهما كانتا شغوفتين بالتطريز، فقد عملتا على إنشاء هذا المتحف الشائق للحياة الشعبية الفلاحية القديمة بكل ما فيها من أدوات وملابس وطقوس.

كان المتحف بما يحويه يشبه أن يكون كنزاً شخصياً لي بعد عودتي من غياب طويل، فقد ضم الأثواب التي كنا نرتديها ونقدم الدبكةَ بها خلال احتفالاتنا بعيد الميلاد السابقة، التي توقفت تماماً مع بدء الاحتلال.

وكان بمثابة رشَّةِ ماء على الذاكرة التي تجمدت في الخارج على رسوم الكتب والصور البيانية وليس على تطاريز الحياة. لن أنسى كيف أخذتني أُم سماء إلى هناك بفرح، وجعلتني أرى كيف كانت تعمل على إبراز كل قطعة تعرضها وتعود إلى خلفياتها وتفتّش عن قصة نشوئها.

لكنني لا أستطيع الوصولَ إلى القدس كي أودِّعها الآن، لأننا تحت الإغلاق الذي يشبه منعَ التجول،

ولا أستطيع مهاتفتها لأن الكلام يكلفها عناءً كبيراً، وهي التي تلفظ الحروفَ بصعوبة جمة بعد أن صارت تعاني من صعوبة النطق إثر جلطة حادة.

هي أُم صديقتي سماء، ومثلَ أُمي ومثلَها تماماً كنتُ وسماء صديقتَينِ، الروح بالروح، وزميلتين في المدرسة الداخلية. كانت تقاليدُ العائلات المقدسية العريقة أيام أُمهاتنا تبعث بالبنات إلى الأقسام الداخلية بأمل أن ينلن أفضل أنواع التعليم، أما معنا، فبدا أن ظروف أهلنا الشاقة هي التي أرسلتنا إلى هذه المدارس. أهل صديقتي يعيشون في المغتَرَب البعيد، حيث من الصعب إيجاد مدارس لها ولإخوتها، وأهلي يواجهون ضائقةً مادية بسبب دخول والدي السجن السياسي، ما أدى بهما إلى إرسالي وأخواتي إلى القسم الداخلي، لأنه شبهُ مجاني.

أخيراً، استطعتُ الاستدلال إلى طُرق خلفية ومتعرجة كلفتني المشي ساعات كي أدخلَ إلى القدس الممنوعة، وكلي خشيةٌ من أعين الجنود المتفحصة التي تجول هنا وهناك بحثاً عن الداخلين بالتهريب دون أوراق رسمية وأنا معهم. لكنني، عندما وصلتُ لأعطيها الصور بعد تظهيرها لم تكن هناك.

كانت قد سافرت مع الأقارب إلى أمريكا، حيث تنعدل أمورُ الجميع عداها.

قبلها، في الزيارة السابقة كنتُ ألتقط صوراً لحديقتها، وأنا أعدُها بأن أُرسلها لها.

تؤشر صوبي بكلماتها المتعثرة، وتمدُّ بضعةَ أصابعَ من يدها السليمة التي لم يصبها الشلل، وتخبرني:

أربعة!

أسألها:

منذ أربع سنوات وأنت تزرعينها؟!

تمدُّ لسانها المتلجلج، وتُزيحُ وجهَها نافية:

لا، لا، أربعة!

تتوسل إليَّ أن أفهم.

أقول، حائرةً، من دون أن أعرف مدى ترابط أقوالي مع ما تقصد إليه:

طول عُمْرِكْ وإنتِ تِزرعيها...؟!

أومأت برضا، وأشارت بالتتالي صوب الزوايا الأربع كلها.

كانت تريدني أن ألتقط صوراً من الجهات كافةً لهذه الحديقة، التي تقع على ربوةٍ عاليةٍ، هي قلب "الشيخ جراح"، ويظل المستعمرون يتدافعون إليها بين الحين والآخر لاحتلال بيتٍ جديدٍ فيها، زاعمين أنّ ملكيتها تعود إليهم منذ ما قبل التاريخ.

حولَنا كانت نباتاتٌ منزلية قليلة تغلّب غياب مرض صاحبة البيت على وجودها، فمالت إلى أن أصبحت شبه برية. (المارجريت) الأبيض ذو القلب الليلكي المائل إلى الأسود، وزهرات (النسيم) الصفراء الهشة منطويةٌ على نفسها، كأنها على خشيةٍ من رَفّات الهواء ذاته، وزهرةٌ وحيدةٌ من (بنت القنصل الصفراء) التي كانت تحبها أُمي، وبدت في حديقة الدار المسوَّرة بجدارٍ حجريٍّ طويل وكأن نموَّها حدث بصدفةٍ عابرة، على رغم أن انعزالها يوحي بكبرياءٍ مُبالَغٍ فيه.

قالت لكي تحثَّني على مواصلة التصوير:

كل شيء. بدي!

أردتُ أن أُطمئِنَها:

أنتِ مَن زرعتِ، وشتَّلتِ، ونكَشتِ أكثر من أربع سنوات، لا بل كل العمر حتى صارت هكذا.

نعم. نعم. أنا! أنا!

قالت وازدادت انغماراً داخل دموعها، كمن يحتمي من المطر بسيول جائحة.

كانت تُحسُّ بأن سفرها مع الأهل إلى أمريكا سيكون بمثابة لجوء إلى الجحيم ذاته. ليس هنالك مَن يمكن له رعايتها بعيداً عن عائلتها إن ظلت وحيدةً هنا، وخصوصاً في ظل غياب الأبناء في المهجر.

لا أعلم، لم تبكِ هذه المرأة التي يبدو وجهُها وكأنه قد تحدَّر إلى العالَم منذ ما قبل الخليقة. تهتز كلما دفَعَت رجلَها المشلولة، وظهرَها المنحني، وهي تحاول إخباري بأنها هي مَن صنع بهجةَ هذه الحديقة، ورُواءَها الربيعيَّ المتأخر، على رغم أنها هي نفسُها مَن تعجز الآن عن المشي أو هبوط الدرجات القليلة دون مساعدة.

لا أذكُرُها، في العادة، إلا وأتذكرُ ذلك الكيسَ الصغير المطرَّز بورود (الأوبيسون) الذي أحضرته لي هديةً بعد عودتها من عدن. ذهَبَتْ إلى هناك في عز صباها وعقب ترمُّلها المبكر لتعمل في سلك التعليم. كنا في بداية المرحلة الإعدادية حين كنا نراسلها أنا وابنتها من المدرسة المقدسية بشكل أكثر دقةً وانتظاماً مما تفعله العائلةُ كلها. كان إصرارُنا العجيب على كتابة أدق التفاصيل في حياتنا لها ونحن فتاتان صغيرتان، يخلقُ سماتٍ استقلاليةً تكافح عجزَنا المشترك عن الخروج من أسوار المدرسة الداخلية، وربما أيضاً بسبب إعجابي الفائق بقدرتها على المغامرة والرحيل، لأن سفرها كان الوحيد الذي جعلني أعرف أنه يمكن للأمهات الابتعادُ والانتقال إلى أماكن أُخرى كما يفعل الأبطال الخياليون كالسندباد البري أو البحري. معظمُ النساء المتزوجات واللواتي لهن أطفالٌ

كُن ثقيلات ويعجزن عن السفر. هي وحدها مَن استطاعت أن تُنبتَ أجنحةً شفافة أخذتها إلى عالَم جديد بعد أن ألقتها صدمةُ فقدان زوجها وتيتُّم أولادها باكراً في غياهب المأساة.

هذا ما ظلت تردِّدُه أُمي التي ظلت مرتبطةً بتطريزاتها وبَكَرات خيوطِها الحريرية، وكانت لا تكفُّ عن صناعة الأقمار والنجوم والأزهار الملونة بالإبرة، لترصِّعَ بها الشراشفَ والمناديل ووجوهَ المخدّاتِ وفتحات قُمصاننا الداخلية القطنية المصنوعة من قماش "فانيلا" دافئ. أُمي التي لم تغادر البيت يوماً، على رغم أن أحلامَ يقظتها تدور غالباً في أمكنة أُخرى وثيقة الصلة بأبطال روايات إحسان عبد القدوس وبلزاك. أُمي نفسُها هي التي ساعدت صديقتَها على الاقتناع بفكرة الرحيل المؤقت إلى أن تهدأ لوعتُها على فقدان زوجها، وهي التي أخبرتها أنها ستجد الكثير من الوقت، فيما بعد، للعناية بأطفالها.

ستكونين معهم حتى التخمة!

هكذا وصفَت أُمي الوضعَ حرفياً.

غافلةً عن أن جناحَ الموت الأصفر سيلحقها بعدها بعامين أو ثلاثة، وأننا، أطفالَها السبعة، سوف نعجزُ حكماً عن الاستفادة من زمن التخمة الذي تخيَّلَتْه يفيض من علاقة الأطفال بأمهاتهن.

في هذه الحديقة التي تبكي زينبُ عليها الآن، مكررةً من جديد سفراً لم يُنبت لها في السابق جناحين شفّافين على ظهرها، كما صوَّرَ لي الخيال، كنتُ أقفُ مع صديقتي سماء في بداية سني المراهقة.

ننسحبُ إلى أبعد زاوية فيها خوفَ أن تتسلل أحرفُنا السرية إلى صور الأجداد داخل بيوتنا المحافظة. نتبادل فيها أحاديثَنا الخفيضةَ حول الشبان الذين نلاحقُهم أو يلاحقوننا من بعيد لبعيد دون كلمة واحدة، ونراقبُ نموَّ صدورنا الصغيرة لكي نُثبتَ أننا لم نعد طفلتين، ونحن ندرس احتمالات تألُّق الجمالي في الألوان التي نرتديها، نخططُ لحيوات قادمة حافلة بالزيارات، والسهرات، والرحلات البعيدة إلى مُدنٍ أُخرى تفوق روعةَ تلك الرحلات المدرسية بين المدن والقرى القريبة دون أن ندري، أو يخطر لنا ولو لحظةً واحدة، نحن مَن كنا لا نُطيق فراقَ بعضنا ولو يوماً واحداً، أننا لن نتقابل أحياناً الا كلما مرت عشرُ سنوات أو أكثر، وأن واحدةً منا سوف تعيش سنواتٍ طويلةً

في بلاد حوض البحر المتوسط قبل أن ترجع إلى بلدها، وأن الثانية سوف تواصل العيشَ في بريطانيا بسبب الهجرة الاضطرارية لزوجها إثر الحرب اللبنانية الأهلية.

حقيقةً، إن جميع الأفلام التي حضرناها في السينما القريبة مصفِّقَتين مع الجمهور لأبطالٍ خرافيين، مثل ماجستي الجبار وطرزان القاهر والآباشي القوي، لم تنفعنا في إثارة القليل من إيقاعات الخيال الجامح كي نتصورَ ما الذي سوف يحدث معنا بعدها، فمَن يصدق أن القدس صارت خاليةً من أهلها؟! وأن الغُزاة ما زالوا يعملون على تشتيت وطرد مَن تبقى منها.

ثم إن معظم من نعرفهم لا يستطيعون القدومَ بسبب الإغلاق المفروض على القدس إلا بالتسلُّل عبر مناطقَ مهددة بالقنص العسكري. حتى سماء ابنتُها وصديقتي الأعز لم تستطع يومَها القدومَ من بلدٍ في أقصى الشمال لوداع هذه السيدة ذات الشعر الأبيض، التي يُشعرها قلبُها بأنها لن ترجعَ بعد أن تمضي إلى أمريكا للعيش مع ابنَيْها هناك.

في بيتها، وقبل الرحيل، جلسَت على كرسي خشبي منقوش بالصَّدف يفوق عمرُه المائةَ عام، كما أخبرتني، وكان منقوشاً عليه (الصبرُ عند المصائب).

جمرٌ تحت شجرة الجُمّيز

كانت المدينة محاصرة، وقد تم إحكام القبضة على كل ما فيها، سيما مبانيها العامة التي يعتصم في واحدٍ منها الرئيس السجين، من دون أن يستطيع الخروجَ منه. وكانت فترات الإغلاق المعلنة تزداد وتتمدد بشكل متواصل قبل أن يبدأ اجتياحُها الفعلي بأسبوعين. كان على طاقم الفيلم وأنا معهم أن نلتحق لأيام قليلة بمهرجان دولي سيعرض فيلمَنا الذي سيروي حكاياتٍ وحكايات عن حصارنا هذا. استطعنا أن نجد سياراتِ أُجرة غامر بعضُ سائقيها بالتحرك عبر وصلات واتجاهات متعاكسة. كانوا يقومون بالنزول أولاً إلى طريقٍ معاكسٍ لوجهتنا، وهو "عيون الحرامية" المتجه شمالاً إلى نابلس، ثم الذهاب شرقاً عبر ممراتٍ خطرةٍ وسط جبالٍ جرداء تكاد تصل إلى عنان السماء، فيما محركاتُ العربات تجأَرُ في الدروب الخلفية لكروم العنب والتين وأشجار الزيتون، ثم هبوطاً عبر طريق المتعرجات إلى أريحا. كل ذلك كان من أجل تجنب ممالك المستوطنات التي تنتشر على أراضينا كالنار في الهشيم. كان الوصولُ إلى أريحا هو الطريق الوحيد للخروج عبر جسر اللنبي، إلا أنه كان هناك أيضاً حاجزٌ للجيش من جهة طريق المتعرجات، لأن الإغلاق ينطبق عليها أيضاً. تحتَّم الدخولُ إلى أريحا عبر صعود الهضاب الغربية العالية التي كانت السيارات تجري فوقها متأرجحةً وعلى وشك السقوط، كأنها في "سيرك" له حبالٌ وقضبان غيرُ مرئية، ما جعل من حركة العربات معجزةً ساطعة على تحدي البشر لشروطهم الاعتيادية.

هكذا استطعنا الدخولَ إلى أريحا والعبور منها إلى الجسر، إلا أنني، من بعيد، شاهدتُ عدداً قليلاً من أشجار الجُمّيز العتيقة تلك، فأعادتني هذه الأشجار إلى جُمّيزةِ أبي سعيد وسهراتِه القديمة تحت الشجر قبل أن يبدأ هذا الاجتياح.

لم نكتفِ وأقراني خلال عقود المحبة تلك، بأبٍ واحدٍ أو أُم واحدة، فقد كنا ننتمي إلى الأهل جميعاً، ونشعر أن لنا حصةً فيهم حتى ونحن نلعب "الإكس" و "السبع حجار". كان من المعتاد أن

يتم التعاملُ بين الأهل والأطفال على أساس أنهم ينتمون إلى بعضهم جميعاً، فالآباءُ والأمهات يخُصّون الجميع. كان ذلك نوعاً من "اشتراكية" عاطفية تطبَّق بين العائلات بشكل تلقائي، ولهذا لم أُفاجأ عندما عدتُ إلى فلسطين بعد غيبة الأعوام الطوال، عندما لاقاني العم أبو سعيد النعماني على الجسر كي يؤكدَ لي أن عصرَ الآباء لم ينتهِ، وأن الأصدقاء هم الأهلُ أولاً وأخيراً. سهرنا في بيته في أريحا طويلاً تحت جُمّيزته السامقة، والأغصان الصغيرة التي جمعها في كومةٍ صغيرة تشتعل، وفوقها إبريقُ الشاي الريحاوي بالنعناع، وقِطَع الحطب تتكسر وتتحول إلى جمرات تلوحُ حمراءَ في البداية، ثم لا يلبث الطحينُ الرمادي أن يغطيها ويغمرها فتخفتُ رُويداً رُويداً. كانت الأحاديث تدور وتلفُّ وترحل صوب أماكنَ بعيدةٍ، ثم تعود لتصبَّ في مجرى الأحداث التي تتتابع أمامَنا منذ تواريخ قديمة لم نلتقِ فيها، وكأنها سربٌ كثيف من النحل الذي يمكن له أن يصيبنا بعقصاته، أو يخلِّف لنا أقراصاً من شهدٍ وعسل.

كان عمي الكهل أبو سعيد يحدثنا بعينيه الصغيرتين العسليتين، وسوالفه التي وَخَطَها الشيب، وبابتسامته التي تدل على مكرٍ وطرافة، وعلى حُبِّ السخرية أحياناً. يشبه ذلك ما فعله عندما اكتشف أن بإمكانه العودةُ إلى (يازور) بعد احتلال إسرائيل للضفة الغربية العام 67. لقد سمع أن الجميع يذهبون إلى بلداتهم ومُدنهم وقراهم المحتلة ليتفقدوا رنين الماضي، ولذا قرَّر أنه لن يكون مختلفاً عنهم "وما في حدا أحسن من حدا".. وهكذا ذهب إلى قريته (يازور) التي صارت بعيدةً عن خط الأسفلت الرئيس.

أوقف سيارته "الشيفروليه" الخضراء موديل أول الستينيات بعيداً عن الشارع الرئيس، ونزل إلى القرية التي أفرغَتها العصاباتُ الصهيونية العام 48 من سكانها وصارت مهجورة. كان قرارٌ ما حتى ذلك الحين قد عطَّل التمدُّدَ الاستعماري فيها، ولذلك عثَر بسهولة على بيت أهله الذي كان قد نُهب أثاثه، وعندما دفع الباب المغلَّف بالسلك لكي لا يسمح للحشرات الطائرة بالدخول، وصار في قلب الدار، أحسَّ بشُعور كثيف لا مثيلَ له، يشبه سعادةَ من وَجد عُمره الضائع، وهكذا بدأ في الاعتياد على أن يذهب في عطلةِ كلِّ أسبوع لينامَ هناك، مصطحباً معه بطانيةً وقنديلَ زيت وزجاجات مياه وبعض الخبز والجبن النابلسي الأبيض، مع "سبيرتو" صغير لصُنع الشاي والقهوة، ثم بدأ في زيادة أغراضه داخل البيت إلى أن وجد أن بإمكانه فرش المكان بشكل أكثر راحة. وهكذا استأجر حنطوراً في أحد الأيام ونقل إلى الدار مقاعد قشّيَّة وطاولةً صغيرة لإعداد الطعام وقطعاً صغيرةً أُخرى، توطئةً لإحضار عائلته ومشاركتهم معه روعةَ المكان.

أن تكون في يازور. يا لَلروعة!

حتى لو كان وحيداً ولم يكن هنالك أحداً معه. كان يستمتع بكل ما حوله وخصوصاً حينما يستنشق الروح الشذية لزهر البرتقال في البيارات التي تمتد وتتمدد في أرضها بالرغم من إهمالها، والروائح الخضراء التي تنطلق صبحاً وعشية وتغمر العالم بنوع نادر من الحنان والمودة. يفرح وهو يراقب أشجار بيتهم التي كبرت الآن، واعتاد السهر تحتها عندما كان صغيراً في المدرسة.

كان يمكن له أن يُغلق عينيه ويتخيل أن المكان يعجُّ بالبشر والناس مثلما كان، وأن الأصوات تتطاير حوله في سويةٍ تشبه الشرارات التي تديرها الجمراتُ الكبيرة قبل ان تنطفئ. أحس بأن وجوده يستدعي حياة الكثيرين ممن طُردوا خارج القرية وخارج البلاد، وأنه سوف يُقنع مَن بقي من عائلته وآخرين من عائلات أُخرى من أقاربه وأصحابه لكي يظلوا على صلةٍ ببلدتهم، وأن يعودوا إليها حتى ولو في نهايات الأسبوع على الأقل.

أخيراً، أتى اليوم الذي حمل فيه أخيراً بعضَ قِطعٍ من عفْش بيته ونقلها في سيارته، ثم حملها إلى حَنطور جلبه مع سائقه من رصيف البحر في يافا. كان قد شطف البيت كلَّه من مياه بئر لم يدمره الغزاة لأن موقعه كان مخفياً تحت شجرة خلف الدار. جفَّف الأرضية القديمة، وحضَّر لنفسه كأس شاي مع النعنع، ثم جلس ليرتاح حينما باغتته في العشية أضواءُ وعويلُ سيارات نجدة وشرطة، لم يصدق نفسه، خرج مرتجفاً بين الصفارات والميكروفونات التي اتجهت إليه بصوت عالٍ: اخرُج وإلا قتلناك.

ارفع يديك إلى الأعلى.

اخرج. وإلا قتلناك.

سلطوا عليه أضواء كشافات قوية تكفي لإنارة ملعب كرة قدم كامل، ورفعوا صوبَه أسلحةً تكفي للهجوم على بلدٍ طويلٍ عريض.

وهكذا.. هكذا..

كان ذاك خروجَه الثاني لعودة لم تتكرر.

لم يغادر أبو سعيد أريحا بعدها، وعلى رغم أنه بنى بيتاً وعمَّر مزرعة هناك، فإنه أبداً لم يُحسَّ بأي متعةٍ في القيلولة مثلما كان يغمرُه النعاس تحت الأشجار المعمِّرة في يازور، ولم يجد أية مملكة من أشجار أو تراب يمكن لها أن تُعيدَ له حياتَه التي فقدها في يازور إلى الأبد.

أُوكسجين

كانت الواحدةَ صباحاً في ذلك اليوم العام 2003، إحدى اللحظات السحرية في الحياة حينما تدافَعْنا عدواً إلى المقاطعة، إثر فك الحصار عن "الختيار" الذي كان مهدداً بالطمر تحت الردم مع مئات من العاملين والمتطوعين والمتضامين العرب والأجانب. خلال الشهرين الماضيين لم تتوقف الكماشاتُ الحديدية للجرافات عن هدم الأبنية التي كانوا فيها دون توقف، ذهبنا ركضاً وسط الليل الدامس بسبب قطع الكهرباء نهائياً عن ذلك الجزء من المدينة، لم نعرف كيف وصلنا، كل ما أذكرُه أننا اجتزنا بحوراً من غبار وتراب بدا وكأنه دقيقٌ من الخرسانة وتراب الأرض معاً، وأنني كنتُ أتجنب الغوصَ في بحيرات الغبار المزعج هذه دون جدوى. ركضنا فوق أشلاء الدمار والتراب المفتَّت والمسحوق الذي تحول إلى شكله الأسمى وهو الغبار الأسود البني الداكن المخلوط بزيت وقود الآليات، وسِخام القذائف المُحرقة التي تبث رائحةَ الموت يتحسُّسه الجسدُ برُعب من وجوده الخفي قبل أن يراه. كانت مباني المقاطعة مهشمةً، وجزءٌ منها ساقطاً على الأرض، أما في الجزء الصغير المتبقي حيث كان سكن "الختيار" دوماً، فقد كانت الظلمةُ شديدةً ومخترَقة بكتلة دائرية من النور القوي تُشع من أضواء وكشافات أجهزة التصوير التليفزيونية والفوتوغرافية، وكان هو هناك وسط َهالةِ الضَّوء الساطع مع فتاة صغيرة في الرابعة تجلس على ركبته اليسرى وهو يُطعمها لوحاً من الشوكولاتة. كان قد انتهى من إجراء مقابلة صحافية للتو، أطفأ طاقمُ التلفزيون الأضواءَ فعاد الجوُّ معتماً ذا ضوءٍ شحيح، مصدرُه البطاريات.

كان يجلس بهدوءٍ معها وكأنهما وحدهما.. بمنتهى الهدوء، كأنه شيخٌ يطعم حفيدتَه وهو يُجلسها في حُضنه ويساعدها على ترتيب اللوح وتقسيمه إلى قطع.. كأن شيئاً لم يجرِ من قبل أو بعد.. كأن العالَم يبدأ هذه اللحظة.

كأن وجودَها وحده يأتي بنسمةٍ من هواء العالَم الطبيعي الذي انقطع عنه زمناً طويلاً.

.. لفحةُ ربيع طارئٍ ما عاد أحدٌ يحلم باسترداده.

زيارة إلى الميناء

إلا أن عمي أبا سعيد ظل يُلحُّ عليَّ لمعرفة أخبار صاحبِه وقريبنا المهندس الحاج عبد الرحمن، الذي كان صديقَه المقرب منذ التقيا في حفلة عرس صديقٍ ثالث لهما كان يعمل معلماً في ثانوية أريحا للبنين. ولم يكن لقب "الحاج" دلالةً على قيامه بالشعائر، إنما كان لقباً تكريمياً أُطلق عليه لسبب غامض غير معروف، قد يكون طيبتَه الشديدة ورغبته العالية في مساعدة الآخرين. هاجر قريبُنا الحاج قبل أن تحدث حربُ الأيام المشؤومة للعمل مع شركات نفط خليجية ويابانية على شواطئ صحراوية قاحلة، ولم يعد بعدها إلى أريحا. كانت صداقتُهما قد ترسخت منذ أيام الشباب وقبل أن يتم غزو البقية الباقية من بلادنا عبر احتلال يشبه وحشاً يلتهم الوجبات الجاهزة المحضَّرة سلفاً.

كان الحاج عبد الرحمن، الذي مازال يتمتع بحِس فُكاهةٍ لا يخفى، قد أفنى شبابه وعمرَه في صحارى النفط، لكن عمله انتهى هناك منذ سنوات، ولم يجد بُداً من الهجرة من جديد مع عائلته إلى أمريكا، بعد أن اكتشف أن الاحتلال يعتبره وعائلته غرباءَ لا يمكن لهم العيشُ على أرضهم.

بطريقةٍ ما، كان أبو سعيد يأمل أن يصل صديقُه وقريبُنا الحاج إلى فلسطين يوماً مع فوجٍ من الأفواج العائدة، التي وصل كثيرون منها ممن لم ينتظرهم أحد.

قبل هذه العودة الجزئية للبعض بزمنٍ طويل، كان أبي، بدوره، قد ذهب مضطراً إلى الخليج لإيجاد عملٍ بعدما مُنع من العودة إلى موطنه، في أعقاب تلك الحرب السريعة التي أصدر الغزاةُ فيها فرمان "الإحصاء السكاني"، طاردينَ منه كلَّ من لم يمكث في بيته أثناء لحظة الإحصاء تلك.

فتَّش والدي عن قريبه عند وصوله إلى صحارى ذلك البلد الخليجي، وعثر عليه طبعاً. بالطبع لم يعدَم صديقُه وقريبُه الحاج عبد الرحمن فرصةَ إقامة عزومةٍ حاتميةٍ في بيته، قام بعدها

بتعريفنا على المدن الصغيرة سريعة التركيب والفك التي أقامتها شركاتُ النفط لموظفيها القادمين من الخارج، كما تلطَّفَ وأخذنا لزيارة أصدقائه الجُدد، وهم عائلةٌ يابانية دَمِثة ومضيافة، حيث رأينا طقوسَ تناول الشاي للمرة الأُولى في حياتنا.

لم يكن لدينا أهلٌ سواه في تلك المجاهل البعيدة، وهكذا سمع عمي الحاج عبد الرحمن عن احتجاجاتي، وهو يقوم بزيارته المعتادة لنا يوم العطلة، وعرف تذمُّري من كوني لا أمتلك ملابسَ مناسبةً لكي أذهب بها إلى الجامعة لأول مرةٍ في حياتي. كانت ستكون سنتي الأولى، وكنت أطالب والدي بتوفير بعض ما أحتاجه، لكنه كان يتهرب ويمتنع عن الإجابة، إلى أن اعتذر قائلاً: إننا لم نعد نملك إلا ثمنَ الطعام، بعد أن فقدنا بيتنا وكُلَّ ما لدينا هناك في مكاننا الأصلي. حردتُ وذهبتُ كي أعتكفَ في الداخل، لولا عمي الحاج الذي ناداني وأغرقني بسيلٍ من النكات والألغاز التي كانت سبيلَه السحري لبث الضحكات من جديد، وكان يحوز عبرَها على شعبيةٍ عاليةٍ في البيت وحيثما حلَّ بين معارفه. ولكي يحسم غبارَ الجدل والنكد، تطوَّع لأخذي إلى المرفأ الكبير.. إلى ما قال إنه دكانٌ من نوعٍ خاص، يقوم ببيع ملابسَ بسعرٍ مخفَّض، حيث لن يعدم الحصولَ على ملابس أو قطعٍ منها بأسعارٍ معقولة مما أحتاجُه لدراستي الجامعية.

في اليوم المنشود أتاني بسيارته "الدودْج" القديمة ذات اللون التركواز الفاهي المائل إلى الامِّحاء، وذهبنا صوبَ المرفأ الذي رأيتُه بحراً شاسعاً ترسو فيه سفنٌ عملاقة لم يخطر لي سابقاً وجودُها في بلدٍ كهذا، تتسع فيه الصحراءُ برمالها المالحة كي تطغى وتبتلعَ كل شيء، بما في ذلك البحر ذاته. كانت سفنُ النفط العملاقة تقف هناك، والعمال في حركةٍ دائبةٍ يصعدون وينزلون منها، والبحّارة الأجانب يتحركون فوقها، فكأن كلَّ واحدة منها مدينةٌ صغيرة متنقلة. وعندما سألتُ الحاج عن المحل، أخبرني أنه سيأخذني لصاحبه، الذي اكتشفتُ، بدوري، أنه لا يملك دكاناً بالطريقة المعهودة التي نتخيلها، وإنما مخزناً خلفياً واسعاً يعج بآلاف الأكياس المغلقة التي تضم أشياءَ كثيرة.

عندها شرح عمي الحاج ما نريدُه للرجل الذي بدا أنه حارسُ المكان، فَهِمَ علينا وبادَر إلى فتح بعض الأكياس المكدسة فوق بعضها، وسحب منها بعضَ الثياب، ثم طلب مني اختيارَ ما أريد منها. لم يكن هناك مكانٌ للقياس، لكنّ الحارس الكهل، وبناءً على إلحاحي، أشار إلى زاويةٍ وراء الأكياس المتراكمة في خلفية المخزن، وذهب مع عمي الحاج إلى الخارج، وأغلقا الباب الرئيس، مصدر النور، بحيث صار من الصعب أن أرى جيداً وسط العتمة السائدة، إلا أنني استطعتُ أن

أنتقي طقماً كُحلياً من "الجرسيه" القطني، وفستاناً ملوناً بالزهور، وقميصين كانا أكبر من حجمي قليلاً.

ذهبتُ إلى الباب وفتحتُه، وناديتُهما مشيرةً إلى ما اخترتُه، وهكذا حملتُ ما أخذتُه على ذراعي من دون كيسٍ أو غطاء، ورأيت الحاج يدفع خمسةَ دنانير للحارس، وعندها أدركتُ أنّ المكان ليس دكاناً تقليدياً، بل كان مكاناً لتخزين ما يبدو أنه البضائع التي ضاعت أو تخلَّف أصحابُها عن استلامها.

في الأيام المقبلة، أُعجبتُ بحكمة الحاج وحنكته غير التقليدية، فقد حلّ مشكلةً عويصةً لوالدي، الذي كان يظن أنه سيتكلف أضعافَ ما دفعه قريبُنا. وكأن قريبي الحاج عبد الرحمن استجاب لأمنيات صديقه أبي سعيد غداة عودة الكثيرين، فعاد إلى أريحا على غير انتظار، من دون أن يصاحبه أيٌ من عائلته التي ظلت في القارة البعيدة لارتباطات أبنائها. كان الحاج يعاني من مرض ضعف عضلة القلب، ورأى في عودته إلى الوطن، في الأشهر الأولى التي أعقبت رجوع العائدين من الكوادر الفلسطينية، فرصةَ العمُر لكي يعودَ إلى بيته الذي أمضى فيه شطراً من عمره في أريحا، قبل هجرته إلى الخليج.

رجع الحاج، وسهِر كلَّ ليلة على نيران الجمر التي يغلي فوقها الشاي في بستان أبي سعيد وتحت جُمّيزته. كانا يسهران معاً وهما يراقبان إشعاع الفحم واشتداده، ثم تحوُّله إلى جمرات حمراء خافتة، وكان يروي لمن يشاركهم السمر من الضيوف والجيران هناك كيف استردَّ بيته القديم بعد أن دخل في قضايا حقوقيةٍ ونزاعاتٍ قانونية. كان هناك مَن سكن بيتَه الواسع المصنوعَ من الطين واللبن والقش خلال سنوات غيابه الطويلة، وادعّى أن البيت له، وقد استطاع استعادةَ بيته عبر مُحامٍ صار من أعز أصدقائه أيامها. كان يستمر في إصلاح شؤون البيت، وأتى بعاملٍ مُتخصّصٍ في شؤون البناء القديم المصنوع من خامات الأرض التقليدية، لكي يرتِّبَ جسدَ البيت الذي حنا عليه وسكنَه في أيام العز القديمة قبل أن يصبحَ المنفى قدراً. وفي تلك الأيام الجميلة التي استردّ فيها بيته، لم يعد يقبل أن يستقبل زُواره إلا هناك.

هكذا عاد صديقا العمر القديم إلى بعضهما، وتحسنت صحةُ الحاج عبد الرحمن، حتى أن طبيبه الأمريكي، الذي قابله خلال زيارةٍ عابرةٍ وسريعةٍ إلى عائلته هناك، لم يصدق مستوى تحسُّن عضلة قلبه المُتعبة.

قال له الطبيب: إنّ في أريحا المستوى الأعلى من الأوكسجين على ظهر الأرض كلها، لأنها الأكثر انخفاضاً عن سطح البحر، وإن قلبه تحسَّن، وصار أفضلَ بكثيرٍ من قبل.

كان يمشي ويشتغل مع العمال خلال تصليح بيته، ويزور ويُزار إلى أن زعل الأولاد منه، وبدأت اتصالاتُ عائلته تأخذ منحىً محموماً، لأنهم لم يصدقوا أنه يختار المكوثَ بعيداً عنهم بشكلٍ دائم.

وبعد مرور أكثرَ من سنتين، أعلن أنه سوف يرجع للعيش معهم. كنت متأكدةً ونحن نأخذ صورةً تجمع ثلاثتَنا؛ عمي أبا سعيد وعمي الحاج عبد الرحمن وأنا، أنها ستكون صورتَه الأخيرة، لأنه ما عاد يقوى على ترك البلد والعودة إلى قارةٍ لا يطيقُها، إلا أنه كان مُرغماً مضطراً لكثرة المشاكل العائلية التي ثارت في غيابه.

وفيما بعد، لم يَطُل الزمن حتى أرسلوا خبر مفارقته هذه الدنيا، وأنا التي كنتُ شبهَ متأكدةٍ من أنه لم يكن ليرحلَ لو كان هنا، هو المغرمُ بأُوكسجين ديارنا الأكثف والأعلى على ظهر الكرة الأرضية، كما ذكر لنا مراتٍ ومرات.

أُحجيات الحديقة

أيهما الاحتمالُ الأقوى: استنساخُ حبةٍ من الرمان، أم حبةٍ من التين، أم عنقود عنبٍ صغير، أم الكتابةُ عن حديقةٍ كانت رماداً ثم عادت إلى الحياة؟

سألتُه، فأجابني: حاوِلي وأخبريني. ولم أسأل ماسة لأنني كنتُ أعرف رأيَها سلفاً، ستعتبر أنني أُضخِّمُ الأشياء وأُعطيها أكثرَ من حقها، ستقول إنّ الكتابة عن حديقةٍ زائلة هو محضُ عبثٍ كامل، في حين يعمل غيرُنا على تدمير أشجار الزيتون التي وُجدت هنا منذ ألفَي عام. تنزلقُ الأشياء من بين أيدينا، والزمنُ يسيل مثل جدول ماء ينطلق في طريقه ليمحوَ المنطقة العربية كُلَّها وما كان فيها من تاريخ وأحلام. ستقول لي تذكَّري كيف قاموا بتدمير وتكسير آثار نينوى وتدمُر وحلب، وكلِّ ما وصلت إليه كتائبُ الظلام من بدائع النقوش والتماثيل التي تخص الإنسانيةَ جمعاء، كسروا كُلَّ ما وصلوا إليه من أنواع الفنون، ودمروا الأماكن القديمة والمدن التاريخية. اكتبي عن القضية، قضيتنا المقدسة التي نسيها العالَم، أم أنكِ تريدين تبديدَ الوقت بالكتابة عن حديقة؟!

ستقول: "أزنتا زي هازا بلزا ".

كانت لغتَنا المخترعة، التي انتشرت تلقائياً بين جموع الطالبات والتلاميذ، واسمُها لغة "العصافير"، وهي ألفاظٌ تعتمد على تغريد الكلمات وملئِها بحرف الزاي، أملاً في إعطاء انطباعٍ مُشابهٍ للزقزقة يُماثل العصافير. وأجزم أننا لم نستخدمها إلا لتمرير أسرارنا أمام أشقائنا وشقيقاتنا الأصغر منا، والتشفي لعدم تمكُّنهم من فهمها. والجملة الوحيدة التي كنا نكررها كثيراً، لأنها تثير ضحكنا وابتساماتنا، وهي "أزنتا زي هازا بلزا"، تعني "أنتِ بلهاء"، وهي إشارةُ السر التي تربط بنات المدرسة حتى الآن.

كانت للجميع أسرارٌ ورموز، وكنا جميعُنا ننخرط في إيماءاتها وابتساماتها وعيار اتساع ضحكاتها لهذه الأسرار المكنونة، قبل أن يعتاد الناسُ على دفن رؤوسهم في أجهزتهم المحمولة، كلما التقَوا وكانت هنالك فرصةٌ للحديث.

ولَكَم تجلّى هذا في كلام النسوة الغسالات في بيوتنا القديمة. كان أهالينا يلجأون إلى النسوة الغسالات اللواتي يضعن لُجون (طشوت) الغسيل المعدنية الواسعة في الباحة الخلفية لنزلاء الشقق الصغيرة التي يؤجرُها الدّير بأسعارٍ بخسة، ويقُمن بفرك الملابس ونَقعها وعصرها بأيديهن ذوات الأصابع الحمراء العريضة والمنتفخة. كُنَّ يُطلقن التعليقات إثر التعليقات التي لا نفهمُها نحن جمهرةَ الأطفال، حين نتسلل إلى غرفة الغسيل الخلفية، شاعرين بإثارةٍ خفية لاستكناه الأسرار التي يتم إعلانُها بينهن، من دون أن نفهم منها شيئاً. كانت للغسالات طقوسُهن السرية وعلاماتُهن القاطعة التي تدربت أعينُهن الخبيرة على اكتشافها، كُنَّ يفتشن عن بُقع الثياب وما عليها من ألوانٍ شفافةٍ وروائحَ أو تجعيدات زائدة، وهن يضحكن ويتغامزن فيما اعتبرناه أنا وأقراني الأطفال رموزاً، بل لغة من الرموز لم نُحسن فهمَها أو تفكيكَها.

إذاً، فالزمنُ يومٌ لكَ ويومٌ عليك، يومٌ تستورد فيه رموزاً تعجز عن تفكيكها وفهمها، ويومٌ آخرُ تكون لك هذه العلامات، وبإمكانك أن تُخفيها وأن تخبئَها في جيبك كما تشاء.

أيمكن هذا فعلاً؟!

أيمكن أن نكتبَ هذا، إذاً؟

سألتُ عمي عبد الرحمن قبل أن يسافر للمرة الأخيرة:

- الآنَ سوف تُحضر لي "بلدوزراً"، وسوف نذهبُ به إلى سور بيت أهلي في " كتف الواد" على طريق المَغطَس لندكَّهُ ونُخرجهم من الدار؟

ارتسَمَت في عينيه نظرةٌ ساهمة بدا فيها توجُّسُه من اقتراحي، وقال بلا حماس:

- لكنهم قالوا إنهم سيخرجون.

أجبتُه بما هو أكثر من الغيظ:

"إنهم يكذبون. الوقت عم بيروح وما عم يِتْزَحْزَحوا من البيت، أخذوا ما أرادوه، وقالوا رح يتركوا من أكثر من ستة أشهر، وكل يوم يقومون بالتأجيل".

قال لي برجاء:

انتظري قليلاً يا ابنتي، سنذهب إليهم من جديد، أنا وأبو سعيد لنرى ماذا جدَّ عليهم.

كان هناك اتفاقٌ أبرمه الاثنان، هو وأبو سعيد، مع شاغلي البيت كي أدفع لهم عدة آلافٍ من النقود، ما يوازي رُبع ما طلبوه بعد تخفيض المبلغ الأصلي الذي وضعوه لدى عودتي إلى البلد ومطالبتي إياهم بترك البيت لأنني أحتاجُه. رفضوا مغادرةَ بيت أهلي وظلوا متلبثين هناك، إلى أن أتاهم العرض الأخير بأن أدفعَ لهم ذلك المبلغ محتسبين إقامتَهم ثلاث سنواتٍ من دون أُجرة. كانوا يتصرفون كأن البيتَ صار لهم بعد أن استأجروا البيت سبعةً وعشرين عاماً من حارس أملاك الغائبين الإسرائيلي، وهو الاسم المهذَّب لإدارة سرقة البيوت التي استولت دولة الاحتلال عليها، ولم تستطع هدمَها فوراً أو استخدام أرضِها، ولذلك تستفيد من رَيْعها عن طريق تأجيرها.

في المرة الأولى بعد عودتي إلى فلسطين ذهبتُ إلى بيتنا كي أطمئنَّ على أوضاعه، وكنت أظنه فارغاً، رأيتُ حديقته مكاناً مغبراً تعمُّه بقايا الأواني البلاستيكية المحطمة وشرائط أقمشةٍ وسخةٍ لا بد أنها استُخدمت يوماً لمسح زيوتٍ قديمة، وتربة جافة اختلطت ببقايا الزبالة سنواتٍ وسنوات. لم أُصدق ما تراه عيناي، هذه الأرض التي كانت حديقةً غَنّاء استحالت إلى شبح حديقة، لأن الحدائق والبيوت لها أشباحٌ تتذكر ما كانت عليه في الماضي.

عاد إليَّ شكلُ السيارةِ الزرقاء التي كنتُ أظن أنها تحفةُ العصر في بيتنا، وكنتُ أستعرضها أمام كل داخلٍ أو خارجٍ إلى البيت عندما كنتُ في الرابعة من العمر، كي يروا كيف أقودُها بمهارةٍ بين ممرات الزهر والشجر الكثيف. أحضرَتها أمي هديةً من محل "زنانيري" في القدس، وهي تشعرُ بسعادةٍ غامرةٍ عندما اكتشفَت أنني تعلمتُ الأبجدية وحدي، وبدأتُ أقرأ وأجمع الحروف وأنا ما زلت في سن الروضة. كنتُ أُرافقها إلى الصفوف التي تُشرف عليها، وأدخل وأخرج معها كي لا أبقى وحيدةً بعد أن تركتُ صف الحضانة في القدس، وافتقدتُ كثيراً أحبَّ مخلوقَيْن لي؛ صاحبتي الصغيرة سهير ذات الحلَق الذهبيّ، الذي يتوسطه فصٌّ فيروزٍ صغير، والضفيرتين المجدولتين دائماً، ومعلمتي "ست جوليا" ذات الشعر الأحمر.

كانت شجرة الصنوبر العالية التي غرسَتها أُمي منذ زمنٍ طويلٍ قد شاخت، وانحنى جذعها مثل مُصابٍ بـألم الظهر "الديسك"، وكانت عروقٌ جافةٌ ومتصلبةٌ لأشجار الحمضيات تقف بجذوعها الداكنة في الحديقة، مثل شموعٍ انطفأت وما عاد أحدٌ يحتاجُها ليعيد إضاءَتها.

قد يتقبل المرءُ موت الحدائق. أما القمامةُ والفضلات، فهي دليلٌ على انعدام العافية العقلية، كما كانت تقول أُمي، رائدةُ إنشاء هذه الحديقة وراعيتُها الأُولى.

انتبهتُ إلى أن المدرَّجات التي كانت أُقيمت داخلَ الحديقة تحولت إلى كُتلٍ ترابيةٍ مندثرة، تعيقُ النظر عن التمدد والحركة في المكان، وليس الأقدامَ وحدَها.

تراجَعَت خطواتي الجذِلة عندما وقفتُ أمام باب الدار وأطلقتُ الجرس. تباطأ مَن في الداخل عن القدوم، إلى أن أطلَّت، أخيراً، سيدةٌ عجوز، فتحَت الباب مستفسرةً، وقالت إنها وحدها، فأخبرتُها أنني سأشرح لها الأمر بعد أن عرَّفتُها بنفسي.

شعرتُ، وأنا أتكلم، بأنني أبدو أمامَها مثل كائنٍ قادمٍ من كوكبٍ فضائيٍّ غريب. كانت مندهشةً، لأن للبيت أصحاباً غير عائلتها المستأجِرة. لا شك أنني بزغتُ فجأةً من حيث لا يدري أحدٌ، بالنسبة لذاكرتها الممزَّقة مثل قطعٍ من الشطرنج. ليس بيدها شيءٌ حتى يعود أولادها. أصررتُ على الدخول وانتظار واحدٍ منهم لأشرحَ له.

استغرق الوضعُ أكثر من ساعةٍ ونصف الساعة وأنا أجلسُ وحيدةً على "الصوفا" من دون كأس ماءٍ أو فنجان قهوة. كنتُ أعاني فجيعتي في المكان الجميل، الذي ما انفكَكْتُ عن التفكير فيه سنواتٍ طويلةً وأنا خارجَ البلاد منذ التشريد.

لم يكن حولي أيُّ شيءٍ يُعينني على التذكُّر، أسلاك الكهرباء مُخلَّعة، طلاءُ الجدران مقشَّرٌ وكالح، ولم يعد له لونٌ بعدما كان مُشعاً بألوانٍ متعددة، تختص حوائطُ كل غرفةٍ بواحدٍ منها. لم يعد هناك شيءٌ أعرفه أصلاً في هذه الدار الصغيرة التي ينكرني فيها ساكنوها، وبدت لي غرفُها الصغيرة كأنها امتدادٌ للطريق في الخارج، ومع هذا عليَّ أن أتشبث بها، فهذه أُولى خطوات الأمل، وأول نغمٍ في سُلَّم الذاكرة.

عاد الابن المنتظَر أخيراً، فقابلني بوجهٍ كالحٍ غضوبٍ وهو يسألني عن مبرر الدخول إلى البيت، ولما شرحتُ له قال إنه لا يعترف بأحد، وإنه لم يسمع بعائلتنا أبداً، وإنه لم يعرف أحداً له هذا الاسم أصلاً.

يا رب، يُنكرونني ويتعاملون معي كضيفةٍ غير مرغوبٍ فيها، فلا يُقدمون لي حتى كأس ماء في هذا الحر، وتحديداً في المكان الذي شهد استقبالاتٍ وضيوفاً وعشرات أكواب العصير والشاي والقهوة والليمونادة وشراب النارنج، والكثير الكثير من قطع "الكعك" بالجوز وكبش القرنفل والقرفة التي برَعت أُمي في إعدادها، وربما أحياناً قِطَع مربى الخشخاش والنارنج التي تذوَّقَها كلُّ مَن مرَّ هنا.

شرحتُ له مَن أكون، وأضفتُ معلوماتٍ إلى سيرة أبي وأُمي التي يعرفها جميع أهل البلدة، وقلتُ له إنني صاحبةُ الدار الآن، وإن الاحتلال انسحب من المكان، ولم تعد هنالك هيئةُ أملاك الغائبين التي أنشئت للسيطرة على بيوتنا وتأجيرها أو مصادرتها، فاستهزأ بما ذكرته من جديد، وقال إنه لا يعرف أحداً، وإن عليَّ المغادرة. وبهيئته التي تشبه موظفاً متعالياً ضحك وقال: لكنني لم أستأجره منكِ، إنه ليس لك، وما يُدريني أصلاً أنه لك؟ مَن هم هؤلاء الذين تذكرينهم، لم أسمع بهم أو أعرف عنهم في حياتي؟!

كانت حفلةَ إنكار كاملة، أعقبها إرسالُ رسالةٍ لي بضرورة دفع مبلغٍ كبيرٍ لهم، يكفي لشراء بيتين وليس بيتاً واحداً، وكأنهم تحوَّلوا إلى أصحاب الدار الرسميين وأنا المشتري صاحب الإلحاح على الشراء!

تأثرتُ ولم أبكِ. كانت نصيحةُ عمي عبد الرحمن أن أذهب إلى مُحامٍ وأُسلّمه القضية، وفعلت. استوفيتُ الأوراق القانونية منذ الأشهر الأُولى، لكنهم لم يعترفوا بها، ودارت الرسلُ بيننا، ومُحامٍ من طرفهم مع محاميَّ، وقد اتفقا على عدم التدخل وتجميد الموضوع. كيف؟ لا أعلم.

وعندما مرت الأيام وتوقف أي تقدم في هذا الموضوع نهائياً حتى بعد مرور أكثر من سنتين بدأ غضبٌ دفينٌ يستبدٌّ بي. طلبتُ من عمي عبد الرحمن، اعتماداً على كونه الأقربَ عائلياً واالمُلزَم بحمايتي تقليدياً، أن نأتي بـ"بلدوزر"، ويرافقني لنذهب به إلى الدار، حيث سأقوم بهدم سور الدار أولاً، ثم الدخول إليها، وليحدُث ما يحدث.

وما بين اشتعال الغضب، ووجود وفود التهدئة، تمّ التوصُّل إلى حلٍّ أخير، وهو أن نقدّم لهم مبلغاً كبيراً مراضاةً لخروجهم، مع احتساب قيمة إيجار ثلاث سنوات رفضتُ أن أتقاضى فيها إيجاراً كانوا يدفعونه لهيئة أملاك الغائبين تلك. وكان عمي الحاج عبد الرحمن أقنعني بأن أقبل، على رغم تبرُّمي واستيائي من الطاقة والزمن الضائعين.

أزِفَ اليومُ المنشود بعد تأجيلٍ يُوازي سنةً أو أكثر من الزمن الموعود، وذهبتُ إلى بيت طفولتي لأجده قاعاً صفصفاً، أو بالأحرى حيطاناً بلا أبواب ولا شبابيك، بل مجرد ثغراتٍ في بناءٍ بائسٍ وسقفٍ بحاجةٍ إلى ترميم، ولا أنابيبَ ماء على الإطلاق، فقد انتزعوها وأخذوها معهم، ولا تمديدات للكهرباء. لم يعد هناك قضبان حماية للشبابيك أو درفات للأباجورات، ولا البابُ الحديديُّ الأماميُّ للدار.. ولا.. ولا الحنفيةُ التي في الجنينة.. إلخ.. إلخ.

باختصار، أبقَوا الطوب والإسمنت القديم الذي يشكل البيتَ خارجياً، لأنهم لم يَقْدروا على نَزعه وحمله معهم.

لقد حملوا كُلَّ شيء إلى بيتهم، مثل الغزاة الذين علَّموهم ثقافةَ النهب، حتى حينما يكونون في بيوتِ مَن هم مثلهم.

أخذوا "الخاوة" التي طلبوها، ولكنهم رحلوا.

وها أنا أدخلُ اليوم، وتهبُّ عليَّ نسماتُ الهواء حاملةً زهرَ البرتقال والليمون، وتتمايل غصون الشجر وأوراقُه، حاملةً رائحةَ الياسمين الذي يحيط الدار، الذي يتعانق مع شجر البجنوفيليا "المجنونة" وزهرِها على السياج. حولي العصافير تشدو، والنخلةُ التي غرستُها صغيرةً تتسامق، بعدما أُجبرنا على قطع شجرة الصنوبر التي كُسِر جزءٌ كبيرٌ منها في أعقاب عاصفةٍ مجنونة. هنا الحمضيات الشهيرة التي لا تنبتُ بهذه الحلاوة اللطيفة إلا في تربة أريحا الفريدة النابعة من الشق القاريّ الذي قسّم القارَّةَ إلى قسمين: آسيا وأفريقيا. هنا يكمن قمرٌ يسطع على شُرفة المطبخ الخلفية، حاملاً ذكريات عائلتي التي لم يتمكن واحدٌ منها من العودة إلى هذا البيت غيري أنا. وهنا، على الحيطان، رسومي التي تمثل فرحتي بالتواجد في هذا المكان مهما كان المكوث قليلاً ومتقطعاً، ففي كل غرفةٍ تفوح رائحةٌ لغائب أو غائبة، سواء في أقطار هذه الدنيا أو في عالمٍ آخر.

كانت المعجزة التي حدثت وقتَها، وأنعشَت الحديقة التي بدا بأنه قُضي عليها إلى الأبد، هي أن البنّائين الذين استقدمناهم للتصليح نسوا إغلاق أُنبوب الماء المطاطيّ الذي كان مرمياً على الأرض لاستخدامه في البناء والترميم. هكذا ظلت المياه تسيل بعفويةٍ على جذوع الأشجار الجافة التي كانت ميتةً تماماً خلال ليلةٍ كاملة. ومن ثمّ نمت الأشجار من جديد، وعادت تُزهر. يا إلهي!

هناك ما يلتئم إذاً في هذه الحياة، هنالك عبقٌ أخضر وأزهارُ برتقالٍ وليمونٍ ومandrين وجريب فروت وحباتٌ من الليمون الصغير، الذي كانت أُمي تعطيه اسم دلعٍ لشدة ما كانت مُغرمةً برائحته واكتنازه بالماء الشافي، حتى أنها كانت تدعوه "شفا.. شفا". وها أنا ألتقطه وأضعُه في كفي كي أستنشقَ رائحتَه المعطرة كُلَّ عام.

ها هنا.. أريحا.

وها هي الحديقة في انبعاثها، بعدما ظنّ الجميع أنها مُسحت نهائياً واختفت منها بوادرُ الحياة.

مياهٌ باردةٌ وساخنة

في القدس تتشبعُ الأدراجُ داخلَ البلدة القديمة برائحة الغسيل، حتى عندما انتهى عهدُ الطشوت واللُّجون التنكيّةِ العريضة، ودخلنا إلى عصر الآلات الأوتوماتيكية التي تغسل وحدها، فلا بد أن ينبعث طرفٌ من رائحة غسيل ما، يُشعُّ برائحة الصابون النفاذة من إحدى الزوايا في تكيّةِ السلطان أو حارة النصارى أو عقبة المُفتي.

رائحة الغسيل. إنكَ تُميّزُ فيها رائحةَ العالَم بسهولِه وجباله وهضابه وأنهاره، وأنواعاً من عرَق البشر القادمين من أراضيه البعيدة، الآتينَ للطواف في أرجاء الأرض المقدسة، حاملين أناشيدَهم ومسابِحَهم الصدفيَّة أو الخشبية المصنوعةَ من نُوى الزيتون، وهم يغنون أناشيدَهم وتهاليلَهم للسيدة مريم أو ماري التي خلفت المسيح، لكي يكون برداً وسلاماً على البشرية. أصواتٌ عميقةٌ وحنونة ومغسولة بالتَّوق والمحبة تحمل أقطارَ الأرض شمالِها وجنوبِها، أقصاها وأدناها، هناك يمكنك أن تميز نوعَ الصابون النابلسي الذي فرش أراضي بيوتنا في الطفولة، كي تتباهى الأمهاتُ أيُّهن أكثرُ نظافةً وقدرة على مسح بلاط البيت وغسله بالعزيمة التي تفرك أطفالَها بها، بالليفة التي تمزق جلودَنا الناعمة التي تتحمل الترابَ والغبار ووسخَ الحواري، لكنها لا تحتملُ كُلَّ هذا الفركَ والشدَّ والدعكَ وجذبَ الشَّعْر وقرصَ الآذان وسلخَ النحور بالمياه الساخنة التي توشك أن تقاربَ الغليان.

وكما أن لكل مقطوعةٍ موسيقية رائحةً خاصةً بها، فللأمكنة كذلك إيقاعاتها الفريدة الخاصة بكلٍّ منها. ويكفينا أن نتبع دربَ القلب كي يدلَّنا على ما تثيره فينا هذه الأمكنةُ وموسيقاها الداخلية من ذكريات وشغَف. وكما أن لكل مكانٍ رائحةً واحدة على الأقل يتميز بها، فإنه يمكن للمرء أن يستنشق في القدس القديمة عشراتِ الروائح في لحظة واحدة. تتأرجح تلك الروائح المتغيرة التي يضمها طريقُ باب خان الزيت في القدس العتيقة متدرجةَ الكثافة والقوة بين ساعات الضحى والعصر

والعشية، وتتأوَّد بين العطفات والدروب والأزقة، خصوصاً تلك المؤدية إلى "الهوسبيس" أو طريق باب الواد أو سوق العطّارين والى كنيسة القيامة والجامع الأقصى.

تفوح روائحُ الأسواق المتراصةِ التي تطفح ببضاعتها وتذكاراتها السياحية، مثل قوافلَ من أطيافٍ مختلطة، تنتشرُ مثل غيوم ملوَّنة، يبرز بينها شذى الجوّافة النفاذة، وحدّةُ رائحةِ تَبْغ الهيشة ناعمِ الملمسِ نزِقِ المظهر بخشونته الذكورية، مشكوكاً على الحبال الداخلية للمحلات المختصة. وبين الحين والآخر تنبعث رائحةُ حموضة المُخلَّل المسكوب في مرطبانات زجاجية مدوَّرة، ويتصاعد معها عبير أكوامٍ من ملَبَّس اللوز بالسكر ممزوجاً مع ماء الورد، وهو يتوزع داخل (شوالات) من الخيش التي تمتزج رائحتُها هي أيضاً بتلك الممرات المسقوفة والمغطاة منذ زمن بعيد جداً. ومن هنا وهناك تفورُ روائحُ الزعتر البلدي من منصات الباعة، وتطفح رائحةُ البطيخ الأنيقة إن كان الفصل صيفاً، أو شذى البرتقال العطري إن كانت الدنيا شتاءً. وتطلع بينها، بغتةً، روائحُ الجلود المدبوغة قوية ومتسللة من الجزادين والشُّنط المصنوعة حديثاً والمعلقة على حبال أمام الدكاكين. وبين الوقت والآخر تنفثُ الزوايا رائحةَ مسكٍ شرقيٍّ من محل عِطارة يُشعل بُخورَه النهاري، لكي يغطي على دفَقات روائح البول الليلية التي أشبعها بعضُهم للجدران، فصارت تتحدى نفثات الدفء الفاغمة التي تطلع من دكاكين العطور مختلطةً بروائح خُلاصات الزيوت المألوفة مثل زيت الزيتون، وغريبة حادة أحياناً أُخرى. كان هناك انسجامٌ أبدي بين هذه العطور والروائح الفاغمة الشذية والأدراج والأسواق القديمة والكهوف التي تحوَّلَ بعضُها إلى محلات في سوق باب خان الزيت. وها أنا أتذكر كيف كنت أمشي مع ابنة عمتي وتذمراتي تتصاعد وأنا أطالبها بأن تحملني لأني تعبت من المشي الطويل في الأزقة والأدراج. وكيف كانت تتهرب مني قائلة بأن الرابعة عمر كبير نسبياً ومن ثم تطالبني بأن أستأنف المشي لأنهم ينتظروننا في الدار. فأُذعن لها وأُجرجر قدمي، عالمةً بشكلٍ غامضٍ أنني سأصل الى مكانٍ يستحق المشي والتعب.

سأصل إلى البوابة المملوكية الضخمة التي تمت إزاحة طرفٍ منها لكي يستطيع الناس الدخول. سأجد بوابةً يرقد على جانبيها تجويفان من الصخر، قُدّا على هيئة مصطبتين كان يجلس عليهما البوابون والحرس في الزمن القديم. وفي إحدى المرات انتبهتُ إلى ساريةٍ معدنيةٍ خاليةٍ قرب البوابة استثارت الرهبة في قلبي، فأخبرني ابن عمتي أنها كانت للعقاب، ولتعليق المجرمين المحكومين في الزمن القديم عليها.

كانت تلك البوابة هي أول ما يفضي إلى "دار البيرق" أو "الدار الكبيرة" التي كان يخرج منها موكب "النبي موسى" حاملاً الرايات والأعلام كلَّ عامٍ إلى المقام الشهير، في شبه تظاهرةٍ سياسيةٍ أيام الاحتلال الإنجليزي. ومن هناك تماماً، من أمام الباب، كانت تمر مسيرة الحجاج المسيحيين التي تقطع مراحل درب الآلام مراتٍ مُتعددةً في العام. يحملون صليباً خشبياً كبيراً، وفي المقدمة ينزل الرهبان والراهبات على الأدراج، ومعهم فيضٌ بشريٌّ يجلله الحزن. وأنا أنظر إليهم متوقعةً ظهور الفادي صاحب الصليب بينهم، كي يخلص العالم بلمسةٍ من حنانه الشافي. كل مقدسي أو مقدسية يمحض الأمكنة المقدسة على أنواعها انتماء واجلالاً.

أما حين أكون في الطرق المفضي إلى البيت، فقد كان الوصول مُتعيّناً بسماع هديل الحمام في أقفاصها. كانت جارتنا "رقية" التي تعيش وحيدة دوماً، وتبدو في عمرٍ لا يتغير، كما قالت أُمي وعمتي، هي القيّمة عليها، وكانت ترعاها في فناءٍ داخليٍّ يقع بين أبواب البيوت الخشبية الثخينة.

رائحة القهوة وما خلَّفَتهُ من آثارٍ لا تزول

ظلَّت القهوةُ مرتبطةً بدار عمَّتي في القدس القديمة. كانت الرائحةُ تفوح صباحاً، وتمتدُّ حاملةً عبَق السكر والبُن محمصاً إلى الرَّكوة النحاسية، ومنها إلى فضاء بيتٍ عمرُه ألفُ عام.

ما زالت تلك الرائحةُ الفريدة لا تنوجد إلا مختلطةً مع حجارة سور الفناء العربي هناك، أو ما يُسمَّى "أرض الدار" حيث يتم شربُ القهوة صباحَ كل يوم، وما زال فوَرانُ الرغوة على وجه الفنجان مختلطاً بحُبيبات البودرة الشقراء الدقيقة المطحونة من حب الهال "حَبهان" يعيد إليَّ بهجةً متجددة.

كان في رائحة القهوة التي تظل طيلةَ النهار محلقةً هناك ما يشبهُ تحليقَ عصفور أزرقَ صغيرٍ لماعِ الريش يُدعى طائرَ الشمس، حجمُه صغيرٌ جداً، ويطير من مكانٍ إلى مكانٍ بسرعة، لدرجةٍ تجعل المرءَ يخلط بينه وبين الفراشات كبيرة الحجوم. في بيت عمَّتي كانت رائحةُ البُنِّ المختلط بالسكر تنبعُ في جميع الزوايا والأرجاء والحيطان التي كان سمكُ الواحدِ منها يوازي متراً على الأقل، إذ إنه وُجد منذ فتراتٍ ساحقةٍ لا يذكرها أحد. كنتُ أبيتُ في بيتها كثيراً خلال العُطَل الصيفية، حينما كان يتركني أبي وأُمي في ضيافتها أسابيع، لكي يرتاحا من مشاغباتي عندهما. الغريب أنّ الرائحة البنية الشقراء المطعمة بحبيات السكر الخشن كانت تنبعثُ مثل المغناطيس من جميع الأشياء، وليس فقط من فناجين القهوة الخزفية الصينية البيضاء، أو من الملاعق التي تظل مرميةً على رفّ المطبخ من دون أن تُغسل بعد تحريك القهوة، لأنهم سوف يحتاجونها لصنع "بَكرَج" آخر حالما تُطلُّ الجارةُ المقابلة أُم موسى "الهبلة" أو الست زبيدة "المصروعة" التي تسكن تحتنا، وهما لا تكادان تفارقان البيت إلا كي تعودا من جديدٍ للحديث عن الهموم المستجدة من الأزواج والأولاد، أو النتائج الأخيرة لفتح البَخت في قَعر الفناجين التي تكتنز بالأخبار والنبوءات التي تُفرح عمَّتي وتشرح صدورهن. أحياناً، أجد هذه الرائحة قد تسلَّلت إلى مساند الكنبات في

غرفة الضيوف، التي لا يدخلها أهل البيت إلا في مناسبة الاستقبال الأُسبوعي التي تقيمها عمَّتي لحشدٍ من صديقاتها المقدسيات، أو إلى الغرفة الصغيرة الملحَقة بغرفة الضيوف، التي كانت تُسمَّى "المخدع"، وكانت بمثابة غرفةٍ داخليةٍ لا تُطلُّ إلا على مِنْوَرٍ خلفيٍّ مُغلقٍ مليءٍ بهديل الحمام وريشِه المتطاير فوق كل الأشياء.

أحياناً، تتداخل الرائحة الطائرة بنيةُ اللون مع ذرات السكر كبيرة الحجم، فتصير موشحةً بالأبيض مع ابتسامات عمَّتي الأرملة وبناتها وهنّ يستمتعن بإجلالٍ ملوكي في صبِّها من الركوة النحاسية، التي يتركنَها تغلي وتفور كما قُدر لها على (البابور) أو (الغلاية السبيرتو) من دون حسابٍ للزمن قبل شربها، والتي كان لي، حكماً، نصيبٌ فيها، يتلخص في رشْفاتٍ تسكبُها لي عمَّتي في قَعر صحن فنجانها الصغير، وتنفخ عليها لتبرد وتقدمها لي. كنت أرشفُها بلذَّةٍ غريبة ومكثفة، ففي تلك اللحظة كانت تذوب ثقافة "الممنوعات" التي ابتكرَتها أُمي، وكانت تنص على أن القهوةَ سيئةٌ ومشؤومة للبنات مثلي. وعندما كنتُ أُلحُّ عليها وأستوضحها السبب، كانت تخبرني بأن هناك اعتقاداً راسخاً بأن القهوة لا تُناسب الفتيات الصغيرات، وأنها تجعل البختَ أسودَ، أو بُنّياً غامقاً في أحسن الأحوال، لمن تشربُها قبل أن تكبر وتُنهي سنواتِ الدراسة كاملة.

لم أعرف أن ثمة علاقةً بين ما قالته أُمي عن الإدمان على شرب القهوة وغرامي بلحس تِفْلِها، أي رواسبها في صحن فنجان عمتي، وما جرى معي خلال تصوير الفيلم عند بوابات الجدار الإسرائيلي في جيوس، إلا مؤخراً. أسرحُ وأتأملُ سرَّ إدماني على تناولها، وأستعيدُ ذلك الاشمئزازَ الاجتماعي في تلك الأوقات، الذي كان موجَّهَاً تجاه الفتيات الشغوفات بها. كان يتم التعامل معها كأنها مادةٌ محظورةٌ تضمُّ مكوناتٍ سريةً لا تصلح إلا للكبار.

وعلى كلٍّ، كانت القهوةُ وما زالت هي المستقبل أيضاً عند نساءٍ كثيرات، ممن ينتظرن انكشافَ طالعِهنّ في أحد فناجينهن الصباحية.

هل كان شُربُ الكثيرِ منها أيامَ الطفولة هو الذي أدى بها إلى استنشاق رائحةِ الموت من دون أن يفتك بها!

"بدأت الحكاية عندما ذهبنا إلى جيوس قريباً من الخط الأخضر".

"أردتُ أن أُصوِّر فيلماً وثائقياً عن الجدار الإسرائيلي الذي يحتجزُ أجسادَنا ويجمدها خلفه، ويمنعُ أرواحَنا من التطور والنمو في فضاء الله الطبيعي".

"لكن الجدار في الشمال مختلفٌ عما نراه حول القدس وبيت لحم هنا، لأنّ الجزء الأكبر منه هناك يعتمد على "الشيك" الفولاذي، أي الشريط المُكهرَب الذي يسرق الأراضي الزراعية ويمد حولها دائرةً من الطرق التي تطوّق الأرض وتجعلُها محاطةً بحراسة الدوريات والآليات العسكرية، فيما يقومون هنا في وسط الضفة الغربية برفع قِطَع الإسمنت العملاقة حولنا، لكي تشكل سداً متيناً أمامنا نحن البشر، فإنهم يحرصون على عزلنا نهائياً".

"أنا متأكد أنه أطول وأعلى من جدار برلين الشهير".

قال المصور قبل أن نصل إلى جيوس من دون أن نعرف أن الرعبُ الحقيقي كان على بوابة الجدار المكهربة هناك.

لم نكن نملكُ تصريحاً من الجيش لتصوير الجوار وما سرقوه من مئات الدونمات وآلافها حوله، فحتى التصوير في أراضينا يحتاج إلى إذنٍ منهم طالما اعتبروا الأرض الفلسطينية قرب الجدار أرضاً عسكرية يُمنَع التجوال فيها. وهكذا ذهبتُ مع المصور بغيةَ التقاط لقطاتٍ عشوائيةٍ هنا وهناك مما يتيسر، من دون أملٍ بأن نجد مَن يستطيع الحصول على تصريحٍ منهم. أوصيتُ الطاقم المرافق بالهروب لو حدث وتعرضتُ لاستجوابٍ من طرف هؤلاء. وعندما كان المصورُ يلتقط صوراً لبوابة مدرسة "حبلة" الأساسية المحاطة بالأسلاك الشائكة، التي تجعلها مثل سجنٍ يقبع في حقل ألغام، نهرَنا الجنديُّ المكلف، وهدَّدَنا على الميكروفون، وأنذرَنا بالمغادرة.

نزلنا من البراميل الفارغة التي كُنا وقفنا عليها، وتراجعنا إلى الخلف عندما فهمنا أن التهديد جَدّيّ.

لم نكن قد وصلنا إلى جيوس بعد. وكنا نظن أنها ستكون خطوةً سهلةً مع قليلٍ من الرعب الذي لا نلبث أن نتجاوزه، مثلما حدث قبلها في موقعٍ آخر إلى الشمال الغربي من رام الله. كنتُ والمصور نتخفّى كي لا يبدو أننا قريبان من بوابة المستعمرة، التي تقبع على أرض قرية الجانية، ونحن نحاول تصويرها مُتدارِيَيْن بالتواري في شارع جانبيٍّ مُحَرَّمٍ دخولُه على السكان، حين لاحظَتنا دوريةُ أمنٍ والتقطتنا متلبِّسَين بالتصوير، لكّننا ادعينا الجهل وانعدام المعرفة. كنتُ أرتجف

في داخلي لأن الجندي كان يركضُ باتجاهنا مُشهِراً بندقيته الأُوتوماتيكية الجاهزة للإطلاق، حين أجابه المصور الشاب، الذي ضمَّخ شعرَه بـ"الجل" بأناقةٍ متعمدة، بهدوء، وهو يرتدي قميصاً "تي شيرت" أسود طُبع عليه اسم مغني "روك" أجنبيٍّ شهير، وعلى صدره تتدلى ميداليةٌ للقناة الأوروبية الثانية كانت تُسببُ التباساً عندهم، فيظنون أنها تعود إلى قنواتهم المحلية. نزل الجندي من السيارة ركضاً إلينا والسلاحُ متجهٌ صوبنا، وسألَنا بحدةٍ عما نفعله هنا، فأجابه المصور بهدوءٍ وبلهجةٍ حياديةٍ باردةٍ أمام النبرة الاتهامية الساخنة التي وُجهت إلينا مع بوز البندقية القريبة، وكأنه لا يدري سببَ الاستجواب.

قال ببساطة لامتناهية: نصور ما حولَنا. وبدوري تدخلتُ بتوضيحٍ سريعٍ أُؤكد فيه أننا مهتمون بالطبيعة وبتصوير شجر الزيتون. نكّس الجندي بندقيته، وانسحب عائداً إلى سيارته التي تعجُّ بعناصر أمن آخرين.

فلتنا مما بدا خطراً داهماً من دون أن أعرفَ ما ينتظرُني هناك، عند بوابة جيوس!

هناك!

بوابة الجدار في جيوس.

كانت السيدة تنتظرنا بغطاء رأسها الأبيض عند البوابة خارج جدار الشبك المكهرب المحاط بخندقٍ داخليٍّ في موازاته، الذي أحال العيشَ هناك إلى منطقة سجنٍ قسريٍّ لمزارعين مسالمين احتُجزوا بعيداً عن أراضيهم، وبات وصولُهم إليها صعباً. أما هذه السيدة التي صار بيتُها يقبع وراء الجدار، فلم يعد بإمكانها أن تمتلك حريةَ الدخول إليه متى شاءت. وعلى العكس من جميع الناس، كانت هي التي يناهز عمرُها الأربعين عاماً أو أكثرَ بسنواتٍ قليلة، ولها أبناء عديدون، تظل محتبسةً داخل بيتها الصغير من دون إمدادات الماء والكهرباء التي قُطعت فور بنائهم خندقاً عميقاً يعزل الأرض المسيجة عن البلدة، ومن دون بوابةٍ للخروج، إلا ثلاثَ مرات يومياً وفي أوقاتٍ محددة: عند السابعة صباحاً، والواحدة ظهراً، والسادسة مساء. كانت التمديدات الكهربائية ومواسير الماء قُطِعَت عن بيتها بسبب التثبيت الأمنيّ للجدار، وعندما كان عليها أن تشحن تليفونها المحمول، كان عليها أن تخرج في الأوقات المذكورة إلى أي بيتٍ في البلدة لتشحن تليفونها بالكهرباء. أما بالنسبة لأبنائها، فمَن كان يتأخر لسببٍ ما في الخروج إلى المدرسة خلال هامش الدقائق الخمس التي تفتح البوابة

فيها، كان يظل في البيت، لأنه لن يستطيع الحركةَ إلا عند الواحدة ظهراً، أي بعد انتهاء الدوام وبهامش الدقائق الخمس أيضاً. ولو أُتيح لها الخروجُ لتَسوُّق لوازم الطعام، لَما استطاعت العودة للطبخ أو لأيّ هدفٍ آخر، وكان عليها استجداءُ الناس لكي يساعدوا العائلة التي أفلست بسبب مصاريف "تناكر" الماء التي تحمل لها المياه لكي تصبها في الخزان، بالرغم من حاجتها لتسديد مصاريف عمليةٍ جراحيةٍ أجرتها في الكِلى وأغرقتها في الديون.

كانت المرأة تُحدثني عما تعيشه من مرارات، وسيارةُ الجيش "الهامر" داخل منطقة الجدار المعدني تشحط الأرض، مطلقةً من محركها نفثاتٍ قويةً مزعجةً مترافقة، مع تشحيطٍ واحتكاكٍ هستيريَّيْن للعجلات بالإسفلت الصلب وضوضاء متعمدةٍ لإتلاف صوت التسجيل الذي نُجريه. كانوا يُفرقعون بسيارتهم وهم ينحدرون في موازاة الخندق بسرعةٍ جنونيةٍ قاصدين أن نتطلع إليهم، لكنني واصلتُ إجراء المقابلة من دون أن أُعيرهم اهتماماً. كنتُ أقف في الجهة التابعة لنا حسب مقاييس جدارهم الحربي، ولم أدخل أو أقترب من البوابة. تأكدتُ من الشاب حامل أجهزة الصوت أنّ التسجيل "عال العال"، ولا تؤثر عليه أصواتُهم الجهنمية، وواصلتُ الحديث معها.

في تلك اللحظة التي سمعتُ فيها طقَّة المفتاح في القفل المعدني في الباب المُسيَّج بالأسلاك الشائكة المُكهربة الذي كان وراء ظهري، اختفت المرأة تواً من أمامي، وكأن جِنّياً اختطفها، وابتعد المصور مسرعاً إلى منطقةٍ بعيدةٍ ومعه الشبان الذين كانوا يقومون بمعاونته تطوعاً. جرى كل هذا بسرعة في لحظةٍ واحدة. أدرتُ ظهري لأرى البوابة، ورأيتهم يتحركون هناك. كانوا أربعةَ جنود يأتون باتجاهي، جنديتين في المقدمة واثنَيْن خلفهما. تلك التي لفتَت نظري في المقدمة كانت واحدةً من المجندتين، وكانت لها ضفيرتا شعرٍ مجدولٍ تُسدله إلى الأمام، فتبينت بالكاد منه كتلةٌ غائمة، لأن جسمها المدجَّج بالسلاح كان يخبئ تفاصيلَها الآدمية، ويجعلها مجردَ مِشجَب لمِتراسٍ حربي، بل مكان لتجميع الأسلحة. كانت ترتدي طاسةَ المعركة، وتحمل رشاشاً أوتوماتيكياً، وتتقدم باتجاهي بهستيرية وهي تصيح مع جوقتهم المجنونة:

الفيلم.. الفيلم.

قبل أن تبدأ حركة اندفاعهم المجنون نحوي، كنتُ قد سمعتهم وهم يصيحون مُطالبين بالفيلم، ولهذا أطلقتُ صوتي على مداه، مناديةً المصور كي يبتعد كفايةً، وهو الذي كان مذهولاً مما يجري

من موقعه البعيد ولا يتحرك ولا يسمعني، ولا يصله صياح الخشية من مصادرة الفيلم الذي لاقينا كُلَّ هذا العناء في تسجيله:

ا.. ه.. ر.. ب..

قلت له، بل صرختُ بأعلى صوتي لأنه كان يحدق بي مذهولاً. لم يتحرك وهو يراقب ما يجري.

اهرب.. اهرب..

صحتُ به من جديد، وهم كانوا يصرخون مثل كتيبةٍ مجنونة: الفيلم.. الكاميرا.

كانت تعليماتي لمن معي واضحةً تماماً؛ انسحاب مَن يرافقونني لأنني سأتكفل وحدي بما يجري. شيءٌ يماثل دور الرُّبان الذي يبقى كي يحمي العمل المقدس. لا أُريد أن يصبح مَن معي ضحايا لأي فعلٍ طائشٍ أو غير طائشٍ من هؤلاء المسلحين. "اذهبوا. ابتعِدوا، واتركوني لو اقتربوا منا".

وعلى المصور أن يبتعد مسافةً لا يطولونه فيها..

وأخيراً اختفى هو أيضاً.

لكن.. طاسة الحرب.

لكن.. كل هذه الأسلحة وفوهةُ الرشاش الأوتوماتيكي الذي كنتُ أسمع صوتَ تلقيمه.. هذه المتاريس المتحركة من سلاح وسلاح.. تتجه إليَّ في هذه اللحظة، وتقترب وهي تُخَرطِش أسلحتها.

كان نظري مخطوفاً ومتسمّراً على واحدة من المجندتين اللتين اختارتاني هدفاً حربياً، تماماً كما تجتذب نَدّاهاتُ الليل ضحاياها، فلم أكن أتصور أن شابةً ذات صلةٍ بعالَم الأنوثة يمكن لها أن تتحول إلى قاتلةٍ بعد أن ترتدي بَدلتها العسكرية، فقط لأنني أُجري مقابلةً صحافية. لم تكن أفكاري في تلك اللحظة مُفصَّلةً أو واضحة، وإنما كانت مشاعرَ تتمحور حول الصدمة والفزع، لأن مَن تُلقِّم السلاح وهي تسدده إليّ تحديداً امرأةٌ تتقدم بثوبها الكاكي وكامل عتادها وعدتها الحربية بمواجهتي، أنا التي ليست لها أي علاقة بهذه الأسلحة والحروب الممسوسة التي يقومون بها في سبيل سرقة

أرضنا. وكأني لستُ امرأةً مثلها. هذه القاتلة التي ترتدي طاقيةَ الحرب، وتحملُ رشاشاً أوتوماتيكياً مسدداً باتجاهي، وجسمُها مصفَّحٌ بأدوات حربٍ أُخرى تتدلى على جانبها وتنزل على خاصرتها، وعلى مَن؟

حينما تقدموا بخطواتٍ سريعة، وسمعتُ أكثر من يدٍ تعمل على تلقيم السلاح. بغتةً، فقدتُ النطق، وتعطّل لساني، حاولتُ أن أتكلم، لكن شيئاً في فمي جمد وتوقف عن الحركة تماماً، احتلت ضرباتُ قلبي رأسي ثم جميعَ جسمي. لم أفهم لماذا لا أستطيعُ الكلام، لم أكن أسمع سوى صوتِ ضربات قلبي الصاخبة وأرى خطواتِهم تقترب باتجاهي. كان صوتُ دقات قلبي عالياً إلى درجةٍ أصمَّ فيها كُلَّ ما في جسمي، تنفسي، كلماتي، صوتي، حبال حنجرتي التي بدا كأنها تجمدت تماماً وما عادت تقبل أن تتحرك أو تهتز.

فكرتُ أنها اللحظةُ الأخيرة في حياتي، لأنهم سيُطلقون رصاصاتِهم المستعدة الآن، ولسوف تدَّعي المجندةُ الهستيرية، التي تشبه إلهةَ الحرب القديمة في الأفلام، أنني قاومتُها وأنها أطلقت رصاصاتها دفاعاً عن النفس، وتذكرت، حينها أنه لم يكن يمضي شهرٌ من دون أن يفعلوا هذا بأطفالٍ تحت العاشرة يلعبون ببراءةٍ قرب الجدار.

خاطبتُ نفسي ورجوتها كي أوقف هذا الشلل الذي أصابني، وقلتُ إنه لا بد أن توجد كلمةٌ واحدة يمكن لها أن تُنقذ حياتي، وقد باتت أيديهم الآن تقتنص اللحظةَ أو الأُخرى وهم آتون خبَباً.

هكذا رفعتُ يدي بعفويةٍ تامةٍ إلى الجهتين، صانعةً بهما ما يشكل صليباً مع جسدي، وصرختُ بكل قوتي:

قفوا. هذه أرض فلسطينية.. ارجعوا.. إلى الخلف..

ليس لديكم الحق بالقدوم إلى هنا.

Stop. This is a Palestinian land.

Stop

تتحملون.. كامل المسؤولية..

صرختُ شيئاً عن لعبة خرق المساحة التي يقومون بها الآن.

صحت:

هذه أرضٌ فلسطينية.

بدا كأنَّ ما قلتُه جمَّد أيديهم وتعبيرات وجوههم، وأنهم فوجئوا حقاً بهذه المعلومة البدَهية التي بدا كأنهم يكتشفونها للمرة الأولى، بل ربما كان انقلابُ الأدوار هو ما يحدث للمرة الأولى معهم. كيف يمكن للضحية أن تلقي بالأمر القاطع لهم.

إلى الخلف.. عودوا.. أقفُ على أرضٍ فلسطينيةٍ هنا.

صرخت.. قطعتُ بصوتي العالي الفضاءَ إلى قِطَعٍ تتهاوى حولي مثل القطن.

ممنوعٌ الاقتراب!

قلتُها وأنا أصرخ.

تكلمت.. نطقت.. صرخت.. اعترضت.. عندما حركتُ يدي استطاع لساني التزحزح أخيراً، فقط بعد أن رفعتُ يدي إلى الجانبين وصرتُ صليباً بجِماع جسدي وكلِّ ذاتي.

لم يكن هناك أيٌ من طاقم التصوير، فقد ابتعدوا جميعاً إلى مسافةٍ كافيةٍ، وكنت وحدي.

وهم، أصحاب البدلات العسكرية، توقفوا، كأن الكلمات كانت بمثابة ماءٍ يُرشُّ على وجوههم المخدرة بشهوة التملك والقتل، كأن الكلمات أعادتهم إلى صوابهم، وذكَّرتهم بأنهم يتطاولون حتى على حدودهم التي أخذوها غصباً وقاموا بتحديدها بالسلاح رغماً عن أصحابها، تهامسوا مع بعضهم، ثم عادوا إلى بوابتهم ودخلوا وراء السياج، وعندها سمعتُ قرقعةَ المفاتيح المعدنية مرةً أُخرى.

طريق النجوم

للبيت الذي تسكن فيه حديقةٌ مغطاة بالعشب الأخضر، وهي تقف على العشب الداكن مجللاً بعتمة الليل، وتتطلع إلى السماء، وضوحٌ مخيفٌ يغزو الفضاء الكوني الملتحف بشاشةٍ سوداء ترسمه عميق الصفاء. النجومُ كبيرةٌ ومتناثرة مثل ماساتٍ بَرّاقة، ومجموعاتها الصغيرة تتجسد في ما يشبه عناقيد عنبٍ ضوئية، ها هي مجموعةُ الثريّا ومثلها مجموعاتٌ أُخرى صغيرةٌ وبعيدة، لكنها تتلألأ بوضوح، ويقترب النظر منها، فتصير مثل أضواء البلّور في غرفةٍ ما.

لا تصدقُ هذا الصفاء كُلَّه. يبقى أن تمدَّ يدَها كي تقطفَها!

في المنزل تدخلُ إلى حمّام، تلحقها إليه طفلةٌ صغيرةٌ تظل ملازمةً لها، وهي تشعر بسعادةٍ لأن الطفلة معها. تتذكر أنها، وهي صغيرة، كانت لا تكفُّ عن الثرثرة مع نفسها وهي وحدها. كانت تروي القصص لنفسها بصوتٍ عالٍ، حتى ذلك اليوم الذي اكتشفت فيه أنها تروي القصةَ لحائط الحمّام الأصم الذي لم يُجبها على ما حكته. فجأةً في بداية عُمر الرابعة، اختفت الطفلةُ الافتراضية الأُخرى التي كانت ترافقها دوماً، ورأت أنها صارت وحدها في حمّام بيت الجد في الخليل، حيث البلاط مكسورٌ وعطن، وعليه طحالبُ بُنّيةٌ عفنةٌ التصقت بأطرافه قرب بالوعة مجلى طاعنٍ في القِدَم وحنفيتِه الصَّدِئة.

الطفلةُ في المنام كانت ما زالت تُصاحبها في الحمّام، وكان هذا جميلاً!

ثم البيت في الداخل! والنوم على فرشات القطن أيام الطفولة، إذ كان الناس يسحبونها من "الركسة" التي كانت تختبئ في باطن الجدار، محتجَزةً وراء شرشفٍ أبيضَ طويلٍ يُخفيها عن الأعين. يشيلونها، يُمددونها على الأرض، ويستلقون فوقها كي يناموا الليلَ كلَّه تحت "لُحُفٍ" صُنعت يدوياً بشطارة المُنَجِّد صاحب العصا التي تفرد كل ما يصعب فردُه، وتعيد القطن إلى رُشده

لكي يبيتَ الإنسان تحته دافئاً، هانئاً من دون نظرٍ أو اهتمامٍ بجودة الملاءات، أو تناسبِ مقاساتها مع حجم المَرْتَبة، كما يحدث الآن.

وتلك الصورةُ الرائعة لشخصٍ مُبتسمٍ له وجهٌ ساحرٌ يُشبه المحبوب المنتظَر.

وتلك الحقيبةُ الحمراء التي كانت تضم أشياء كثيرةً لها، كانت موجودةً في المنام، لكنها ما لبثت أن اختفت!

إلا أنها كانت تعرف أنها ما زالت في مكانٍ ما هناك، على رغم أنها تعجز عن الاهتداء إليها!

في المنام! كان ذلك كله.

ولكنه كان لدى اليقظة مناماً لا يُحسن المرءُ القبضَ عليه، إلا مثل أجنحة الفراشات التي نقوم بتجفيفها، كي لا نفقد مُتعةَ الحفاظ على جمال ألوانها، ومع هذا فقد كانت تجفُّ وتهرُّ وتتهاوى!

مجردَ منامٍ كان ذلك!

طريق السلحفاة

التقطها نظري وهي تتنقل، بالكاد، وكأنها ترسم سطراً في الهواء عبر حركتها الخفية التي تشبه النسيم. كانت في منتصف الشارع فوق الزفت الشاحب الذي صار، بسبب كثرة تشققاته، يميلُ إلى البياض، وعلى الرصيف مُقابلها مشت شابةٌ في أول العمر، وهي تطلق شَعرَها الطويل اللمّاع على ظهرها، وتحمل حقيبتها الجامعية بيدها اليسرى.

كانت الكتلة المستديرة، التي تشبه كرةً رقيقةً ذاتَ لونٍ بُنّيٍ مختلِطٍ بالرماديّ، ما زالت تعبُر وئيداً في منتصف الشارع، عندما توقفت عن الحركة، وكأن صدمةً أصابتها. بدا أن صوت دولاب السيارة عندما توقفت قد أخافها، فتجمَّدت في مكانها تماماً كما يفعل أيُّ طفل مشاغب.

ضغطتُ على المِكبح وأوقفتُ العربة نهائياً، كي أفسحَ للسلحفاة مجالاً لقطع الطريق، لكنها ظلت جامدةً في مكانها وسط الشارع، فيما استدارت إليَّ الشابةُ الجامعية وهي ترمُقني بدهشةٍ خالصةٍ بعد أن رأتني أُوقف السيارة بنَزَقٍ في منتصف الشارع. كان التوقف في عرض الطريق من أجل لا شيء عملاً متهوراً، كما نقلت إليّ نظراتها، لأنها لم ترَ الكرةَ البُنّيةَ الرماديةَ الفاتحةَ المتشنجة أمامي.

كانت هي "القُرقُعة"، كما كنا نسميها دوماً. اسمٌ عامّيٌّ يُشابه اسمها بالإسبانية "Tortuga". هل أخذوه منا وقتها؟ خفتُ أن تندهس هذه الأيقونة التي زيَّنَت طفولتنا، وأضاءت لنا طريقنا، وجعلت من كل مرَجٍ أو أرضٍ أو بستانٍ رفيقاً حميماً لنا. هذا المخلوق الذي جعله خيالُنا يُثابر وينتصرُ على الأرنب المُتباهي بسرعة ركضه.

كنتُ قد تركتُ البابَ مفتوحاً عندما نزلتُ سراعاً لكي أحملَها إلى جانب الطريق.

وبدا أنّ مرور سيارةٍ أُخرى من هذا المكان بالذات قد يمعس هذه السلحفاة الشابة، التي يقودها طموحٌ عالٍ لقَطع الطريق.

أمامي امتدَّت زاويةٌ في حقل زيتونٍ قريبٍ حُرث حديثاً، فامَّحت الأعشاب الربيعية الخضراء لصالح التراب البنيّ الرطب.

"لن تُدبِّر حالَها هنا، ستظل قريبةً من الإسفلت"، قلتُ لنفسي.

جلتُ بنظري فيما حولي، إلى أن اهتديتُ إلى بقعة عشبٍ ترقد تحت التينة الكبرى التي تعرَّت من أوراقها الآن. كان هناك متسعٌ بين الأعشاب وزهور الربيع الصفراء التي تضج بسعادةٍ قرب الجذع الهرِم للتينة العجوز.

تقدمتُ إليها وعاودتُ حملَها، لكنها بدأت تتملص من كفي وكأنها زَعِلت وثارت، وصارت ترفُس بقدميها متمردةً ورافضة إبقاءها في الفضاء.

لم أكترث لاحتجاجاتها، فقد كانت السلحفاةَ الأُولى التي أراها في حياتي وهي تُحرك أقدامها بغضبٍ وترفُس، بالرغم من صِغَر حجمها.

كانت سلحفاةً صغيرة، ومع هذا فقد كانت تتوفر على إرادتها الخاصة، ولا تريدني أن أتحكمَ بها وأرسُمَ طريقها رغماً عنها!

وضعتُها على العشب أخيراً، وفي لحظةٍ اختفت عن ناظري بعد أن وجدَت لها درباً للدخول إلى الحقل هناك.

"الآن يمكنني أن أطمئنَّ عليها"، قلتُ لنفسي.

ومشيت.

زيارةٌ سنوية

كانت تأتي من آخر بقعةٍ معروفةٍ لنا على الخارطة. غاباتٌ تعجُّ بالطيور الملونة النادرة والببغاوات الثرثارة والشلالات المضيئة بأقواس قُزَح، وبمساحات غير متناهية من العُشب والشجر والغابات المَطيرة. تحاول جهدَها كي تأتي مرةً على الأقل كلَّ عام، وفي كل مرةٍ كانت تحمل لي معها هديةً مثل قطعةٍ صفراء من جلد الغزال الأصلي لمسح الغبار، أو فستانٍ نسائيٍّ ناعمٍ، قِماشُه طريٌّ وناعمٌ بلون "الكعكبان"، وأحياناً قاطعة ورق على شكل خنجرٍ مسننٍ ومطرز الغطاء بأحجار ملونة. ويوماً أتتني بقطعةٍ من جلد الكنغارو لتُفرش على "الصوفا".

كانت تأتي أحياناً كل عام، وتغيبُ أحياناً أُخرى أعواماً، لكننا كنّا نعرف أنها سوف تحضر كي تطمئن على بيتها العائليّ الخالي في القدس، لأنها كانت تسكن في نيوزيلندا مع عائلةِ ابنها المغترب في آخر العالم. في كل مرةٍ تأتي وبجعبتها خططٌ صغيرةٌ لإصلاح حائطٍ جديدٍ في الحمّام أو المطبخ في بيت العائلة الصغير الموجود على أكمة في حي البريد والذي بقي لها في القدس منذ وفاة والديها.

كنت أنتظرها بشوق، وأزعل إن غابت في إحدى السنوات. كأنها تحمل حقيبة " الداية " التي تشتمل على قصص أهلي وحكاياتهم. تحمل ذاكرةَ والديَّ الراحلَين وقصصَ الأهل والأصحاب. وحتى الآن ما زالت تأتي كلَّ عامٍ لمراجعة المحامية التي ما زالت تُحاول إنقاذ البيت الصغير من خططٍ لانهائيةٍ تضعها البلدية الاستعمارية لسرقة كل شبرٍ هناك. لمراتٍ عديدة ذهبتُ لمواساتها في بيتها المقدسي الخالي على فقدان قريبٍ لها أو واحدٍ من أهلها خلال سفرها البعيد. وفي إحدى تلك المرات، رأيتُ أُختها الراحلة التي عاشت قبلها في البيت الصغير ذاته، وكنتُ قد ذهبتُ لأُعزّي قريبتي فيها ذاتها، واقفةً بين أشجار اللوز والكرز مرتديةً إحدى فساتينها الموشحة بالورود. كانت

تقف مُبتسمةً بين الأشجار بوجهٍ متورِّدٍ لا يُضيرُه الغياب، وهي سعيدةٌ بتفتُّح براعم الزهر على الغصون.

رحلةٌ "ميمونة"!

كنا نتوغل في أرض الحكاية. نقف بين حينٍ وآخر، وننظر في جميع الاتجاهات فنرى الصحارَى تتكاثر حولنا. كانوا قد أخبرونا أن الجوّ بديع.. والدنيا ربيعٌ في ربيع. لكننا لم نرَ إلا يباباً ومساحاتٍ جرداءَ تمتلئ تباعاً بالقتلى والسجناء والرهائن والمجازر التي لا تتوقف. لم نشاهد سوى نياشينَ على أكتاف أُناسٍ احترفوا قتل من يسيرون في مظاهرات الاحتجاج، ووجوه أُناسٍ يكاد يقتلهم الحزن لضياع حقوقهم وسرقة كل الأفراح الصغيرة والكبيرة في حياتهم. لم نشاهد إلا العذابَ مرسوماً على وجوه الجميع، والحرقةَ، والألم.

نتلفت حولنا بين الحين والآخر، فيقولون لنا من جديد: "الدنيا ربيع: والجو بديع"، تيمُّناً بالأُغنية العربية المعروفة.

كان ما لديَّ بضعُ قصصٍ عليَّ أن أُخبره إياها قبل أن نتأكد مما يجري حولنا. ربما كان ما يدور تمهيداً لإبادةٍ شاملةٍ لكل ما توقعَّه الناس قبلها بفرحٍ وسرور. هكذا فضّلنا الانتظارَ والمراقبةَ كي نرى ما سيحدث.

كانت لدينا الذاكرةُ المشتركةُ ذاتُها عما يجري في البلاد. وراءنا ما لا يُحصَى وما لا يُعَدُّ من المعارك، وأمامنا المنافي والسجون والمآسي، وحولنا التعقيداتُ الناتجةُ عن ضياع حقوقنا المدنية والإنسانية كاملة.

لهذا انتظرنا من جديد..

فالدنيا لا تخلو من المعجزات، وقد يحدث تغييرٌ ما في هذه الصحارَى الشاسعةِ بناءً على قوانين التطور.

المتوسط الأزرق

حولي أوراقٌ تكدست بجانبي، وتناثر بعضها فوق الصوفا التي أجلس عليها وأنا أكتب على دفترٍ صغير. كنت أرنو بعين المستقبل إلى تتابع الصور في المرقاب الصغير. بدت لي الزجاجات التي تحمل الرسائل وتمخر في البحر مثل أرواحٍ هائمةٍ تحمل قصص أصحابها.

تجلى أمامي فتى العام 2048، وكان يحكي من جديد:

"ها هي الزجاجة التالية التي وجدتُها.

جهازي الضوئي الصغير وجد طريقه إلى اللغة المنقرضة التي كُتبت بها مسودات الأوراق في القناني التي تَجُول البحر.

مرت أيامٌ طويلةٌ وأنا أرصد البحر يومياً من فوق الجبل، حين لا تكون السماء مُقّنعةً بالضباب.

كان واضحاً بهياً في أيامٍ يصفو الجو فيها للعين المدربة، وبعيداً مُضبباً خلال الأيام كلها لمن لا يعرف موقعه أو مكانه. كان الجميع منشغلاً بإيجاد غذاءٍ لم تلوثه الإشعاعات النووية التي دمغت كل ما نملكه على ظهر الكوكب. كنت منشغلاً معهم. وكان البحر مجرد احتمالٍ بعيد، لكنّ الفرصة أتاحت لي أن أعرف عنه أكثر مما سمح لي.

كان مقابلنا بالضبط على مسافة أقلِّ من 100 كيلومتر، تضمحل إلى النصف عمودياً، وكان يرقد هناك حاملاً أسرار عوالمنا القديمة، البحر المتوسط الأبيض. لمَ أبيض، وليس أخضر أو أزرق؟ لا أدري. إنه الذي توسط العالم الغابر ذات يومٍ وحظي بكل أحلام الناس القدماء وأمانيهم.

تعرفتُ على شكله من بعيد، وبدأتُ أرى وأُميز التماع الماء من قمة الجبل ليس ببعيدٍ عنه. خطر لي أنّ السراب قد يكون مُشابهاً لهذا. ربما شاهدتُ التماع المياه سنواتٍ عدةً قبلها، وأنا أظن أنه سرابٌ يتراءى لي من بعيد.

ابتأستُ للفكرة الخرقاء. فهذا يعني أنّ تقييدنا بتصاريح أمنيةٍ صادرةٍ عن عناصر قيادة الجبل ممن كانوا يتحكمون في حياتنا، بل يُطالعون كل ما تبثه أجهزتنا أو تكتشفه أو تكتبه، وربما ما تهجس به، يجعل من تدخلهم في كل ما نعيشه واقعاً مرسوماً من العبث تغييره.

يُريدونني أن لا أذهب إلى الشاطئ خوفَ أن يكتشف سُرّاق بيوتنا أننا هنا، على رغم أنهم تحولوا إلى أشباح يسعون بين الخرائب. لا يحبون أن نقترب من البحر لأن مناطق التقسيم واضحة.

حينما أرى لونه الأزرق من بعيدٍ أتساءلُ كلّ مرة: لِمَ لم يسموه البحر الأزرق المتوسط؟

وحينما أرى لونه الرماديّ الرصاصيّ الذائب النحاسيّ اللماع البنيّ الشفاف البيج المذهب، أفرح كأنني أحضنه في بؤبؤ العين، لأنّ هذا يعني امتلاكه من جديد. ألم يقولوا إن العين تمتلك ما تراه؟!

فيما بعد، وعندما تدرّبتُ على معرفة منطقة انطباقه مع السماء، وتمييز تلك الغيمة الخفيفة، التي تحطُّ على الأرض دليلاً على بقايا قشرةٍ كونيةٍ خلَّفت ماءً له شكلُ برتقالٍ قديمٍ مُقترنٍ بالأزرق والبياض الفوسفوري، زاد تأكدي عندها من أنه هو، وأنه البحر.

عندما تمّ لي هذا اليقين، أُصبت بالحزن. فلربما كان كل هذا مجرد سرابٍ لمن يراه من بعيدٍ، وحقيقةً لمن يقف قربه. لَربما لم أسكن قط هذا الجبل، إلا أنّ تسونامي الرهيب أتى بي هنا. لربما أتيتُ وتركتُ روحي على الشاطئ هناك مُعلقةً بين الأصداف المتناثرة على الرمال.

أمشي فوق الصخور، وأجمع نثارها وشظاياها التي توزعت في كل الأماكن. أُفكّر في تاريخ كل قطعةٍ منها، ما الذي خدشه نيزك؟ وما الذي حفرته يد إنسانٍ بدائيٍّ منذ ما قبل التاريخ؟!

وهل امتلكَتْ هذه الخشبة التي أحملها بيدي، وتشبه يد مديةٍ قديمة، علاقةً مع حارسٍ رومانيٍّ خلال حربٍ من الحروب؟ وهل كانت هنالك أيام زنوبيا؟ فالأرض التي وُلدنا عليها لم تكن إلا اليابسة والمياه معاً، ولا مجال للتفكير بالفصل بينهما.

وها هي زجاجتي الثانية التي أعثر عليها وقد وجدتُ التاريخ مدوناً داخلها.

طريق البحر
2014

هذا ما وجدتُه في الأوراق داخل الزجاجة التي عثرتُ عليها بعد الأُولى. كانت فتاةٌ تروي قصتها، وهنا ما فهمتُه منها:

"كنتُ قد خرجتُ إلى مدينةٍ كبيرةٍ لمواصلة الدراسات الجامعية، بعد أن أكملتُ السنة الثانية منها. كانت مدينةً غريبةً عني تماماً، على رغم أنها لم تكن تبعد عن مدينتي الأُولى إلا بمقدار حدودٍ بريةٍ لا تزيد على مئة كيلومتر. كان في المدينة بحرٌ يزدحم بمصطافيه، فلا ينال زائره إلا مساحةً تكفي لكرسيٍّ قماشيٍّ يتمدد عليه تحت مظلةٍ قماشيةٍ عريضةٍ، إن لم ينزل للسباحة..".

كانت تقيم في بيت أقارب بعيدين، أعلمتُهم قبل خروجها بأنها قد رتبت أُمورها لترك بيتهم والانتقال إلى سكنٍ للطالبات. حملت على ظهرها شنطتها القماشية كبيرة الحجم، وقررت أن تقوم بالإطلالة على البحر قبل الوصول إلى السكن الجديد. وهناك، وهي تَجُول بين صفوف الكراسي المزدحمة باحثةً عن مكانٍ فارغ، رأت أُستاذاً من معهدها لم تحضر له إلا محاضرةً واحدة، قبل أن تعرف أنّ المقرر لا يستلزم مواصلة الحضور في دورته. أشارت له إن كان يسمح لها بالجلوس على الأرض قرب مقعده بسبب ازدحام المقاعد، فأومأ لها بترحابٍ من دون أن يتكلم. هكذا بدأت علاقةٌ خلت من الكلام. كان معروفاً بسعة أُفقه، وبآرائه المتمردة في محاضراته الشهيرة. كان اعتاد الجلوس وحيداً تحت المظلة القشية التي تنعكس ألوانُها الزاهية على الشاشة اللماعة لنظارته الشمسية، وهو يراقب ما يدور على الشاطئ والبحر المزدحم. كلاهما كان يحمل كتابه بين يديه، لذلك مضى الوقت سريعاً.

عندما لملم أغراضه بحلول المساء، حملت شنطتها القماشية التي كانت قد وضعتها بين ظهر المقعد الخشبي والرمال الساخنة، ومشت معه. ذهبت إلى بنايته من دون كلام. فتح باب بيته، فدخلت من دون كلمةٍ واحدةٍ إلى المدخل الطويل الذي يُفضي إلى غرفٍ متعددة، منها غرفة الجلوس. ظلت جالسةً هناك تحت ضوء الأباجور الكابيّ المائل إلى اللون البرتقاليّ المطفيّ ذي العمود الطويل، الذي يستقر على جهة الكنبة الثانية، تقرأ بصمت، وتُراجع أوراقها ودروسها مثله، إلى أن دخل غرفة النوم لينام، فتبعته وأخذت جانباً من السرير الواسع، ونامت من دون أن تقترب منه. تذهب إلى المحاضرة، وتقضي يومها خارجاً، ثم تعرج على البحر وتجلس تحت الشمسية وبين جموع المصطافين قريباً منه، تُقلّب في كتابٍ، أو تدرس موضوعاً مقرراً، ثم تعود معه وتتابع القراءة، ثم تنام.

كانت تستخدم البيت كما لو أنه بيتها، والشرط الوحيد الذي يعرفانه، بلا نطقٍ أو كلام، هو أن لا تُكلمه، وألا تُزعج سكينته داخل البيت.

هذا ما تكرّر عبر نظامٍ مُحكمٍ من الصمت الذي يمتلك موسيقاه الخاصة، حتى صار نسقاً اعتادته، ومنعها من البحث الجدي عن مكانٍ وبيتٍ آخرَين تأوي إليهما مع طالباتٍ أُخريات. صارت شقته مكانها، على رغم الحيّز المحدود الذي يضمن لها سُباتاً ليلياً مُريحاً، وإحساساً بالحماية والألفة، وكأنها وجدت بيتها الذي ضاعت عنه طيلة الحياة.

تلخبط هذا من دون توقُّعٍ عندما غفت، وفي لحظةٍ من النوم العميق وجدت يدها قد امتدَّت عفوياً إلى الجانب الذي ينام فيه مُتخشباً، في وضعٍ وحيدٍ كي لا يسلبها المكان. امتدت يدها، ولم تعرف، وطوّقته مثل طفلةٍ تبحث عن أهلها بعد ضياعٍ طويل.

آنذاك تغيَّرَ العالم بغتة. انحسرت مظلة البحر، وبات عليها اكتشاف البحر ذاته.

بعد مرور أكثر من شهرين، لاحظت إحدى الجارات دخولَها المتكررَ مساء، فدعتها إلى دارها محاوِلةً استدراجها للتكلم ومعرفة هويتها، فلما رفضت استنطقتها على الدرج، فلم تَبُح لها سوى بأنها قريبته التي قدمت من القرية التي ينتسب لها إلى حين إيجاد مأوى لها.

سارت وتيرة الحياة ذاتها، لا كلام، لا حروفَ يتم نطقها عدا ما يُلفَظ في الخارج لضروراتٍ عملية. كان ذلك العيش حالةً مثاليةً من انعدام الوزن والتشبث بالغرفة الصغيرة، حيث وجدا

ضفافهما المفقودة وسط تقلُّب بحرٍ هائج، هو العالم الخارجي.

صدقاً، لم يمنعها الرعب من أن تجد أنّ عالم الشمسيات في الخارج كان عالم التضارب والبحث عن مكانٍ وسط الازدحام. وعالم الغرفة الصغيرة كان الودّ والحنان والتضامن وعدم الإثقال على الآخر بشيء. كان مُختلفاً عن جفاف الصحراء ومعارك البشر. كانا زورقاً واحداً يتمايل وسط النهر المندفع. يوماً انتهى الصيف. حضرت بعض عائلتها، فاضطرت إلى استئجار مكانٍ في بيت الطالبات. وغابت عن المكان.

أحضرت عائلتها معها، خطيبها المنتظر لزيارتها، ابن العم العتيد الذي سُمّيت باسمه منذ الطفولة. هكذا ظلت بعيدةً عن مكان قلبها أياماً أُخَر، إلى أن تركوها وعادوا جميعاً إلى البلدة.

عادت إلى الشاطئ لتبحث عنه، في أواخر الصيف وأوائل الخريف. النوارس تُحلّق، وتضرب أجنحتها بجنونٍ وهي تُلقي نفسها في الماء لالتقاط الأسماك الصغيرة. كانت الأمواج قد تعكّرت وهاجت وماجت، وصار لها لون الرمال. وكانت هناك عشرات المقاعد الفارغة، ولم يكن هناك.

كان عليها إيجاده للدخول إلى بوابة البناية المغلقة، التي لم تعرف رقمَها السريَّ المُتغيّر باستمرار. وعندما سألت عنه في الكلية، أخبروها أنه سافر إلى مهمةٍ ما في الخارج، لا يعرف تفاصيلَها أحدٌ ممن تعرفهم.

أين هو؟ هل كان هو حقاً؟!

وأين البحر؟

مساحات الأرض كانت تتقلص كل يومٍ بفعل البنايات العشوائية الجديدة. هناك أماكنُ أُخرى مزدحمةً بالسيارات والقمامة المرمية في الشوارع. الشقق صغيرةٌ ومتجاورة، وتشبه علب سردينٍ ضخمة. يقضمون الأرض قضمةً وراء أُخرى، ويدفعون مخالفاتٍ باهظة، لكنهم يُثبتون الأمر الواقع، ويُحولون المدينة، أيَّ مدينة، إلى طوع أمرهم. يتشابه المقاولون في جميع الأمكنة. والبحر يختفي يوماً بعد يوم ويتحول الى شبه بقع مائية حافلة بملايين أكياس النايلون الممزقة وأغطية

الأدوية الكرتونية وأوعية الطبخ البلاستيكية. كان كل يوم يمضي يحمل ثقل سنةٍ بحالها. وكل يوم يمر يجعلها تخال أنّ نهاية العالم قريبة.

بعد أشهر، عاد واتصل بها، فقد كان رقم تليفونها المحمول معه دائماً، ووعدها بالقدوم إليها.

كانت تشك في أنه سيأخذها إلى البحر، لأنها تعرف أنه لا يمكنها الظهور معه بشكلٍ علنيّ. المعارف.. القرية وأهل القرية. وأين البحر أصلاً؟

كان يقوم بتدريب الشبان والفتيات على المسرح في مخيمٍ بعيد. أراد أن ينوجد ما لم يكن موجوداً في الحياة المدنية لشعبٍ مُحاطٍ بالسياج دوماً، مسروق الأرض والملكية. اكتشاف الحياة، واكتشاف الروح. طالبها بالقدوم. رأته سريعاً لدى افتتاح مسرحية له، ولم يكن هناك وقتٌ إلا لمصافحةٍ سريعة. حدقت فيه، كان هو هو. وعدها أن يراها غداً عند الثالثة والنصف عصراً، ليرتبا بعدها موعداً تالياً مع أهلها. سيذهب إليهم ليطلب يدها. في المرة السابقة اضطر إلى السفر، لسببٍ طارئٍ يتعلق بتدهور صحة والده الذي يعيش في الخارج. لم يستطع أن يجدها، ولم يكن لديه الوقت خلال سفره في مستشفى يعجُّ بالمرضى والمشكلات التي منعته من مواصلة البحث عنها. كان في حالة طوارئ دائمة، وقام بتأجيل الاتصال إلى حين عودته.

كان مضطرباً، لأن التمتمات الخبيثة لخفافيش الظلام الذين يتظاهرون بأنهم الأكثر حرصاً على المجتمع نشرت أنه يُحرّض الأولاد والبنات على الفسق بأشكاله، وعلى الفساد الأخلاقي بأنواعه، والتمرُّد على آبائهم. في البداية تكلموا ونشروا عنه شائعاتٍ كاذبة، ثم صاروا يقولون ما يريدون اتهامه به عبر الميكروفونات وعبر المنابر التي ترتدي لبوس الدين والأخلاق زوراً. كلُّ ما كان لديه هو قاعة تدريبٍ كبيرةٌ مُبطنةٌ بقماشٍ أسود وركحٍ خشبيّ يقف الممثلون عليه. كانت هناك أصواتٌ فتيةٌ رفيعةٌ وخشنةٌ تتعرف على حرية التعبير عن النفس. فتياتٌ يقمن بالغناء والتمثيل مع أقرانهنّ، وماذا في ذلك؟! فالغناء والتمثيل حريةٌ وراحة. الشيء الوحيد الذي كان يخطف انتباه الفتية والفتيات بعيداً عنه هو شاشات الهواتف الجوالة. كان مُضطرباً جداً ويشعر بالوجل بعد الحملة الأخيرة، التي ازدادت شراسةً، مُستهدفةً إياه من قبل أصحاب الظلام الأبدي الذين لا يُريدون أيّ تغييرٍ يُطيح بعروشهم.

خبّرها أنّ موعد الساعة الخامسة مع أهلها سوف يُنظم وضعهما. أخيراً سيأتي إلى عائلتها ويطلب يدها. لن تظل ضحيةً للخوف عندها. ستراه وهذا ما يعنيها. المهم أن يعودا معاً. تصير علاقتهما مكشوفةً أمام البشر.

ما الذي حدث بعدها؟ الورق غير واضح. يبدو أن الرطوبة ضربت أماكن الكتابة، وضببت بعض حروفها.

هناك ورقةٌ أخيرةٌ مُلتصقةٌ ببعضها، ومُرنخةٌ بسائلٍ يدل معاملُ حموضته وملوحته على أنه دموعٌ قديمة.

تقول الكتابة: "ورأيتُ أنّنا مغموران بنثارٍ يبرق كأنه آتٍ من شموسٍ صغيرةٍ تلتمع على جلدينا. كأنّ أحداً رشَّ جسدينا بمسحوق الذهب، وكأننا لم نكن من هذا العالم. وقبل أن أستسلم لجمال الصورة وأنا أنتظره، نظرتُ إلى ساعتي، ورأيتُ، ويا للويل، أنّ الموعد تأخر، وأنه لم يتصل حتى الآن".

ثم تزداد الحروف هنا التصاقاً، ويصغر حجمها، ويصير من الصعب تفكيكها. لكن ما يبدو منها: "كان مغادراً الكلية إلى السيارة التي تنتظره. حين خرجوا وخرجت رصاصاتهم إلى.. ".

.. ثم.. "حادثة دامية هزت المدينة..".

ولم أفهم شيئاً بعد، وبات عليّ انتظار أيامٍ أُخرى كي أعثر على قنينةٍ أو قنانٍ أُخرى تجعلني أرى سر الحياة الماضية التي أُفسدت على هذه الأرض، وجعلتنا نعيش في عصر الكراهية العمياء والطوفانات المستمرة".

أعطنا حُباً

كانت تأتي مع مرافقةٍ تُصر عائلتها على أن تصطحبها حينما تأتي من مدينتها، التي تقع بين جبلين، إلى مدينتنا، التي تقع على رأس جبل. تُتَلفِن لنا، وتأتي بالتاكسي العمومي. وأذهب أنا إلى المحطة لاستقبالها. المظلة البيضاء التي تحملها هيَ هيَ، لا تستبدلُها حتى لو كانت تمشي بها تحت الشمس. وحين تستطيع تدبُّر أمورها وإيجاد سيارةٍ خاصّةٍ تنقلها إلينا، كانت تأتي وحدها، هاربةً من وصايتهم عليها، فعندما يكبر المرء يلجأ الناس إلى معاملته كطفلٍ بحاجةٍ إلى رعاية.

نأكل ونشرب ونقرأ شعراً ونروي قصصاً، ثم أُعيدها إلى محطة التاكسيات. ويا لَفرحتها لو كان الشاعر صديقها في المدينة آنذاك، كي تتناول غداءها معه على مائدتنا. وحدها هي الشاعرة، التي تكبرنا عمراً بأجيال، كانت تبقى مُتألقةً وجميلةً مثل لؤلؤةٍ سوداء لا تفقد رُواءها.

خلال فترة مرضها الأخيرة، حين اضطرت إلى مغادرة بيتها الصغير، وصارت تَبيتُ في بيت أقاربها، كي لا تبقى وحدها بسبب الاضطرابات الليلية ومداهمات الجيش، كنا نتكلم هاتفياً كل ليلة، نشغل أسلاك الهاتف بين مدينتينا ونحن نفتش عن زمنٍ حقيقيٍّ يضيع بين رصاصات الجيوش الغازية وانعدام فرص التحرك بسبب إغلاق المدن. إنها تُحدّثني عن ذكرياتها، عن كل ما مر بها، ولكن ليس عن اليوم أو الغد.

كنتُ أتعجّبُ كلما التقيتُ واحدةً من صديقاتها، ووجدتُ أنهنّ يعرفن دقائق الدقائق عن حياتها. كانت هناك ثقةٌ مطلقةٌ بين الصديقات في تلك الفترة، حينما كان الرجال يُحيطون النساء بأوامر السكوت والصمت، على الأقل ذلك الجيل الذي اتخذ منه الرجال في ذلك الوقت موقفاً محدداً، يتلخصُ في أنّ المرأة ليست بحاجةٍ إلى الكلام قدر حاجتها إلى الطاعة العمياء.

رحلَت لأنها أُصيبت بالملل، كما أخبرتني. صارت القراءة صعبةً بعد الجلطة التي أثّرت على قدرة العين اليُسرى على الإبصار. قالت إنها تعبت من كل هذه الأحزان التي يرزأ بها الأطفال، الذين صاروا يتساقطون ببنادق صيد الجيش واحداً واحداً. لم تتزوج، لكنها كانت تشعر بأنّ كلَّ طفلٍ تراه هو ابنها.

كانت بيننا "رعايةٌ" متبادلةٌ مثلَ "قرابةٍ روحية". كنتُ أزورها وأسأل عنها مهما كانت الطرق صعبة.

الحب! كان أول انشغالاتها، وأحسبُ أنه كان الأخير.

أذكر طعم النارنج الذي كانت تعصره على الطعام. رشة ماء الزهر في كل كأس ماء. أذكر الياسمين على باب بيتها. وحزوز "البومل" العطرة التي كانت تُصرُّ على أن آكلها، بل وأن أتناول الصحن كله، كلما زرتُها في بيتها أو عند أقاربها.

من يستطيع أن ينسى "الشاعرة"؟ بل من يجرؤ على النسيان؟

سألتُها عنه، ذلك الذي نشر ديوان شعرٍ لها، صاحب المراسلات، بطل القصة الشهيرة التي أصدرها صديقهما الناقد في كتاب. قلتُ لها بشوق:

- صفيه لي. أُريد أن أراه، أن أتخيل شكله.
- ببساطةٍ شديدةٍ قالت: لم أره. لم ألتقِ به في حياتي.
- معقول، لا أكاد أُصدق.

فتحتُ فمي مبتلعةً الهواء لشدة دهشتي. تركتني في حالةٍ من العجب والذهول. كلُّ هذا الحب، ولم تره!

لم تكن هنالك صور وتصاوير في تلك الأيام، عدا صورة وحيدة يختارها المرء للنشر إن كانت ثمةَ صورةٌ مرافقةٌ لكتاباته أصلاً.

كيف يمكن؟

صبغتني الدهشة بلونٍ أحمر قانٍ وأنا عندها. توقف تنفُّسي وقتها. معقول! وصديقهما المشترك ينشر كتاب رسائل موجهةٍ من الكاتب الصديق إليها، ويحكي عن غرامٍ عنيف!

تداعى إلى خاطري وقتها ما قالته إلكسندرا كولونتاي، أو ربما روزا لكسمبورج، عن "الصداقة الغرامية"، أو هل كانت..! لا. الشاعرة كانت في عالمٍ مختلفٍ وقتها، ولم تستهوها الأدبيات الماركسية. المنفلوطي! لا أيضاً.

ولكن، كيف يمكن لحبٍّ أن يكون أصلاً إن لم يلتقيا أبداً. سألتُها عندها بتدقيقٍ أشد:

لكنكِ ذهبتِ إلى مصر مراتٍ عدة، فلماذا لم تلتقي به؟

قالت بغمغمةٍ واضحةٍ إنّ الظروف لم تساعدها على اللقاء به. كنتُ أعرف بدوري أنها كانت تحمل رسائلَ مُوجهةً من قائد الجيش الغازي إلى الزعيم الكبير آنذاك. هل كانت مضطرةً وقتها للعودة مسرعة؟ هل كان ثمة مَن يرافقها من رجال الأمن والأجهزة هناك، فلم تجد من المناسب أن تعرج على أصدقائها وتبادر إلى التعرف بمن حمل شبهة حبها؟

أخبرتني عن دوره الفريد في نشر ديوانها الأول وتصحيحه واختيار دار النشر والعنوان المناسب. أخبرتني عن الكثير مما قام به، عن تقديرها له، وإعزازها، وحزنها الحقيقي على رحيله.

هل كان إحساسها المبدئي بالواجب قد جعلها تختصر وجودها آنذاك في كونها مكلفةً بحمل الرسائل السياسية بين زعماء كبار يتحكمون بما يجري في المنطقة؟

أم أنها كانت مثل كثيرين آخرين مُنبهرةً بذلك الرجل الكبير الذي كانت لأحلامه بالحرية "كاريزما" مُشعةٌ أبهرت عشرات الملايين، كما أخبرتني، ولذا تجاوزت مسألة البحث والتعارف المباشر مع صديق الورق والقلم ولم تتابعها؟!

هل خرجت من نصوصها بقصدٍ أو بغير قصد كي تدخل في الجمال القادم من الحلم بنصٍّ آخرٍ تكتبه أيادٍ لا تُعدُّ ولا تُحصَى لغدٍ أفضل لم يتحقق؟!

***

بدأتُ أتساءل: ما الحدود بين الحب والصداقة؟ ما معنى الأسماء أصلاً؟ ولماذا يحتاجها الناس؟

ألا يشبه هذا كره الناس بعضهم بعضاً وصراعاتهم الناشئة بسبب القوميات والأجناس وألوان البشرة؟ ألسنا جميعاً نُمثل الإنسانية؟ لماذا العنصريةُ، إذاً؟ ولماذا الاستعمارُ والبُغضُ وكُرهُ الآخر وسرقةُ أرضِه وممتلكاته؟! أليست هذه هي الكولونيالية حاملةَ جنون العظمة والتسيُّد القسريّ!

لا شك أنّ الحب والصداقة متآزران، وقد تكون هناك خلطةٌ بين عواطف كثيرة بِنِسَبٍ كيماويةٍ أُخرى تشكِّلُ كلّاً منهما، وتتمازج وتتشكل على خصوصية البشر الذين يحتاجونها. لو نظرنا إلى اللغة العربية، لرأينا على الأقل ستين اسماً يدور في فلك الحب. فالأسماء التي تشمل الحب، ولها مئات المعاني متقلبة العمق والهدف، تبدأ ولا تنتهي، من المودة والتعاطف إلى الهيام إلى الوجد إلى العشق إلى الدنف والجوى والمحبة.. إلى الودِّ إلى الكلف إلى الغرام إلى الصبوة إلى الشغف إلى الوله إلى الشوق، وأسماء أُخرى كثيرة ذُكرت في كتبهم وأشعارهم.

لسنا بحاجةٍ إلى إطلاق أسماء على كل ما تُنزله السماء. إنها "أندلس المشاعر"، أو "يا زمان الوصل في الأندلس"، كما تقول صديقتي رفيف. فالمشاعر البشرية ليست دكانَ حلاقةٍ يطلب كلٌّ ما يريد حسب الموديل والتوصية.

يعلم الله كيف عاشت هذه المرأة التي تكتب عن الحب بعيدةً عن الحب. كل تلك السنوات وهي تُغني لكوكبٍ ضائع، ولعصفورٍ يحمل تغريدةً بخيلةً، ويقفز على سياج الدار. كل تلك العصور مرت عليها وهي تُنشد لوطنٍ يتناهشه الطامعون، بل وتزداد خلالها أعدادهم طردياً.

حين يضيع قلبٌ على الطريق، ماذا بإمكانك أن تفعل؟ لا بد أن الشاعرة تساءلت ماذا تفعل، والخيارات كانت محدودةً وواضحة. الجواب الجلي: لا خيارات هنا. لم تعرف صاحب الرسائل وجهاً لوجهٍ قبلها حتى تستطيع أن تأخذ القرار، أيَّ قرار.

ما الذي تقدر الرسائل على نقله وحمله؟ ما وزنها؟ ما خِفّتها؟ ما شدتها؟ ما ثقلها؟ ما معنى تبادلها إن لم يكن الود أصلاً؟

أكان ذلك "يوتوبيا الحب"؟ مشاعر صوفية؟! بل ربما "الحب من أجل الحب ذاته"، كما قالت هي، حسبما أتذكر.

ألا يُشبه هذا الحب كائناً حيّاً يعيش تحت الماء؟ كيف يتنفس؟ ومَن يُنعشه بالأوكسجين؟

وتذكرتُ أُسطورة الحورية أميرة مملكة البحار، التي أرادت أن تعيش على البرّ مع حبيبها، فاستبدلت عبر السحر لسانها، مقابل أن تمتلك ساقين بدلاً من ذيل الحورية. صارت لها قدمان، وصار بإمكانها أن تترك مملكة المياه من أجل العيش مع الأمير البشريّ الذي أحبَّته. أُصيبت بألمٍ لا يتوقف، ودبابيس تُعذّبها وتتخلل كل حركةٍ تقوم بها. دفعت غالياً ثمن تمرُّدها على قوانين البر والبحر، سيلاً مستديماً من الدماء التي تسيل من قدميها. صار العذاب شعار حياتها. وأين هو الأمير؟ لم تُظهر لنا القصة أين هو، بل إنها توحي لنا بأنه كان منشغلاً بالاستمتاع بحياته بعيداً عن مشاركة حبيبته هَمَّ القلب والمآسي.

وها هي الرسالة تصلني كي أفهمها. الحبُّ مُستمرٌّ لأنّ هناك كلمات، والكلمات وحدها تتطايرُ في ظروفٍ ورسائلَ عليها طوابعُ بريديةٌ وأختامُ مكاتب البريد ووشم (PAR AVION).

الكلمات تنزرع في الفضاء كأسهُمٍ نارية، فيما ينزرع الحُبُّ مثل نبتةٍ عائمةٍ تعيش في كأس ماء. الكلمات هي التي تشتبك مع بعضها، وهي التي يتفجّر فيها الحب، هي ساحة المعركة، وهي المكان الذي تنزرع فيه الألغام، ويتم داخلها اكتشاف القدرة الإنسانية المذهلة على التجاوُز، وعلى التقاط أيونات الطاقة من الفضاء. تلك التي تحدثَت عنها "جونا"، المعالجة الاستثنائية التي زارها وآمن بها أهمُّ نجوم عصرها. الحب مثل الأوكسجين. وأيونات الحب يمكن لها أن تتجول في الفضاء وتصل إلى من يؤمن بوجودها، فهذا أسهل من القفز بين اليابسة والبحر، وبالعكس.

دارت ببالي كلُّ هذه التهيؤات، وأنا أُحاول إيجاد طريقةٍ ما لصناعة فيلمٍ جديدٍ عن زجاجاتٍ تحمل "رسائل البحر"، لكنها تحكي ما يجرى في أرض السلحفاة.

الخطوة الأخيرة

لن تستقيم الكلمات أو الصور من جديدٍ إلا إذا رسمناها وحكيناها معاً هذه المرة. وددتُ أن أُسميك شهريار، وأن أكون شهرزاد كي نخلق الرواية ونصورها من جديد.

للمرة الأُولى لن تعتمد الحكاية على شهرزاد وثرثراتها وحدها. فهناك في أرض السلحفاة سوف يشارك شهريار في استيلاد الحكايات والقصص، بدلاً من أن يجلس كسولاً مُتوّجاً بتاجٍ من الورق الهزيل على رأسه، فبهذا تتزعزع المسلمات الفارغة التي يركض وراءها كثيرون، لأن العالم لن يكتمل إلا بالاثنين معاً.
قد تكون شمس الذهب الأصفر المشع، وقد أكون الفضة اللماعة أُخت القمر. لا مانع عندي أن نكون قمرين أو شمسين، وأن نتبادل المواقع، فنحن بشرٌ قبل كل شيء.

ليختلط مدادي بمدادك وحبري بحبرك.

ليمتزج رضاب الحروف بفُتات الكلام، وسماء المكان بنهر الزمن.

هل أنتَ الأرض أم الخشب؟ الصخر أم التنك؟

هل أنت الجبل أم النهر؟ الريح أم الصحراء؟

أُريد .. أن .. أعرفك، كي نقتل أُسطورة الجبار الذي يهدد البشرية جميعها بالسرقة والذبح والفناء.

عندها سيكون عُرس الكائنات واحتفالها البهيج في أرض السلحفاة.

شباط/ فبراير 2019

Notes

[1←]

الدي. سي. أو": نقطة الخروج من الجزء الشمالي التي يسيطر عليها جيش الاحتلال.

هذا الحاجز ليس نقطةً متاحةً للعموم إلا حينما ينسحب منها عناصر جيشهم مصادفةً ليومٍ أو ساعات، كعطلة السبت مثلاً. يقع مقابلها تماماً ميدانٌ يتوسطه عمودٌ إسمنتيٌّ بشع المظهر يشبه القمع المتجه إلى السماء. على ذلك الميدان وحوله استُشهد عشرات الفتية الذين لم يتخلوا عن الأمل بزوال الاحتلال، وكانوا يتظاهرون ما بين 2000-2003، ويرمون الحجارة على الدوريات الواقفة قرب مركز ما يُسمّى "الإدارة المدنية للمناطق"، وتعني جيش احتلال الضفة الغربية "بيت إيل".